www.mohamedsayedamer.com

نظـــرات
في
علم التصوف

الجزء الأول

الجذور التاريخية والفكرية
لعلم التصوف

دكتور
محمد سيد أحمد عامر
الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م

المقدمة :

الحمد لله. نحمده ونستعينه، ونستغفره. ونعوذ به من شرور أنفسنا. من يهد الله فلا مضل له. ومن يضلل فلا هادي له.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا إله غيره ولا معبود بحق سواه. إلهي.

أنت القائل في كتابك الكريم "وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"(١).

إليك سبحانك يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح ترفعه وتباركه، وليس أطيب من كلم يشرق بحبك، ويتعطر بذكرك، ويدور حول رضاك وعمل صالح خالص لوجهك وحدك يراد به التقرب منك والفوز بالنظر إليك "وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"(٢).

ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ρ أرسله الله بالحق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

فبين ρ لنا طريق الوصول إلى الله تعالى "قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ"(٣).

فكان ρ بأقواله وأفعاله المبين لنا الطريق إلى الله وحده – دون غيره "وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"(٤).

"... وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ".

---

(١) سورة الأنعام، ١٥٣.

(٢) سورة يونس ٢٥، ٢٦.

(٣) سورة آل عمران، ٣١، ٣٢.

(٤) سورة النحل ٦٤، ٤٤.

وما دام ρ هو المبين للوحي قولاً وفعلاً وتطبيقاً وسلوكاً جعل الله – سبحانه وتعالى – طاعة رسوله طاعة له "مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا"(١).

"... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا"(٢).

وأمرنا تعالى أن نقتدي به ρ في كل أقواله وأفعاله وسلوكه فيما بلغه الله إليه وكلفه بتبليغه لنا "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا"(٣).

اللهم صلي وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك سيدنا محمد ρ.

<u>وبعد:</u>

فهذه نظرات في علم التصوف نتناول فيها نشأة التصوف قبل الإسلام متتبعاً الجذور التاريخية والفكرية له مبيناً استمداده ومصادره وموضوعه والغاية منه وتأثيرها فيما بعد على غيره.

ثم تناولت بعد ذلك التصوف في الإسلام وذكرت مراحله بإيجاز وصفات كل مرحلة وتناولت المرحلة الأولى منه بالتفصيل وهي مرحلة الإحسان الممتدة من بعثته ρ إلى نهاية القرن الثاني الهجري وهذه المرحلة يطلقون عليها: مرحلة الزهد، أو – مرحلة العبادة والسلوك، مرحلة التمسك أو التصوف بالمعنى دون الاسم – المرحلة الروحية، مرحلة الخلق الإنساني" ولكني آثرت تسميتها مرحلة الإحسان على ما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله.

ولقد تناولت هذه المرحلة – مرحلة الإحسان – بالتفصيل في هذا الكتاب كجزء أول وستخرج البقية بإذن الله تباعاً.

أي أننا سنتناول في هذا الكتاب:

الجذور التاريخية والفكرية للتصوف قبل الإسلام.

---

(١) سورة النساء، ٨٠.

(٢) سورة الحشر آية ٧.

(٣) سورة الأحزاب ٢.

المرحلة الأولى من مراحل التصوف في الإسلام وهي التي تبدأ من السنة الأولى للبعثة وتمتد على سنة مائتين وعشرين من الهجرة ١ : ٢٢٠ هـ وهي تشمل على عصر الرسول ρ وكذلك عصر الصحابة والتابعين وعصر تابعي التابعين(١).

تناولت فيها:

- تعريف الزهد – التصوف الاسمي.
- مصادره وطريقة أخذ المتصوفة من هذه المصادر.
- موضوعه.
- الغاية منه.
- وتأثيره وتأثره.

ومما دعاني إلى ذلك:

اختلاف الناس حول قضية التصوف وليت الاختلاف كان هنياً وسهلاً كما في كثير من القضايا فنعمل جادين على التقريب والتوفيق فيما بينهما.

ولكن الاختلاف هنا بين وشاسع حتى وصل إلى درجة الإفراط والتفريط فنجد:

أناساً كثيرين يعتقدون أن السلوك الصوفي هو قمة المنهج الذي يوصل إلى منهاج الله تعالى.

بينما نجد خلقاً كثيرين – أيضاً – يرون العكس – أن السلوك الصوفي هو قمة المنهاج الذي يبعد الناس عن منهاج الله تعالى.

لقد سرت حركة التصوف في المجتمع البشري كله سريان الماء في العود الأخضر قبولاً ورداً، فوقفت الفطر السليمة المحبة لوجه الحق الباحثة عن الحقائق تبحث لنفسها عن فيصل في هذا المعترك.

- فالمؤيدون لهم رأيهم ويدللون عليه بحجج وبراهين.
- وفي الوقت نفسه يدفع المعرضون أدلة المؤيدين ويبرهنون على رأيهم بأدلة وحجج.
- فأين الحقيقة إذن؟ وإلى أين تتجه؟

---

(١) نظراً لطول الكتاب آثرنا كتابة هذه المرحلة في الجزء الثاني إن شاء الله تعالى.

ومن هنا كان لابد من دراسة متأنية حول. التصوف وعلم التصوف – نتتبع تاريخه وجذور نشأته في البشر حتى يتضح لنا وجه الصواب وتظهر الحقيقة.

من أجل ذلك كانت هذه الدراسة،،،

وفوق – ما تقدم ذكره – نبتغي – أيضاً –

١– توضيح ما عليه واقع التصوف الآن نتتبع تاريخه من نشأة البشرية إلى الآن.

٢– توضيح المبادئ الروحية – الصوفية – المشتركة مع تأثيرها وتأثرها على مدى التاريخ البشري كله.

٣– بيان تأثير هذه المبادئ في الناحية الروحية في الإسلام سلباً أو إيجاباً.

<u>ليصل بذلك إلى:</u>

تحديد الدخيل في الحياة الروحية الإسلامية.

تحديد علم التصوف الإسلامي الحقيقي.

تحديد القضايا الدخيلة على التصوف الإسلامي وهل أثرت فيه فعلاً أم لا؟ وهل أثر هو فيها؟

بيان صحة أو فساد آراء المستشرقين. ومن على شاكلتهم حول تأثر التصوف الإسلامي بمصادر التصوف غير الإسلامي وقضاياه.

<u>والحق أقول:</u>

إن قصة التصوف قضية شائكة ودقيقة، لأنها تجربة شخصية سرية وفردية يصعب التعبير عنها وهي في الوقت نفسه مهمة وخطيرة حينما خرجت إلى حيز الوجود كتجربة جماعية ومعلنة فأصبحت علماً وعلماً له تعريفه وموضوعه ومصادر وغاية مما جعل الباحثين.

١– إما مؤيد بإطلاق.

٢– إما معارض بإطلاق.

<u>والحق:</u>

إذا أردنا أن تصل إلى رأي محق فيها – إلى حد ما – على حسب فهمنا المتواضع – القاصر عن الوصول إلى الحقيقة القاطعة فيها.

لابد لنا أن نسير مع القضية سيراً تاريخياً وفكرياً وموضوعياً لنتتبعها من جذورها ذاكراً ما لها وما عليها وتأثيرها وتأثرها إلى أن يصل البحث بنا حيث شاءت إرادة الله تعالى – إلى الصواب فيها.

ولقد توخيت في ذلك إظهار الحق، وكشف الحقيقة من غير تعصب لقول، ولا اتباع لهوى النفس.

وعلى كل فهذه الدراسة لا أدعي أنها وحدها الحق والصواب ولا أدعي الحق فيها فلقد سبقني فيها جهابذة العلم والمعرفة من أساتذتنا العلماء الأجلاء الأفاضل.

ولكنها محاولة متواضعة ومساهمة يسيرة أريد بها وجه الله تعالى في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

هذا والله أعلم ومنه الهداية والتوفيق

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

المرج المعمورة

في يوم الأحد

١٢ من ربيع الأول سنة ١٤٠٩ هـ

الموافق ٢٣ من أكتوبر سنة ١٩٨٨م

دكتور

محمد سيد أحمد عامر

الـبـاب الأول
الـتـصوف قـبـل الإسلام

الجذور التاريخية والفكرية للتصوف قبل الإسلام

ويشتمل على:

مدخل.

والفصول الآتية:

الفصل الأول: الطرق الموصلة إلى الله تعالى.

الفصل الثاني: التصوف الشرقي.

الفصل الثالث: التصوف الغربي – اليوناني.

الفصل الرابع: التصوف الصابئي – اليهودي – النصراني.

الفصل الخامس: التصوف العربي قبل الإسلام.

مـدخـل :

إن الرياضة والمجاهدة والتصوف باعتباره فكراً وفكرة وباعتباره – حالة – نشأ مع نشأة الإنسان نفسه.

والاستدلال على هذا لا يعتمد على النصوص؛ لأن نشأة الإنسان كانت قبل الكتابة والتسجيل والتدوين.

ومن المسلم به بداهة:

أن الإنسان منذ نشأته يتطلع إلى معرفة الغيب، وإلى التطلع إلى عالم ما وراء الطبيعة ومحاولة الاتصال بهذا العالم عن طريق وسيلة صحيحة – الوحي – لهذا الاتصال.

هذه الفكرة تقرها الشرائع – على هذا الوضع العام؛ لأن الشرائع السماوية تعترف بنبوة آدم، وأن الله تعالى قد اجتباه، أنها تعترف بصلته بالله، وبأن الله تعالى قد علمه الأسماء كلها واصطفاه في الوقت نفسه.

"وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" [البقرة ٣١].

"إِنَّ اللَّـهَ اصْـطَفَى آَدَمَ وَنُوحًـا وَآَلَ إِبْـرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْـرَانَ عَلَـى الْعَـالَمِينَ". [آل عمران ٣٣].

"إن الشرائع. على وجه العموم – لا تتجه اتجاه التطوريين أو النشأويين، الذين يرون أن العقل الإنساني درجات مختلفة ومر بمراحل متعددة، وأن تطلعه إلى المعرفة الإشراقية نشأ متأخراً عندما نضج وتهذب وكمل. ولا يوجد دليل واحد على أن العقل البشري درجات، تتابعت رقياً بل كل الأدلة تثبت أن العقل – باعتباره – عقلاً – لا باعتباره – معرفة مكتسبة هو هو – في بني البشر بأديهم ومتحضرهم.

يضرب الإمام الراحل الشيخ الدكتور/ عبد الحليم محمود مثلاً لذلك فيقول "لو أخذنا طفلاً من البدائيين، من مجاهل إفريقيا، ووضعناه منذ نشأته في أرقى الأوساط الأوروبية تحضراً، لنشأ نشأة أوروبية بحتة.

وكذلك الأمر، لو أخذنا طفلاً من أرقى الأوساط الأوروبية تحضراً ووضعناه مع البدائيين منذ الميلاد لنشأ نشأة بدائية"[١].

إذن العقل الإنساني هو: هو منذ أن وجدت البشرية – الإنسانية – إلى الآن، والذي اختلف إنما هو المعارف المكتسبة، وإليها يرجع.

تمييز رجل القرن العشرين بعد الميلاد، عن الإنسان فيما قبل الميلاد. تمييز البدائي عن المتحضر.

١- إذا كانت المعارف المكتسبة – ومنها – التصوف – مصدرها الوحي الإلهي عن طريق رسول والالتزام بالمنهج تكون المعارف المكتسبة إلهية.

٢- إذا كانت المعارف المكتسبة – ومنها التصوف – مصدرها عقل الإنسان أو التقاليد الأرضية أو التنسك تكون المعارف أرضية المصدر والنشأة والموضوع والغاية.

١- هذه العقيدة – المعارف المكتسبة – التي مصدرها الوحي – الصحيح وجدت مع الإنسان منذ أن سواه الله ونفخ فيه من روحه.

"فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ". [ص ٧٢].

هذه النفخة الإلهية في الإنسان، وهذه الروح التي بين جنبيه، وهذا القلب الذي منحه الله إياه إذا ارتكز على أساس صحيح من الدين، ثم جاهد في طريق التزكية والتصفية المقررة في الدين الصحيح، واتخذ من الوسائل الشرعية التي تؤدي إلى الاتصال بالملأ الأعلى، فإنه ينتهي – بتوفيق الله تعالى – إلى ما يؤمن هذا الاتصال، وإلى تحقيق ما يطمح من ثمار الاتصال أي المعرفة.

٢- وإذا كانت تلك المعارف المكتسبة عن طريق المجتمع أو العقل المجرد أو البصيرة العمياء المجردة عن الوحي واتخاذ تلك الوسائل بعيداً عن الوحي لمعرفة ما وراء الطبيعة.

---

(١)

هذا النمط المنحرف أيضاً – موجود مع وجود الإنسان نفسه لمن لم يخضع للوحي منذ آدم إلى أن تقوم الساعة ما دام الطموح وحب الاستطلاع، والتشوف إلى عالم الغيب أملاً منشوداً يريد أي إنسان الوصول إليه.

وهذه هي المجاهدة، التزكية، البشرية وهذا هو التصوف الإنساني الاجتماعي، العقلي، الوجداني المنحرف.

إذن ينابيع – المنطلقات الفكرية للتصوف – البشري العالمي هي منحصرة في منابع المعرفة الفكرية التي هي:

١ – المعرفة قبل الحضارة اليونانية:

كانت المعرفة – قبل الحضارة اليونانية – تسير سيراً فطرياً **فقد كان هناك:**

١– ميدان للحس يجول الحس ما يشاء فيه.

٢– ميدان للعقل يبحث فيه كيفما يشاء.

٣– ميدان ما وراء الطبيعة.

لقد كان من المعروف في الحكمة الهندية، والحكمة المصرية القديمة وغيرها .. أن:

عالم ما وراء الطبيعة إنما هو من اختصاص البصيرة – الوحي – وما كان يسمح قط في تلك الحضارات – قبل الحضارة اليونانية – أن تختلط الأمور، وأن تتعدى كل أداة من أدوات المعرفة اختصاصها.

وكان من نتيجة ذلك:

تحديد ميادين وموضوعات المعرفة:

كانت ميادين المعرفة محددة تحديداً كاملاً، لا لبس فيها ولا غموض.

كانت محددة فيما يتعلق بالوسائل، وكانت محددة فيما يتعلق بالموضوعات.

واستمر الحال كذلك إلى نشأة الحضارة اليونانية فتغير الحال من حال إلى حال.

٢ – المعرفة في ظل الحضارة اليونانية:

حينما نشأت الحضارة اليونانية، لم تكن هذه الحضارة مرتكزة على دين صحيح، ولم تكن مستقرة على دعائم من النصوص المقدسة الثابتة.

فكان من نتيجة ذلك أن:

بدأت الأمور تختلط والحدود تزول – نوعاً ما – بين ميادين المعرفة وبدأت بالتالي تضطرب الأمور فيما يتعلق بأدوات المعرفة حينما تدخل العقل البشري في مسائل ما وراء الطبيعة واستمرار الحال كذلك رويداً رويداً إلى:

أرسطو:

فذهب أرسطو بهذا الخلط أقصى مداه واضطرب الأمر بسببه اضطراباً لا يزال العالم – إلى الآن – يعاني الكثير من آثار انحرافه.

إن إدخال العقل في مسائل ما وراء الطبيعة انحراف يؤرخ بالعصر اليوناني، وفيما تلاه من العصور.

ويجب أن تلاحظ الآتي:

١- إذا كان العصر اليوناني بهذه الصورة فإنه لا يعدم الخير فيه من حيث إن .. بعض صور الحضارة اليونانية القديمة كانت تسير على منهج الحضارة الصحيحة هندية، مصرية.

فيثاغورث ودرسته كانوا يسيرون في المعرفة على أسس صحيحة.

٢- يجب أن تلاحظ ملاحظة هامة وهي:

أن التيار الجارف للفكر اليوناني المنحرف والذي يحكم العقل في ما وراء الطبيعة قد اكتفى على السيطرة كلية على الحضارة والفكر اليوناني للأسف لا ولكفه.

تعدى أثره إلى العصور التي تليه فوثن اليهودية والنصرانية وسيطر عليهما كلية وأخضعهما لمنهاجه ولأول مرة في تاريخ الفكر البشري نرى المنتصر – اليهودية – والنصرانية – تذوب شخصيتها وفكرها في الفكر اليوناني والمنهاج اليوناني كلية فأخضعت اليهودية والنصرانية للفكر اليوناني المنحرف يشكل فيهما كيف يشاء ولم تبق إلا غلالة رقيقة بسيطة هشة تلعو اليهودية والنصرانية وإن كان محتواها وليها الفكر الينواني كله.

وسيتضح ذلك بعد في هذا الباب:

على الرغم من ذلك لم يكن خفياً على بعض من ذوي البصائر النافذة من اليهود، النصارى الذين اتخذوا من الآثار المقدسة ملجأ وعصمته والذين اتخذوها شعاراً نذكره للإنصاف وإن كانت الأغلبية المطلقة وثنية يونانية.

٣- يجب أن ينبه على أننا سنتناول في دراستنا هذه الجانب السمتي للمعرفة العرفانية بجانبيه الحقيقي والرمزي؛ لأنه هو جانب دراستنا وندع الجوانب الأخرى كالجانب الفلسفي، والاجتماعي إلى تخصصه.

من أجل ذلك كله، كانت الصوفية – علم التصوف – قبل الإسلام نتاجاً للثقافات البشرية ولذلك لا تجد ملة من الملل أو نحلة من النحل لم يرد إليها التصوف وسنقتصر هنا على الأنواع العامة البارزة والمهمة في تاريخ الفكر البشري وهو ما سنتناوله في هذا الباب.

الـفـصل الأول
الـطرق الـمـوصلـة إلـى الله تـعـالـى

ويشتمل على

مدخل

ومبحثين:

المبحث الأول: طريق الوحي.

المبحث الثاني: طرق الفكر البشري.

مـدخـل:

إن الإيمـان بـالله تعـالى وتحديد الطـرق الموصـلة إليـه ومعرفـة السيل المؤديـة للتقرب منه وزيادة الصلة به تعالى حقيقة موجودة لا لبس ولا غموض ولا إبهام فيها.

ويلتمس الإنسان إيمانه بربه ويتحسس الطرق الموصلة لمرضاته من:

أولاً: عن طريق الإيمان: الوحي – وهذا ينقسم بدوره إلى:

١- الإيمان الفطري.

٢- الإيمان الشرعي "الإيمان التكليفي" – الوحي.

وهذا هو ما يبحثه المبحث الأول.

ثانياً: عن طريق الفكر البشري – ثمار الفكر البشري: لا وحي وهذا ينقسم بدوره إلى:

١- البيئة الاجتماعية – التقاليد الأرضية – التأليه الاجتماعي العقلي.

٢- التفلسف – العقل.

وهذا ينقسم إلى:

مبدأ تعدد الوجود وهو مغايرة الإله للعالم.

مبدأ وحدة الوجود – المبدأ الوحدوي وهو ينقسم إلى:

أ – العالم حق وهذا أدى بدوره إلى وحدة الوجود الطبيعية أو المادية.

ب- الإله حق ومنه انبثق (وحدة الوجود الروحانية – مبدأ الحلول).

٣- الإشراق – التأليه الإشراقي وهذا هو ما يبحثه المبحث الثاني.

المبحث الأول- طريق الوحي

الإيمان الفطري، الإيمان التكليفي.

١- الإيمان الفطري:

لقد خلق الله تبارك وتعالى الإنسان وأبدع تصويره، وجعل له السمع والبصر والفؤاد وعلمه تفضلاً وتكرماً منه ما يشاء وكان فضل الله على الإنسان عظيماً. "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" [النحل ٧٨].

وأودع الله في الإنسان الطاقات وأعطاه حرية الاختيار لتوجيهها ويتجه بها – بإذن ربه – ثم باختياره نحو غاية واحدة وهي عبادة الله وحده ومعرفة الطرق السوية

الموصلة إلى معرفة ربه ليتقرب إليه وتزداد صلته بها، ولينعكس ذلك سلوكاً لتعمير الكون الذين يعيش فيه.

وبواسطة هذه الطاقات الهائلة – التي أودعها الله في الإنسان إن أحسن الإنسان استغلالها واستخدمها الاستخدام الأمثل تمضي مسيرة الحياة وتتقدم وتنسجم العلاقة الرتيبة بين الإنسان والكون على أساس من الود والاحترام؛ لأن الله تعالى سخر الكون تفضيلاً وتكرماً منه للإنسان ومكنه من السيادة على غيره من المخلوقات.

"اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ". [إبراهيم ٣٢ : ٣٤].

لقد فطر الله تعالى الإنسان على الفطرة النقية السليمة التي هي معرفة الله تعالى معرفة صحيحة لو ترك الإنسان بعيداً عن الضلال والهوى والغفلة لدفعته تلك الفطرة إلى البحث عن خالقه والتسليم لبارئه والإذعان لمبدعه والتصديق بمصوره للتعرف منه – وبواسطة الوحي – عن الطرق والسبل الموصلة إليه للتقريب منه.

"وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ". [البقرة ١٦٣ : ١٦٤].

إن الفطرة السليمة هي خلقة الإنسان الأصلية مجردة عما لحقها من شوائب المادة وسوآت الهوى وهي – في الوقت نفسه – صبغة الإنسان التي يولد عليها وصورته السوية التي يوجد على هيئتها "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" [الروم ٣٠].

"صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ" [البقرة ١٣٨].

إن البشر جميعاً خلقوا على هذه الفطرة الدينية المستقيمة وعلى تلك الجبلة القائمة على معرفة الله وزيادة القرب منه لتكتمل لها ذاتيتها السوية.

يقول المرحوم د. دراز:

"إن فكرة التدين فكرة مشاعة لم تخل عنها أمة من الأمم في القديم والحديث، رغم تفاوتهم في مدارج الرقي ودركات الهمجية.

إنها أقدم في المجتمعات من كل حضارة مادية وأنها لم تقم على خداع الرؤساء وتضليل الدهاة، ولم ترتكز على أسباب طارئة أو ظروف خاصة بل كانت تعبر عن نزعة أصيلة مشتركة بين الناس.

إن فكرة التدين في جوهرها ليس هناك دليل واحد على أنها تأخرت عن نشأة الإنسان"(١).

ومن ثم يعرض القرآن الكريم علينا الإيمان الفطري المستقيم ويبين لنا في الوقت نفسه الباعث الصحيح على التدين الفطري السمح في فطرة الإنسان ومكوناته في العهد الذي أخذه الله تبارك وتعالى على البشرية وهم في عالم الذرا وأقرت به طواعية واختياراً.

يقول الله تعالى: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ" [الأعراف ١٧٢ ، ١٧٣].

يقول الإمام ابن كثير "يخبر الله تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلاهم شاهدين على أنفسهم إن الله ربهم ومليكهم وأن لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم

(١) الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان محمد عبد الله دراز جـ ١، ص ٨٢ دار العلم – الكويت ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م.

على ذلك وجبلهم عليه قال تعالى "فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون"[١].

لقد استخرج الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم التي ستوجد جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن وسألهم. ألست بربكم؟ فأجابوا جميعاً: بلى شهدنا.

وبهذه الشهادة قد سقطت أعذارهم التي يتعللون بها أمام الله تعالى يوم القيامة وليدل على أنها شيطانية عارضة وهوى نفس أمارة بالسوء.

١- أن تقولوا: إنا كنا عن هذا التوحيد لغافلين.

٢- أن تقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبل والسير على آثار بنائهم دون نظر وتدبر وتقليدهم في تقاليدهم الشيطانية دون تعقل أو تدبر.

وبهذا يكون المانع عن الإيمان الفطري والذي يحجب الفطرة النقية الصحيحة عن الإيمان الصحيح إما:

غفلة داخلية نابعة من هوى الإنسان ونفسه فهي بذلك غفلة داخلية ومؤثر داخلي.

انحراف خارجي نابع من تقليد الآباء وأتباعهم في آرائهم وأقوالهم وافعالهم دون وعي وتدبر وهذا هو المؤثر الخارجي – البيئة الاجتماعية.

<u>ومن ذلك نستنتج أن:</u>

التدين والإيمان الفطري مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالميثاق الأول الذي أخذه الله على البشرية كلها وهم في عالم الذرا.

الإنسان بفطرته يشعر في داخل نفسه بقوة غيبية أكبر منه يريد أن يتعرف عليها وأن يتقرب إليها وفي الوقت نفسه تلح على فطرته أسئلة فطرية يريد الإجابة الصحيحة السوية عليها، ممن شهد له بالربوبية وهو في عالم الذرا؟؟

---

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي سنة ٧٧٤ هـ جـ ٢، ص ٢٦ طبع بدار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه – القاهرة، مصر.
يقول الشيخ الباقوري بأن العهد والميثاق هو الخلفة والصورة التي خلق الله الإنسان عليها فقط أي أنها نصفت بلسان حالها وليس بلسان مقالها أنظر الدين والتدين له ص ٢٤.

ما البداية؟ وما النهاية؟ وما العلاقة بينهما؟ وماذا بعد النهاية؟ وما هو المنهاج المتبع للسير بين البداية والنهاية!

من هو الإله الذي آمنت به وأنا في عالم الذرا؟ هل هو أكبر مني؟ ما هي حدوده؟ أين هو؟ وما هي متطلباته؟ ما هي علاقته بي وعلاقتي به؟

ما هو الكون الذي أعيش عليه؟ من خالقه؟ وما بدايته وإلى أين نهايته؟ وما الغاية من خلقه؟ ما هي علاقاتي به وعلاقته بي؟؟

ما العالم الذي أعيش فيه؟ ما علاقته بي وعلاقتي به؟

ما علاقتي بنفسي؟ وما علاقة نفسي بي؟ وما علاقتي بالوسط الذي أعيش؟ وما هو المنهاج السليم لتزداد صلتي بخالقي ثم لأتعامل به في مجتمعي؟

أسئلة تلح على الفطرة وكلها تدور حول العلاقة بين: الله – الكون – العالم – الإنسان.

تريد أن تتعرف الفطرة من ورائها الطريق الموصلة إلى الله تعالى لتجد الإجابة النموذجية الصحيحة ومن هنا كانت فطرة الإنسان فطرة جزئية تتلمس الطريق وتعرف السبيل الحق لتربط بالحقيقة الكلية الكبرى "فاعلم أنه لا إله إلا الله".

ومن هنا كان ...

٢- الإيمان التكليفي:

فيرسل الله تعالى الرسل تكرماً وتفضلاً منه ويؤيدهم بالمعجزة لإثبات دعوى رسالتهم ليبينوا الناس – وللفطرة – الطريق الصحيح إلى الله تعالى، وليجيبوا بالوحي الذي أنزل عليهم على أسئلة الفطرة الحائرة الباحثة عن الحق والحقيقة.

"مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا" [الكهف ٥١].

"أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)" [الأنبياء ٣٠ : ٣٣].

"أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ" [النحل ١ : ٤].

"وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ" [المؤمنون ١٢ : ١٦].

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" [الحجرات ١٣].

"إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا" [الإسراء ٩].

"وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا" [الإسراء ٨٢].

"كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ" [إبراهيم بعض آية ١].

"وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا" [الإسراء بعض آية ١٥].

"رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا" [النساء ٦٥].

ومن هنا كان الطريق إلى معرفة الله تعالى لا يكون إلا عن طريق الوحي والرسول المبلغ له وفي الوقت ذاته يبين الوحي عن طريق الرسول الطريق الموصل لمعرفة الله تعالى حينما يخاطب العقل والوجدان.

وبذلك أصبح العقل والوجدان – البصيرة – طريقين – وسيلتين – توصلان إلى الله تعالى عن طريق الوحي وتفهمهما له وخضوعهما لأمره وإذعانهما لتوجيهاته.

ومن هنا يكون العقل الصحيح السليم والبصيرة – الوجدان – من أهم الوسائل الدينية الحقيقية الموصلة إلى الله تعالى إذا ارتبطا بالوحي.

"سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" [فصلت ٥٣].

وإذا لم يخضع العقل والوجدان لمظلة الوحي فيكونان من أهم الوسائل الشيطانية للبحث عن الحقيقة المجردة وعن الطريق الموصلة إليها وفي هذا ضلال مبين؛ لأنهما أقحمتا في مجال ليس من مجال بحثهما وهو – المجال الغيبي – ما وراء الطبيعة.

وبذلك تكون الرسل عن طريق الوحي بينت طريق معرفة الله والوصول إليه متمثلاً في العقل والوجدان – البصيرة – إن سارتا تحت مظلة الدين وفي الوقت نفسه حددت طريق المعرفة المنحرفة الشيطانية في طريق العقل والبصيرة – أيضاً – إن خرجنا عن الوحي وتمردنا عليه.

"فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر".

"لا إكراه في الدينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" [البقرة ١٥٦].

فمن لم يؤمن بالله فله وسائله الشيطانية المنحرفة من عقل مجرد وبصيرة عمياء وما يترتب على الوسائل المنحرفة من معرفة وصلة بالله فهو خطأ ومنجرف ومن آمن فقد دخل باب الدين وأصبح مسلماً ولكنه يريد أن يزداد في إسلامه وأن يوغل في إيمانه فأعمل عقله وجند فؤاده وبصيرته على حسب متطلبات الوحي وتفهمها له والسير على خطته فجند المسلم عقله وبصيرته لزيادة القرب من ربه فالتزم شرعه وطبق أوامره ومنهاجه.

<u>فتحول من الإسلام إلى الإيمان:</u>

"إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ" [الأنفال ٢ : ٤].

<u>مرحلة التقوى:</u>

وبتطبيقه ما أمره الله به قولاً وسلوكاً والتزامه به في مجال حركة الحياة لينتقل بذلك إلى صفات المتقين بعد أن حقق صفات المؤمنين ليزداد قرباً من الله تعالى عن طريق شرعه.

"وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ" [البقرة ٢ : ٤].

"أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ" [يونس ٦٢، ٦٣]

فيصبح مؤمناً منقياً وبذلك أصبح ولياً لله والله يتولى الصالحين.

والآيات كثيرة في هذا المجال.

<u>مرحلة أولي الألباب:</u>

حينما تتحقق في المسلم المؤمن صفات المتقين فيصبح مسلماً مؤمناً متقياً يريد أن يزداد سلطة بربه عن طريق الالتزام بشرعه تصوراً وسلوكاً في جميع أوجه النشاط البشري ظاهراً أو باطناً قلباً وقالباً فيتجه إلى صفات أولي الألباب ليدخل بابها بتطبيق صفاتها فيصبح في جميع حالاته ذاكراً لربه أن في أكله شرابه، أن في عمله وتدريسه أن في بيعه وشرائه، في عبادته ومعاملاته ويصبح قلبه مشغولاً ومتعلقاً بربه.

"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آَمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآَمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآَتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ" [آل عمران ١٩٠ : ١٩٤].

"أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ" [الرعد ١٩ : ٢٢].

<u>مرحلة الإخبات والإحسان:</u>

حينما يشعر المتقي بتحقق صفات الألباب فيه يريد أن يزداد صلة بربه عن طريق وحيه ونبيه.

فيدخل في مرحلة الإخبات – وبعد من المخبتين.

"وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" [الحج بعض آية ٣٤، ٣٥].

فيدخل في مرحلة الخوف من الله قلباً وقالباً في كل حركة يتحركها.

"وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى" [النازعات ٤٠ : ٤١].

"وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ" [الرحمن ٤٦].

ثم بعد ذلك يجاهد نفسه وقلبه ليعبد الله لذاته لا خوفاً ولا طمعاً طبقاً لشرعه فيدخل عندئذ مرحلة الإحسان.

"أعبد الله كأنك تراه فلم لم تكن تراه فإنه يراك".

المراقبة التامة لله تعالى في جميع حركات الحياة وسكناتها سراً وعلانية.

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" [المجادلة ٧].

<u>مرحلة الصالحين ثم الشهداء ثم الصديقين:</u>

فإذا ما تحقق في المسلم كل ما سبق جد واجتهد وعبد ربه حق العبادة فيتحول من مرحلة الإحسان إلى مرحلة الصالحين ثم الشهداء ثم الصديقين "وَمَنْ

يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا" [النساء ٦٩].

إذن يتلخص لنا مما سبق:

الدرجات التي يرتقيها المسلم ليصل إلى مرحلة الصديقين:

– الإسلام أولاً وهو الأساس.	– الإيمان.
– التقوى.	– أولوا الألباب.
– الإخبات.	– الإحسان.
– الصلاح.	– الشهادة.
– الصديقية.	

وتلك هي من وجهة نظري ما يسميه – بعض المتصوفة – المقامات – هي تلك هي الدرجات العليا كما بينها لنا القرآن الكريم.

وإذا ما وصل المسلم إلى درجة الصديقية ترتب عليها الآتي:

١- أصبح عبداً من عباد الرحمن وليس نبياً أو رسولاً، لأن النبوة والرسالة منة ومنحة وليست مكتسبة.

"وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا" [الفرقان ٦٣ : ٧٥].

٢- إذا ما أصبح عبداً من عباد الرحمن منحه الله منحة لحظية مؤقتة من عنده تفضلاً وتكرماً مع التزام العبد بالوحي واتباعه للرسول. "واتقوا الله ويعلمكم الله".

٣- يصل بذلك إلى مرتبة اليقين بأنه راحل فيستعد للقاء ربه وهذا يورث فيه المجاهدة وكثرة العبادة.

"أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ" [التكاثر ١ : ٧].

علم اليقين ثم عين اليقين ثم حقيقة اليقين.

"وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ" [أي الموت – الحجر ٩٩].

٤- فإذا ما وصلوا إلى مرحلة اليقين تراهم عند الاحتضار فرحين مسرورين لأنهم من المقربين.

يصور القرآن الكريم ذلك بقوله.

"فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنت نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين – فسلام من أصحاب اليمين – وأما إن كان من المكذبين الضالين – فنزل من حميم – وتصلية جحيم".

"إن هذا لهو الحق اليقين" [الواقعة ٨٨ : ٩٥].

٥- حتى ما إذا قبضت أرواحهم فازوا بنعيم ربهم وكانوا من السابقين يبين ذلك القرآن الكريم.

"وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠) وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ" [الواقعة ٧ : ٤٧].

٦- وعلى الرغم من النعيم المقيم الذي أعد لهم لا يريدونه لا تكبراً ولا تعنتاً ولا امتناعاً ولكن هم يريدون الحظوة برب هذه النعم.

"وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" [يونس ٢٥ : ٢٦].

هم يريدون الفوز بـ "وزيادة" أي النظر مشاهدة ربهم وخالقهم.

٧- إذن الرأي القائل بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص على حق وصواب والرأي الآخر الذي يقول بأن الإيمان يزيد وينقص على حق وصواب.

لأن الرأي الذي يقول أن الإيمان يزيد وينقص نظر إلى بداية المرحلة بعد الإسلام فهناك مرحلة الإيمان، التقوى، أولوا الألباب المحسنين المخبتين.

يزيد بالطاعة وهذا ما تحقق فعلاً مع هؤلاء.

الرأي القائل بأنه لا يزيد ولا ينقص نظر إلى نهاية آخر مرحلة في الإسلام وهي مرحلة الصديقية.

وبذلك يكون الرأيان صحيحين.

٨- يترتب على ذلك كله أن:

- الطريق إلى الله تعالى لا يتأتى مطلقاً إلا عن طريق وحي ورسول ليبين الطريق إلى الله تعالى وليكون هو بنفسه ندوة صالحة تطبيقية لهذا.
- أن الوحي حينما يحدد الطريق إلى الله تعالى يخاطب العقل والوجدان.
- يترتب على ذلك أن العقل والوجدان وسيلتان مهمتان لتحقيق الوصول إلى الله تعالى عن طريق الطريق المحدد له شرعاً وهو طريق الوحي وهما – العقل، الوجدان – طريقان مهمان من طرق المعرفة المتفهمة للوحي الملتزمتان به المطبقان لمبادئه.
- يصبح طريق الوصول إلى الله تعالى هو طريق الوحي ثم عن طريق العقل والوجدان يصبح اكتساباً – مكتسباً – عن طريق الالتزام بالوحي والقيام بتطبيق المنهج الإلهي عقيدة وشريعة – عبادات معاملات – وأخلاقاً.

<u>ثم يزيد العقل والوجدان صلته بالله عن طريق:</u>

إلزام نفسه بالسنن ثم بالمراقبة لله ظاهراً وباطناً لتحقيق أقصى درجة للتقرب بها إلى الله تعالى:

- ثم بعد مرحلة الاكتساب كلها لعل الله من ورائها يمنحه منحة من عنده "وعلمناه من لدنا علما" "واتقوا الله ويعلمكم الله" وفي الوقت نفسه لا يخرجه هذا عن مجال التكليف وعدم الالتزام بالوحي، لأنهة لحظة منه ومنحة من الله وحده وفي الوقت نفسه لا تصل بالإنسان إلى درجة النبوة، لأن النبوة منحة واصطفاه وليس اكتساباً وهي مستمرة.

بناءاً على ذلك:

- التدين أمر فطري في الإنسان.
- الدين أمر فطري في الإنسان.
- الدين أمر شرعي من السماء للالتزام به.
- الإيمان بالله تعالى هو طريق المجاهدة والمعرفة بالله تعالى عن طريق وحيه ورسوله الذي يحدد للقل والوجدان – البصيرة – مجالهما وطريقهما عن طريق الشرع لتحقيق الوصول إلى الله تعالى بالتقرب إليه بما افترضه وزيادة بما سنه.

سم حصيلة ما سبق:

زهداً، مجاهدة، رياضة، التزاماً، إحساناً، تصوفاً وإن كنت أميل إلى تسميتها الإحسان وهو المراقبة لله تعالى.

ما دام العقل والوجدان – والبصيرة – ملتزمين بطريق الكتاب والسنة – الإيمان الصحيح عن طريق صحيح.

- أصبح.
- الزهد، المجاهدة، الالتزام، الإحسان، الرياضة، المراقبة والتصوف.

١- أمراً فطرياً في الإنسان.

٢- أصبح أمراً شرعياً في البشرية.

منذ آدم إلى سيدنا رسول الله ρ إلى أن تقوم الساعة.

وهذا هو الإحسان – المراقبة بمعناه الشرعي العام إلى بعثه سيدنا رسول الله – ρ ثم بعده بعثه ρ أصبح علماً من آمن ثم اتخذ طريقه إلى الله على ضوء وحي الله بالوسائل التي حددها الدين "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ". "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ".

غير أنه للملفت للنظر أن هذه – الدرجات التي ذكرتها سابقاً تنطبق على كل من التزم بها وقام بمتطلباتها وطبق كل صفاتها تطبيقاً للوحي النازل من السماء وهذا هو الزهد والتصوف – الإحسان.

بالمعنى دون الاسم بالسلوك دون التدوين والحمد لله ينطبق هذا على المرحلة الأولى للإسلام وهي التي تمتد من السنة الأولى للبعثة إلى سنة مائتين وعشرين من الهجرة النبوية الشريفة.

وحينما خصص هذا بطائفة دون أخرى وأدخل فيه ما ليس منه عندئذ أصبح علماً له تعريفه وموضوعه ووسائله وغايته فأدخل فيه ما ليس منه وأطلق عليه بعد سنة ٢٢٠ هـ علم التصوف.

بيد أن قوماً لم يذعنوا للوحي منذ النشأة الأولى منذ آدم إلى رسول الله ρ أو أذعنوا له ولكنهم تحللوا منه ونحوه جانباً واتبعوا أسلوب ووسائل الذين لم يذعنوا للوحي فيها.

هؤلاء وأولئك أرادوا الوصول إلى الله تعالى ولكن ليس تحت مظلة الوحي ولا الالتزام به ولا السير على منهاجه ولا أتباع رسوله ولكن أتباع الهوى والعقل المنحرف والوجدان المظلم ليحققوا بتلك الوسائل الوصول إلى الله تعالى ليدخلوا في زمرة المجاهدة، الرياضة للوصول إلى الله عن طريق العقل والبصيرة والتقاليد الاجتماعية على الرغم من عدم تحقق الركن الركين لهذا وهو الوحي والرسول والمنهاج وأطلقوا على أنفسهم الفلاسفة – المنتسكين، الإشراقيين والمتصوفة للوصول إلى النبوة، لأنها في نظرهم مكتسبة عن طريق الرياضة وهذا هو التصوف المجاهدة، الرياضة – البشرية منذ آدم إلى أن تقوم الساعة.

أي أن الوسائل واحدة في الاثنين العقل والوجدان ولكن في المجاهدة والرياضة الربانية يخضعان للوحي وللرسول ولتعاليم الدين.

وفي الثانية يستقلان استقلالاً ذاتياً للوصول إلى الذات الإلهية عن طريق الإلهام وهذا هو الخطأ بعينه، لأن هذا ليس مجالهما.

يقول الفيلسوف إقبال "في الكتب المنزلة والمؤلفات الصوفية للجنس البشري دلالة كافية على أن الرياضة الدينية صاحبت الإنسانية منذ أقدم العصور وتغلغل سلطانها في تاريخ البشرية"(١).

<u>وبذلك تكون الرياضة – المجاهدة، التصوف:</u>

نزعة فطرية في الإنسان تجذبه إلى التسامي والتكمل والمعرفة عن طريق الكشف الروحي أو العلم اليقين الناشئين عن الإلهام الإلهي والنظر العقلي والرياضة النفسية وبعض الدلائل الحسية.

وطريقه المسلكي كشف حجب النفس الموجبة للنقص، بالمجاهدة بغية التكمل والفتح.

وعلميا: أطراح الأستار النورانية الناشئة عن المعلومات والمعارف الحائدة عن طريق الحق في ذاته، طلباً لتحقيق الحقائق الوجودية والإلهية على قدر الطاقة البشرية "رجوعاً إلى الحق في ذاته"(٢).

المبحث الثاني
طرق الفكر البشري

إن الطريق إلى الله تعالى إما أن يكون:

أولاً: عن طريق الوحي ولقد انتهينا منها سابقاً.

ثانياً: عن طريق الفكر البشري، وثماره.

وهذا ينقسم على:

١- البيئة الاجتماعية – التقاليد الأرضية – التأليه الاجتماعي.

٢- العقل – التفلسف. التأليه العقلي.

وهذا ينقسم إلى:

١- مبدأ تعدد الوجود وهو مغايرة الإله للعالم.

---

(١) تجديد الفكر الديني في الإسلام صـ ٣٢.

(٢)

٢- مبدأ وحدة الوجود – المبدأ الوحدوي.

وهذا ينقسم إلى:

(أ) العالم حق وهذا أدى بدوره إلى:

- وحدة الوجود الطبيعية أو المادية.

(ب) الإله حق وهذا أدى إلى:

- وحدة الوجود الروحانية.

- مبدأ الحلول.

٣- الإشراق "التأليه الإشراقي".

لقد ارجع الباحثون المنابع البشرية للتوجه إلى الله تعالى أي أن الطريق إلى الله الذي اختاره البشر لأنفسهم – من غير طريق الوحي – إلى ثلاثة:

١- البيئة الاجتماعية [التقاليد الاجتماعية – التأليه الاجتماعي]:

يدعي التأليه المنبعث من هذا المنبع بالتأليه البدائي أو الشعبي، أو الاجتماعي.

<u>وسائل انتشاره في الجماعات:</u>

من وسائل انتشاره في الجماعات التربية، العرف، الروايات الموروثة، والتقاليد الاجتماعية المتبعة والمطبقة.

لهذا كان السواد الأعظم من الأمم بمثابة الوحدة الاجتماعية لكل منها على حدة.

٢- العقل – التفلسف – التأليه العقلي:

يمتاز التأليه المنبعث عنه بالتجرد قليلاً أو كثيراً من علائق الحياة الخاصة، وبالسير نحو الموضوعية والعمومية بقدر الإمكان.

<u>طرق انتشاره:</u>

من طرق ذيوعه التربية، العرف، العقل، ولم يلبث أن يفرض نفسه على الطرق الأخرى ويسمو في نفوسهم حتى يصير عندهم مبدأ وجود وتعقل.

فأصحاب هذا الاتجاه يريدون – على حسب نظرتهم أن يؤسسوا المعرفة على أساس يقيني – بعيداً عن الوحي والالتزام به – فلم يجدوا أصلح لهذا الأساس – على

وجهة نظرهم إلا البديهية المتميزة في العقل، لأن مصدرها العقل الإنساني وهو منحة من العقل الإلهي الذي يمنح كل حق وجوده – هي ضمان للفكرة البديهية المتميزة تميزاً واضحاً في ذلك العقل البشري الممنوح من هذا العقل العام.

وكان من ثمرة التأليه العقلي ما يأتي:

١- مبدأ تعدد الوجود وهو مغايرة الإله للعالم وله معتنقوه ومدارسه.

٢- مبدأ وحدة الوجود – المبتدأ الوحدوي.

وأصحاب هذا المبدأ نظروا وسألوا أنفسهم. هل العالم حق؟ أم الإله حق؟

أ – فمن قال أن العالم حق أدى بدوره إلى وحدة الوجود الطبيعية أو المادية ولهذا المبدأ مدارسه.

ب- ومن قال أن الإله حق والعالم تابع له أدى هذا إلى:

- وحدة الوجود الروحانية ولهذا المبدأ مدارسه.
- مبدأ الحلول ولهذا المبدأ مدارسه ومعتنقوه.

٣- التأليه الإشراقي:

يختص التأليه الفائض من هذا المنبع بأنه أقل ركوناً إلى الفكر من سالفه، إذ أن إله الإشراقيين لا يثبت بالقول الشارح المؤسس على الحجج المنطقية، وإنما يتجلى في صورة تجليات فردية خاصة تشعر كل واحد منهم على حدة وفي داخل روحانية الشخصية بذلك الوجود النوراني الباهر الذي يشع في داخل النفس فيغمرها في حالة غير عادية لا تتوافق مع أساليب العقل السائدة.

وهؤلاء المتنسكون يشعرون بوجود الإله في دخائل نفوسهم وعن طريق البصيرة[١].

وهذا النوع من التأليه تتمثل عقيدته في نفوس معتنقيها بصورة شخصية عميقة.

وكان من نتيجة ذلك:

- ظهور وحدة الوجود الروحانية ولهذا المبدأ مدارسه.

---

(١) أنظر مشكلة الألوهية د. محمد غلاب ص ١٦ : ١٨ بتصرف ط ٢، ١٣٧١ هـ – ١٩٥١م عيسى البابي الحلبي وشركاه. القاهرة – مصر.

- ظهور مبدأ الحلول ولهذا المبدأ مدارسه ومعتنقوه.

مما سبق نستنتج أن:

- وسائل هذا الاتجاه هي: التقاليد الاجتماعية، العقل، الإشراق.
- مجاله على حسب ما يتراءى لكل وسيلة.
- غايته الوصول إلى مرتبة النبوة ثم الألوهية.

ما يترتب على ذلك:

- عدم الإيمان بالوحي.
- عدم الإيمان بالرسول.
- عدم الإيمان بالكتب.
- عدم الإيمان بالغيبيات كلها.
- عدم الاعتراف بالإله عند أرباب التقاليد الاجتماعية.
- عدم الاعتراف بالإله عند بعض أرباب العقل.
- عدم الاعتراف بالإله عند بعض الإشراقيين.
- إخضاع أرباب التقاليد الاجتماعية الألوهية لموضوعية العلم.
- إخضاع أرباب العقل والوجدان الألوهية تحت منظار البحث في العقل والوجدان بالنسبة لأرباب الإشراق.

وكان نتيجة ذلك عند أرباب "العقل" وأرباب "الإشراق" ظهور المبادئ الآتية:

١- مبدأ تعدد الوجود:

وهو المبدأ الذي يرى أن الإله هو علة العالم ومنشؤه للفارق والمختلف عنه اختلافاً جوهرياً وغير خاضع للواقعية التي تسوده.

واعتنق هذا المبدأ:

(أ) القدماء:

١- أفلاطون ٢- أرسطو.

(ب) الوسيط:

١- الفارابي ٢- ابن سينا.

(ج) الحديثة:

١- ديكارت.

ويلاحظ أنه لا رسول ولا وحي ولا منهاج إلا العقل أو الوجدان الموصلات للألوهية.

٢- مبدأ وحدة الوجود:

أثمر هذا المبدأ المبادئ الآتية:

١- وحدة الوجود المادية أو الطبيعية لمن قال العالم حق والإله نابع.

٢- وحدة الوجود الروحانية عند من قال أن الإله هو الحق والعالم منبثق منه وهذا موجود عند أرباب التأليه العقلي والتأليه الإشراقي.

٣- مبدأ الحلول وهذا موجود عند أرباب التأليه العقلي والتأليه الإشراقي أيضاً.

مدارس مبدأ وحدة الوجود:

(أ) القدماء وهم:

١- قدماء الهنود.

٢- الرواقيون.

٣- الإسكندريون.

(ب) الوسيط وهم:

١- متوسط الهنود.

٢- بعض المسلمين مذهب ابن العربي.

من القرن الرابع الهجري – التصوف النظري – فانقسموا إلى:

١- اتحادية:

وأصحاب هذه المدرسة هم ابن مسترا، والفارابي، إخوان الصفا.

ومجملها انطباع العقل الفعال الذي هو الفيض الإلهي في النفس السلبية.

٢- إشراقية:

وهي: تجوهر الروح.

وأصحاب هذه المدرسة السهر وردى الحلبي، الدواني، صدر الدين الشيرازي.

٣- وصول:

وهو وصول النفس إلى الإله فتدرك وجودها التام الذي لا يقبل التبدل.

أخذت هذه النظريات الثلاث تمتزج وتتطور حتى انتهت إلى وحدة الوجود.

(ج) الحديثة:

١- سبينوزا. ٢- فشته.

٣- شلنج. ٤- هيجل[١].

هذه نظرات إلى:

١- التصوف – المجاهدة – الرياضة – الإحسان – كأثر من آثار.

- الإيمان بالله تعالى.
- الوحي – الرسول.
- الالتزام بالمنهاج الإلهي – عقيدة – شريعة – أخلاقاً.
- الإيمان بالغيبات.

أي المسلم المتلزم بدينه المتقرب إلى الله تعالى عن طريق فعل كل الأمورات واجتناب المنهيات ثم بالسنن والابتعاد عن المباحثات والتركيز على التطهير الباطني القلبي مع الالتزام بالشرع في كل هذا.

وهي عامة لا تختص بطائفة من المسلمين دون أخرى.

---

(١) أنظر مشكلة الألوهية د. محمد غلاب ص ١٣٣ وما بعدها بتصرف شديد.

٢- التصوف – المجاهدة – الرياضة، الإحسان كأثر من آثار الفكر البشري.

- عن طريق.
- العقل، الإشراقي وكان من ثماره.
- مبدأ تعدد الوجود.
- مبدأ وحدة الوجود.
- الحلول والاتحاد.

وهذا هو التصوف البشري الإنساني.

الـفـصل الـثـانـي
الـتـصوف الـشرقـي

ويشتمل على:

مدخل:

والمباحث الآتية:

١- **المبحث الأول:** التصوف المصري القديم.

٢- **المبحث الثاني:** التصوف في بلاد النهرين "تصوف بلاد النهرين".

٣- **المبحث الثالث:** التصوف الهندي.

٤- **المبحث الرابع:** التصوف الفارسي.

مـدخـل

لقد لـوحظ فـي ثنايـا دراسـات الحضـارات الشـرقية احتواؤهـا علـى "نظـرة إلـى الوجـود علـى أنـه واحـد" وإن الإنسـان مظهـر مـن مظـاهر الكـون أو العـالم الـذي هـو مظهر إلهي – أيضاً.

قد اعتبـرت هـذه النمطيـة مـن التفكيـر طريقـاً للمعرفـة وهـو الحـدس البـاطني، والفيض الصـادر عن الـروح الكليـة – الله – وفرعت عن ذلك مجموعـة من القضـايا تعتبـر بمثابـة حقـائق أوليـة – وبـذور ابتدائيـة للتصـوف الشـرقي باعتبارهـا تسـتمد وضوحها وحقيقتها في الوجود المطلق أو الإلهي ذاته.

وهذا ما سندرسه ونبحثه في المباحث الآتية:

المـبحث الأول

التـصوف المـصري القـديم

بدأ المصريون القدماء بناء حضارتهم منذ الألف الخـامس قبل الميلاد فاتخذوا أساساً للتوقيت وقياس مساحات الأرض، ونشرت "طيبـة" أضـواء الحضـارة المصـرية فـي آسيا كلهـا خـلال الألـف الثـاني قبـل الميلاد فهم أقدم ينـابيع الحضـارة المصـرية والسمة المميزة للحضارة المصرية القديمة الوثنية.

<u>مستوى الناحية الدينية عند المصريين:</u>

والمصريون القدماء – علـى المستوى الديني – نراهم قد نظموا الآلهـة وحددوا علاقـاتهم بالبشـر، وإيمـانهم بالحيـاة الآخـرة وقضـية الثـواب والعقـاب بعـد المـوت، وربطهما بطهارة السلوك وأخلاقياته وليس بالطقوس والرواسم الشكلية فحسب[1].

الـملامـح الـعرفـانيـة عنـد قـدمـاء الـمصـريـين (الـتـصوف) :

لا شك أن السمة المميزة للحضارة المصرية القديمة كانت سمة وثنية.

وعلـى الرغم من ذلك فإننـا نجد فيها بعض **<u>الملامـح العرفانيـة الواضـحة</u>** فـي المراحل المتقدمة من الحضارة فيها.

تجلى ذلك في اتجاهين هما:

أ – اتـجـاه صوفـي عـام :

(١) التصوف العربي محمد ياسر شرف ص ٣٩ كتاب الهلال عدد ٣٨١ ذو الحجة ١٤٠٢ سبتمبر ١٩٨٢ دار الهلال – القاهرة – مصر.

نجد عند عامة المصريين القدماء اتجاهاً عرفانياً واضحاً – تصوفاً – فنجد عندهم:

- نظرية كاملة متكاملة عن صدور الكائنات عن مصدر واحد.
- الشمس كرمز للتوحيد.
- جذور نظرية المثل.
- الفلك، الكيمياء، السحر[١].
- اعتقادهم بأن النفس خالدة وهي بالتالي مغايرة للجسد[٢]، وهذا هو مصدر عقيدتهم الثنائية التي ترجع الكون إلى جوهرين:

١- روحاني. ٢- مادي.

لم يكن التصوف – آنذاك – يخرج عما سبق ذكره ولو من الوجهة الكلية على الأقل.

<u>أثر هذا الاتجاه:</u>

لقد أثر هذا الاتجاه في – الفكر البشري – وبخاصة في تاريخ التصوف البشري فيما بعد:

فقد كان ذو النون المصري (٢١٥ هـ) على معرفة جيدة باللغة المصرية القديمة.

كما وردت معارفهم – فيما بعد – في كتب بعض المتصوفة سواء عن طريق مباشر أو غير مباشر.

أثر فيما بعد في الأفلاطونية الحديثة، اليهودية، النصرانية[٣].

(ب) اتجاه صوفي خاص "صوفية هومس الحكيم":

إذا كان الاتجاه الأول يمثل اتجاهاً صوفياً عاماً لدى قدماء المصريين فإن الاتجاه الثاني يرجع إلى كاهن بعينه هو "هومس الحكيم".

---

(١) أنظر علم التصوف، د. محمد مصطفى ص ١٦٦، بتصرف شديد.

(٢) أنظر التصوف العربي ص ٣٩، بتصرف شديد.

(٣) أنظر علم التصوف ص ١٦٧ بتصرف شديد.

لقد كان مشهوراً بالحكمة والفلك والعلوم الرياضية فكان من نتيجة ذلك ظهور اتجاهه الصوفي – ملامحه العرفانية – في:

- الإشراق عنده هو طريق المعرفة.
- الوحدة الإلهية.

أثر هذا الاتجاه:

كان لهذا الاتجاه تأثير واضح فيما بعد تجلى في:

- الأفلاطونية الحديثة.
- الصابئة.
- الإسماعيلية وسائر الفرق الباطنية.
- الحرانيون – والصابئة – ينسبون حكمهم المصبوغة بصيغ التصف والأسرار المكنونة إلى هرمس.
- عرف المسلمون فيما بعد – في عصر الترجمة – كثيراً من النصوص المنسوبة إلى "هرمس" الغامضة مثل "معادلة النفس وغيرها".

يقول الكندي عندما أطلع على مقالات لهرمس لا يجد الفيلسوف إذا أنصف نفسه مندوحة عنها والقول بها[1].

لقد تفاعلت الملامح العرفانية – التصوف – لقدماء المصريين وأثرت بعد زوال الحضارة المصرية بدءاً من الآشوريين فالفرس، فاليونان، فالعرب ممتزجة بنتاجات أفريقيا وأروبا وآسيا العقلية ومقررات عقائدها[2].

وبعد أن انتهينا من المبحث الأول ننتقل إلى المبحث الثاني.

---

(١) أنظر علم التصوف ص ١٦٧ وما بعدها بتصرف شديد.

أنظر الملل والنحل للشهرستان جـ ٢، ص ٤٥ حكم هرمس العظيم.

(٢) أنظر التصوف العربي، ص ٤١ بتصرف شديد.

المبحث الثاني
تصوف ما بين النهرين

على الرغم من توسط أرض بابل العمران الآسيوي، وانفتاحها المطلق على معتقدات شتى من بلاد الفرس، والهند ومصر والشام، وبلاد أخرى مجهولة المعتقدات.

وعلى الرغم من أن حضارة بابل تعد من أقدم الحضارات في التاريخ حتى أن كثيراً من الأوروبيين يدعون أن حضارة بابل أقدم الحضارات البشرية على الإطلاق.

على الرغم من كل ذلك لم نعثر إلا على بعض الملامح العرفانية "التصوف" القليلة فيها[1].

لقد استطاع الآموريون أن يغلبوا السومريين في بلاد ما بين النهرين، ويقيموا دولتهم، فظهر فيهم حمورابي – ٢١٢٣ – ٢٠٨١ ق.م.

الاتجاه الصوفي للأمويين:

تمحص الاتجاه الصوفي عندهم عن:

١- النظام الكوفي المعتمد على رصد النجوم وحركة الأفلاك.

٢- القدر المسيطر على نظام الكون والمصير الإنساني، باعتباره ناموساً يحدد تطور ومصير كل موجود.

أي أن اتجاههم الصوفي ينحصر في موضوعي الزمان والقدر.

أثر هذا الاتجاه:

لقد أثر هذا الاتجاه فيما بعد أن:

١- أصبحت حركة الأفلاك أساساً لعبادة الشمس التي أصبحت بذرة الديانات الفلسفية المنتشرة في سوريا.

٢- تغلغلت حركة الأفلاك ورصد النجوم في الفكرين اليوناني والهندي.

٣- مبدأ القدر أثر فيما بعد في معتقدات وتعاليم "الإسماعيلية" من الفرق الإسلامية بما يسمى عندهم "الأمر الإلهي" إذ يلاحظ أنه ينحدر مباشرة عن

---

(١) أنظر الدين والإنسان د. عبد الغفار عزيز وآخرون ص ١٥٩ بتصرف شديد ط (١) ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٢م الفاروق الحديثة – شبرا – مصر.

تلك العقيدة البابلية، واختلافه عنها فقط من حيث الصيغة الإسلامية التي كسي بها[1].

المبحث الثالث
التصوف الهندي
الملامح العرفانية عند الهنود:

الهند أمة من أمم الحضارات القديمة التي ازدهرت مدينتها وعظم تقدمها وعاش أهلها حياة رغدة لخصوبة تربتها وكثرة مياهها، ولعل هذا هو الذي أطمع الآريين في الهند فغزوها في حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد وفرضوا على أهلها حضارتهم ومدينتهم ودينهم – أيضاً.

والهند لال الأسرار والأساطير والشعوب والطبقات، تتعدد فيها ألوان الناس ولغاتهم وتكثر فيها الأديان، وتتزاحم فيها المذاهب، وأنجبت الفلاسفة ولها في علوم الدين أثر ملموس.

وإذا كان تاريخ الهند قد ارتبط بالعهد الآري فإن دين الهنود قد كان موجوداً قبل دخول القبائل الآرية إلى الهند فيرجع بعض الباحثين – ظهور دين الهنود إلى القرن الثلاثين قبل الميلاد ومنهم حده بدخول الآريين إليهم في القرن الخامس عشر قبل الميلاد والأول هو الأرجح[2].

وتشير الآثار إلى أن أساس الديانة الهندية القديمة كانت:

- عبادة النار، فقد أقيمت لها المعابد ووظف لها السدنة والكهنة للقيام بطقوس ورسوم تلك العبادة وتقديم إليها القرابين من خبز وعشب وخمر وثمار الأرض.

---

(١) أنظر التصوف العربي، ص ٤٠ بتصرف شديد.

أنظر كذلك التأويل الإسماعيلي الباطني ومدى تحريفه للعقائد الإسلامية د. عبد العزيز سيف النصر ط (١) ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م.

(٢) بيان مذهب الباطنية وبطلانه تأليف محمد الحسن الديلي – لاهور باكستان (١) الأديان والمذهب، ص ٢١.

- وعبد الهنود مظاهر الطبيعة فعبدوا الشمس والقمر وعندهم لكل ظاهرة إله فإله السماء "وارونا" وإله الشمس "فشنو" وإله الصبح "أوشا" وإله العواطف "دودرا" وإله الماء "بارجانيا".

كذلك آلهة للنور والنبات والريح.

- وعبد الهنود الأسلاف.
- وقيل أنهم عبدوا عضو التذكير لاعتقادهم أنه سبب الخلق والوجود.
- كما عبدوا الأنثى من البشر والحيوان لعل ذلك يرجع إلى أن الأنثى بالنسبة لوجهة نظرهم – في المخلوقات الحية هي المصدر المباشر لتكاثر الأنواع ورعايتها.
- والبقرة من دون الحيوانات لها منزلة خاصة وقدسية مميزة ويرى بعض الباحثين أن الديانة الهندية تأثرت واقتبست من المصرية القديمة.

ويعللون ذلك بـ:

- قصة بدء الخلق في الهند شبيهة بقصة الأسطورة المصرية في ذلك.
- إن الحضارة المصرية القديمة سبقت الحضارة الهندية.
- الجنس الآري الذي دخل الهند كان في موقع وسط بين مصر والهند فنقل علوم المصريين إليهم(١).

يتفق الباحثون على أن الديانة القديمة كانت عقيدة الهنود خالصة حتى جاء الغزو الآري فأصبحت عقيدة الهندي مزيجاً من ديانته القديمة وديانة الآريين القادمين.

ولقد شاعت وبرزت في الهند أديان ثلاثة:

١- الديانة البرهمية وهي نفسها سميت فيما بعد الهندوكية ثم سميت الهندوسية [البرهمية – الهندوكية – الهندوسية].

---

(١) الدين والإنسان – دراسات في الأديان والمذاهب القديمة، د. عبد الغفار عزيز ص ٩٨ ط (١) ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢م الفاروق الحديثة – شبرا – مصر.

وقد ظهرت من القرن الخامس عشر، واستمرت إلى القرن السادس قبل الميلاد.

وقيل كان اسمها أولاً: [الهندوسية، ثم الهندوكية ثم البرهمية] (١).

فانبثقت من الديانة الهندوسية – الهندوكية – البرهمية – الديانتان الأخريان.

٢- الديانة البوذية في القرن السادس قبل الميلاد.

٣- الديانة الجينية أو الجانيتية في نفس القرن السادس قبل الميلاد.

وظهرت الديانتان كرد فعل للهندوسية البوذية لعامة الشعب، الجنينية للخاصة – منهم)(٢).

وقد حوى التراث الهندي واشتملت الأديان الهندية كذلك على المبادئ العرفانية – النصوف – كنتيجة بديهية للتراث الهندي والأديان الهندية ويتجلى هذا في:

الملامح العرفانية - التصوف - عند الهنود:

بعد جهد جهيد استطعنا أن نلم أطرافنا على الرغم من اتساع التراث الهندي ما بين أفكار سبقت ظهور الأديان وما بين الأديان المتعددة فيها وهي تنحصر في.

١- التناسخ:

الذي يقضي بانتقال الأرواح من جسم إلى آخر، ويجعل عودتها مرتبطة بطبيعة أعمالها، لذلك لابد من تخليصها من الشرور حتى تكون حياتها القادمة راقية.

وقد جسدت هذه الفكرة الاعتقاد السائد بأن الحياة معذبة أليمة لابد من الانتصار فيها حتى نصل إلى التلاشي في النفس الكلية للعالم، ونحظى بالراحة، فكانت أصدق تعبير عن ذلك النوع من الاعتقاد الضمني بصيرورة حيوية لا يمكن مقاومتها(٣).

---

(١) الأديان والمذاهب الشرقية ص ٢١.

(٢) الهند – عقائدها – وأساطيرها عبد الرحمن حمدي ص ١٢٨ سلسلة اقرأ فبراير ١٩٧٨ جـ ١، ٤٢٢ – دار المعارف – القاهرة – مصر.

مفارق الروح للجسد ترجع إلى العالم الأرضي لتتقمص جسداً آخر كلما بلي جسدها الأول لتتأب في الأبصار وتعاقب.

(٣) التصوف العربي ص ٤٢.

أشهر المدارس التي أخذت بهذا المبدأ – هذه الفكرة:

١- البرهمية:

لابد للبرهمي من أن يتجرد من لذاته وشهواته ليفنى في برهماً – الإله الأول. ومن هنا نرى.

للبرهميين يكلفون أنفسهم ضروباً من الشدائد والتعذيب والحرمان من لذائذ الحياة واحتقارها، وريحانة النفس بالزهد والتقشف والتقوى، والتأمل في الله في عزلة وسيكون ليبلغوا في الحياة المقبلة أرقى وأرفع، ومن الأشياء التي توصلهم إلى هذه الدرجة الرفيعة التأمل والاستغراق في "براهما".

أما الشخص الذي يحتفظ بشخصيته، ويجري وراء شهوته وملذاته، فإن نفسه تعود بعد موته إلى العالم المتعلقة به، وتحل ثانية في جسم إنسان أو حيوان أو نبات.

وهكذا حتى يتطهر من هذه الجرائم فيعود إلى الفناء من براهما والتلذذ به.

ولذلك كان البرهمي لا يتمنى الموت ولا يرغب فيه، لأنه غير مخلص له من الشرور والآلام التي تحتويها حياته في الدنيا(١).

٢- اليوغا:

لقد رأت "اليوغا" أن الطريقة المثلى للتخلص من الخوف والقلق المتمثلين في الحياة القادمة، هي السيطرة الكاملة على النفس والروح، بحيث يحس الإنسان أنه سيد نفسه وسيد العالم.

٣- الجانتيه – الجنينية:

ترى أن "الظفر" يأتي بالتقشف والتأمل اللذين يجعلان الإنسان سيد ذاته وخالق أعماله.

٤- البوذية:

(١) المذاهب الشرقية ص ١٤٠.

ذهبت إلى إنكار وجود النفس والتأمل، واعتبرتها مثل الجسد – تنحل إلى عناصر ترجع لظاهرات ذاتيته[١].

وفي إطار الإيمان بتناسخ الأرواح يظهر لنا الملامح العرفانية الآتية:

٢- وحدة الوجود:

بزغت فكرة حقيقة الوجود المطلق كحقيقة فعالة في كل شيء والغاية من كل شيء وهي للإله المطلق[٢].

وتعني وحدة الوجود أن الكون كله منبثق عن الله تعالى وما الكون كله إلى مظهر لله[٣].

أي أنهم يرون أن الوجود واحد ومنه انبثقت ظهور نظريات المعرفة. وهذا هو أساس المعرفة العرفانية عندهم.

٣- نظرية المعرفة:

<u>ظهور نظريات المعرفة عندهم:</u>

فلقد كان الهنود يبغون من وراء ذلك جعل النفس تتصل بمبدئها الروحاني، ويرون الحياة في الإلهية إلى أدنى الموجودات ذات وحدة جوهرية أي أن "الوجود واحد".

وبناء على ذلك.

ذهب المتصوفة في الفكر الشرقي عموماً – إلى أن التصوف لا يقوم إلا بتلك المعرفة، وبدون تلك المعرفة، وعدم تحصيل الاتحاد مع المبدأ الأول تقع حجب المادة الكثيفة.

لذا لابد من التفرغ العمل، قصد الوصول إلى تلك المرتبة.

وفي ذلك مقامات أهمها:

- تطهير الجسد بالاغتسال.
- تطهير العقل بالمعرفة.

---

(١) التصوف العربي ص ٤٣ وما بعدها.

(٢) علم التصوف ص ١٧٢ وما بعدها.

(٣) دراسات في الأديان – أديان العالم القديم د. أحمد غلوش ص ٦١ أنظر المذاهب الشرقية ص ٣٢.

- التقشف والابتعاد عن جميع أسباب الرفاهية.
- التسليم المطلق بمشيئة الله تعالى.
- المحبة.
- الحلم.
- الندم.
- تلاوة الأذكار المعروفة.
- رياضة الجسم بما يساعد على سير النار الروحية في الجسد[١].

٤- تجوال الروح:

وهي تعني تنقل الروح من جسد إلى جسد[٢].

٥- الانطلاق:

وهي عودة الروح إلى بارئها الأعلى وامتزاجها في حقيقتها الأصلية[٣].

فأرواح الكائنات ترجع إلى الله في النهاية، وتتصل به ومن ذلك روح الإنسان، فهي جزء منه، انفصلت عنه واتصلت بالإنسان ولا تزال تنتقل من جسد إلى جسد في تلك الأدوار التناسخية، حتى يتم لها طهارتها وكمالها وتستمد بذلك للرجوع إليه في نهاية الأمر[٤].

ويشبهون ذلك بقطرة الماء التي تنفصل من البحر بطريق التبخير، فقد تصير برداً أو ثلجاً ولكنها تسقط على قمم الجبال وتنحدر في الأنهار، حيث تأخذ طريقها إلى البحر الذي انفصلت عنه مرة ثانية.

أو بالهواء المحبوس في إناء مقلوب ينفصل عنه الهواء العام وإن كان في حقيقته جزءاً منه حتى إذا تحطم الإناء اتحدا معاً من جديد[٥].

٦- مبدأ الصيرورة:

---

(١) التصوف العربي ص ٤٥.

(٢) دراسات في الأديان ص ٦١.

(٣) المرجع السابق ذكره.

(٤) المذاهب الشرقية ص ٣١.

(٥) الأسعار المقدسة د. علي عبد الواحد ص ١٦٥، ١٦٦.

إذا كانت البرهمية تؤمن بأن في الكون جوهراً مطلقاً هو العنصر الحق في كل الوجود.

فإن البوذية لا تؤمن بذلك الموجود المطلق ويقللون ذلك بأنهم لا يرونه ولا يرون آثاره؛ ولأنه لو كان موجوداً لما كان هذا التعقيد المشاهد في الظواهر الطبيعية والحق الذي تؤمن بيه البوذية هو:

الحركة الكونية الدائمة

وعن هذه الحركة تنتج كل الظواهر الكونية بفكرة النواميس الطبيعية لا عن شيء آخر ومن ثم كان كل شيء نسبياً وقابلاً للتغيير والصيرورة لإثبات له على حال بتساوي في ذلك الإنسان وغيره(١).

٧- الكرمان:

مبدأ تحمل المسئولية، استحقاق الجزاء:

إن مبدأ الصيرورة في الكون يسير طبقاً لقانون الأسباب والمسببات وفيما يتعلق بهذا المبدأ بالنسبة للإنسان:

فإن كل ما يناله من التحول والتغير في إحدى مراحل حياته يعد نتيجة لأعماله من المراحل السابقة عليها وفي هذا تطبيق لمبدأ السكارماتي وهو مبدأ موجود في جميع الأديان الهندية(٢).

وهذا هو نفسه المسئولية والجزاء المسئولية الجماعية والفردية والجزاء الجماعي والفردي.

٨- النرفانا:

تعني الدرجة التي يتمتع فيها الإنسان بالخلود الدائم دون عودته إلى الحياة بالتناسخ مرة أخرى.

وذلك بأن يحيا الإنسان حياة خلقية كاملة تصفو فيها نفسه بحيث لا يكون عنده من الشر أو النقص ما يضطره إلى التناسخ من جديد تكفيراً عن ذنبه أو تكميلاً لنقصه.

---

(١) المذاهب والأديان الشرقية صـ ٧٠.

(٢) المذاهب والأديان الشرقية ص ٧١.

والنرفانا على هذا لا تتحقق للإنسان إلا بعد الموت وهذا هو معناها في البوذية الأولى حتى قيل أن بوذا نفسه لم يصل إلى تلك الدرجة إلا بعد موته.

غير أن:

تلاميذ بوذا طوروا معنى النرفانا حتى أصبح من الممكن الوصول إليها في تلك الحياة وذلك إذا أطفأ الإنسان شهواته المادية وأزاح عن عقله حجب الجهالات والضلالات ووصل إلى درجة الصفاء الروحي(١).

والفرق بين النرفانا في البوذية وتناسخ الأرواح في الهندوسية.

النرفانا تعتمد اعتماداً كلياً على عقيدة تناسخ الأرواح والفرق بينما ينحصر في:

- أن الهندوسية ترى أن الروح إذا توفى صاحبها، وتغلب على شهواته ورغباته تسمو روحه وتندمج وتفنى في الله (براهما).

بينما البوذية – لأنها تنكر وجود الله – ترى أن الروح التي توفى صاحبها تصل إلى درجة الصفاء الروحاني والتخلص من جميع الأغراض الشخصية وبذلك ينقذ الإنسان روحه من تكرار المولد ويتوقف عن عمل الشر تماماً.

- في البوذية المطورة أن النرفانا تحدث والإنسان حي(٢).

٩- الإلهام:

عنصر مشترك بين الملامح العرفانية في التصوف الهندي كله وبه ظهرت جميع فرق التصوف الدينية ومازالت تظهر حتى الآن(٣).

---

(١) المرجع السابق، نفسه ص ٧٣.

(٢) ديان العالم القديم، ص ٨٢.

(٣) دراسات في الأديان، ص ٩١.

١٠- إنكار النبوة:

ينكر البراهمة – الهندسيون – النبوة ويرون أن الدين يأتيهم من الله تعالى بلا واسطة، وبذا ذهبوا إلى إنكار النبوات وعدم التصديق بنبي أو رسول يأتي بدين ما، زاعمين أن العقل يقرر ذلك، ويسلم باستحالة بعث الرسل، وإرسال الأنبياء ويستدلون على ذلك بعدة أدلة[١].

١١- الخلق عن طريق الصدور من القوة العليا.

١٢- وجود فكرة الجمع بين التنزيه والتشبيه (٢).

وإذا كنا قد ذكرنا الملامح العرفانية للتصوف الهندي.

فالآن نذكر.

أثر التصوف - الملامح العرفانية - الهندية في التصوف البشري:

لقد أثر التصوف الهندي فيما بعد في التصوف البشري، وتجلى ذلك في:

١- أثر في التصوف الفارسي كما سنذكره هناك إن شاء الله.

٢- ظهور أنواع الفلسفة الميتافيزيقة والحلولية التي شوهدت بعد ذلك بزمن طويل عند أفلوطين واسبينوزا.

٣- ظهور وحدة الوجود فيما بعد.

٤- ظهور الحلول.

٥- ظهور أساليب التصفية والتطهر كطريقة للمعرفة.

٦- ظهور فكرة إنكار النبوة عن طريق – البراهمة -.

٧- ظهور فكرة التناسخ.

٨- قدم العالم[٣].

وسنذكر الملامح العرفانية المهمة منها بالتفصيل لما لها من تأثير خطير على التصوف البشري فيما بعد وهي:

---

(١) أنظر هذه الأدلة والرد عليها، الفصل لابن حزم جـ ١، ص ٥٥ الممل والنحل للشهرستاني جـ ٢ / ٢٥١.

(٢) علم التصوف ١٧٢ وما بعده.

(٣) أنظر علم التصوف، ص ١٧٣، وما بعدها.

١- التناسخ:

يحدثنا الشهرستاني عن التناسخ فيقول:

أصل ومنبع فكرة التناسخ:

نرجع نشأته إلى الحرانية فهم جماعة من الصائبة فإن التناسخ هو أن تتكرر والأكوار والأدوار إلى ما لا نهاية له ويحدث في كل دور مثل ما حدث في الأول، والثواب والعقاب في هذه الدار لا في دار أخرى لا عمل فيها.

والأعمال التي نحن فيها إنما هي أجزية على أعمال سفلت منا في الأدوار الماضية، فالراحة والسرور، والفرح والدعة التي نجدها هي مرتبة على أعمال البر التي سلفت منا في الأدوار الماضية والغم والحزن، والضنك والكلفة التي تجدها هي مرتبة على أعمال الفجور التي سبقت منا.

وكذا كان في الأول، وكذا يكون في الآخر، والانصرام في كل وجه غير متصور من الحكيم(١).

ثم يحدثنا عن تناسخ الهند وذكر تأثيره.

أما تناسخية الهند فأشد اعتقاداً لذلك، لما عاينوا من طير يظهر في وقت معلوم، فيقع على شجرة معلومة فيبيض ويفرخ، ثم إذا تم نوعه بفراخه حك بمنقاره ومخالبه فتبرق منه نار تلتهب فيحترق الطير، ويسبل منه دهن يجتمع في أصل الشجرة في مغارة، ثم إذا حاول الحول وحان وقت ظهوره اتخلق من هذا الدهن مثله طير فيطير ويقع على الشجرة. وهو أبداً كذلك.

قالوا: فما مثل الدنيا وأهلها في الأدوار والأكوار إلا كذلك.

قالوا: وإذا كانت حركات الأفلاك دورية فلا محالة أن يصل رأس الفرجار إلى ما بد أو دار دورة ثانية على الخط الأول، أفاد الدور الأول، إذ لا اختلاف بين الدورين حتى يتصور اختلاف بين الأثرين، فإن المؤثرات عادت كما بدأت، والنجوم والأفلاك دارت على المركز الأول، وما اختلف أبعادها واتصالاتها ومناظراتها ومناسباتها بوجه.

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني جـ ٢ / ٥٥.

فيجب أن لا تختلف المتأثرات البادیات منها بوجه، وهذا هو تناسخ الأدوار والأكوار.

وما من ملة من الملل إلا وللتناسخ فيها قدم راسخ وإنما تختلف طرهم في تقرير ذلك[1].

٢- مبدأ الحلول:

يحدثنا الشهرستاني عن منبع ومصدر مبدأ الحلول.

وإنما نشأ مبدأ الحلول من الحرنانية وهم قوم من الصائبة.

وأما الحلول فهو التشخص، وربما يكون ذلك بحلول ذاته تعالى، وربما يكون بحلول جزء من ذاته؛ على قدر استعداد مزاج الشخص.

وقالوا إنما نشخص بالهياكل السماوية كلها – وهو-:

١- الإله – واحد، وإنما يظهر فعله في واحد واحد بقدر آثاره فيه، وتشخصه به.

فكأن الهياكل السبعة أعضاؤه السبعة. وكأن أعضاؤنا السبعة هياكله السبعة فيها يظهر فينطق بلساننا، ويبصر بأعيننا، ويسمع بآذاننا، ويقبض ويبسط بأيدينا، ويجيء ويذهب بأرجلنا، ويفعل بجوارحنا[2].

ثم انتقل إلى:

١- الأفلاطونية الحديثة:

انتقل من الفلسفة الهندية إلى الأفلاطونية الحديثة فمن الثابت أن أفلوطين المصري – ت ٢٧٠م – الذي تعزي إليه الزعامة الحقيقية للأفلاطونية الحديثة – قد رحل إلى فارس والهند وتعلم الفلسفة الشرقية.

٢- اليهود:

ثم انتقل إلى اليهود عن طريق "فيلون اليهودي" أول مؤسس الأفلاطونية الحديثة.

٣- أهل العرفان – متصوفوا المسيحية:

ثم انتقل مبدأ الحلول من اليهود إلى أهل العرفان، وهم متصوفوا المسيحيين.

---

(١) المرجع السابق نفسه جـ ٢، ص ٢٥٥.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني جـ ٢، ص ٥٦.

ومذهب الحلول أحد المذاهب المسيحية.

ثم:

٤- انتقل إلى علم التصوف الإسلامي:

نقل هذا المبدأ ذو النون المصري ت ٢٤٥ هـ. فقد كان فيلسوفاً، ودرس علوم اليونان وكان على علم بالأفلاطونية الحديثة وكان مبدأ الحلول من مبادئها.

وقد يؤيد ذلك ما نجده من تشابه كبير بين أفكار ذي النون وما كان يقرره "ديونيسيوس" من مبادئ الأفلاطونية الحديثة التي كانت معروفة لدى الباحثين في القرن الثالث الهجري.

وفي القرن الرابع الهجري شاع مبدأ الحلول ومؤداه أن النور الإلهي يحل بالجسم.

والقائلون بالحلول يعتقدون أن الإله حقيقة والعالم حقيقة أخرى متعددة المظاهر وأن الإله يحل بأي مظهر من المظاهر فيكسبه نوراً روحانية إلهية.

أما القائلون بوحدة الوجود فيقررون أنه ليس في الوجود إلا حقيقة واحدة هي الحقيقة الإلهية أو الله، وما العالم بمظاهره المختلفة إلا مظاهر للذات الإلهية[١].

وأشهر من قال به الحسين بن منصور الحلاج.

٣- وحدة الوجود – مبدأ الاتحاد العام:

لقد كان أثراً من آثار الملامح العرفانية الهندية وانتقل إلى التصوف الإسلامي.

ومؤداه:

اتصال الإله بالكون اتصالاً وثيقاً، واتحاده به لدرجة يصح معها أن العالم هو الإله. وأن الإله هو العالم، فكل جزء من أجزاء العالم يعد من مظاهر الإله.

ويغزي إدخال هذا المبدأ في التصوف الإسلامي إلى أبي يزيد البسطامي ت ٢٦١ هـ[٢]. وابن العربي.

٤- مبدأ الفناء:

---

(١) أنظر بوذا الأكبر الأستاذ حامد عبد القادر ص ١٦٠ بتصرف.

(٢) المرجع السابق، نفس، ص ١٦٠.

ليس ببعيد أن علم التصوف الإسلامي قد تأثر بمبدأ الفناء الذي انتشر في البوذية.

فكل من علم التصوف الإسلامي والبوذية طريقة زهد وتفكير وتقويم للنفس وتطهير لها.

ومع ذلك، يجب أن نقر أن الطريقتين تختلفان اختلافاً كلياً وجوهرياً، فالبوذي يقوم أخلاقه بضبط نفسه، أما المتصوف المسلم فإنه يطهر نفسه ويسعى في تطهيرها بطريق معرفة الله والاتصال به.

وقد يكون أبو يزيد البسطامي هو الذي نقلها من أستاذه أبي علي السندي وأذاعها بين متصوفي المسلمين.

ومن الخطأ أن نقول إن هذا المبدأ مأخوذ عن مبدأ النيرفانا؟

لأن جمهور متصوفة المسلمين يبغضون البوذيين؛ لأنهم وثنيون.

وهناك فرق جوهري بين النيرفانا والفناء، فالفناء في التصوف الإسلامي ينتهي إلى بقاء، إذ أن الصوفي يفنى في الله بإدامة التفكير فيه وفي صفاته، ليدرك معنى وجوده هو، ويفهم معنى حقيقة نفسه، ويعرف الله حق المعرفة، ويدرك الحقائق القدسية بطريق الكشف وهو في كل ذلك في حال وجد وانشراح.

أما النيرفانا فتقوم على أساس الفناء، واندماج الروح الجزئية في عالم الأرواح[1].

٥- التجرد من الملكية والغلو في الزهد:

لقد كان بوذا وأتباعه يعيشون حياة سلبية بإيثارهم الدعة والتسول والدروشة، ينتقلون في البلاد، ويأوون إلى الغابات، ويقيمون على ضفاف الأنهار ويدعو أتباعه إلى التجرد من الملكية، والغلو في الزهد، والابتعاد عن ملذات الحياة أياً كان نوعها.

ولقد تأثر بهذه الطريقة فريق من الملوك والأمراء منهم:

١- آسوكا وابنه وقبلاي خان حفيد جنكيز خان.

٢- النعمان بن امريء القييس الأعور الملقب بالسائح – ٤٠٣ – ٤٣١م.

---

(١) بوذا الأكبر، ص ١٥٩.

٣- إبراهيم بن أدهم بن منصور البلخي ت ١٦١ هـ[١].

وهكذا نرى أن كثيراً من المستشرقين وتابعهم معظم الباحثين العرب والمسلمون إلى تأثير التصوف الهندي في التصوف الإسلامي ورده كلية إليه.

والحقيقة أننا لا نستطيع الموافقة على رد التصوف الإسلامي في هذه النقاط إلى المصدر الهندي، ولكننا لن نستطيع الرد بالتفصيل، فهي تكاد تكون قدراً مشتركاً بين معظم التيارات المردودة إليها، ولذلك أجلنا الرد حين نتحدث عن المصدر الإسلامي إن شاء الله تعالى وسنعرف أنهما يختلفان كلية في المصدر.

ولكن لابد لنا من أن نشير هنا – وضربنا مثلاً لذلك وبحقيقة الفناء السابقة – فهي ليست مقصورة على تيار معين، بل تكاد توجد في جميع الأحاسيس والمشاعر البشرية؛ كما أن التوافق في استخدام بعض الأشياء أو بعض التعبيرات في بعض ضروب السلوك والتصفية لا يعني الأخذ بها كلية من الغير فهي إما مجرد استعانة بأدوات متاحة أو هي موجودة في التعاليم الإسلامية.

أما بعد أن تحول التصوف من سلوك إلى علم للتصوف فدخل فيه الدخيل فأصبح كأي علم فيه الغث والسمين والحق والباطل وإذا كان فيه هذا فهو دخيل على علم التصوف والتصوف الإسلامي.

كما أن صوفية المسلمين بريئون تماماً من تهمة الحلول والاتحاد وتقديس البشر ويكفي أن نذكر الآن أن قضية التوحيد على العكس من ذلك بلغت عندهم من السمو لم تبلغه في الاتجاهات الأخرى[٢].

وإذا حدث ذلك يكون دخيلاً وليس من التصوف الإسلامي وربما يكون دخيلاً على علم التصوف الإسلامي ذاته.

وأيضاً هو منه براء.

وسنذكر هنا الفرق بين الإسلام – الأديان الهندية – والتصوف الهندي بما أن الديانة الهندية تشتمل على:

١- الديانة البرهمانية – الهندوكية، الهندوسية.

---

(١) المرجع السابق نفسه، ص ١٥٨.

(٢) أنظر علم التصوف ص ١٧٥ وما بعدها متصرف.

٢- الديانة الجينية.

٣- الديانة البوذية.

وبما أن البوذية طغت على الديانتين السابقتين وتشغل الآن حيزاً كبيراً من خريطة العالم في الصين، واليابان والهند فإني سأكتفي بها فأذكر:

مواجهة الإسلام للبوذية:

سنذكر الفوارق بينهما ومنها تتضح مواجهة الإسلام للبوذية.

فبينهما فروق جوهرية في:

١- العقيدة الإلهية والإيمان بالله.

٢- الآداب والأخلاق والعبادات.

٣- النظم والتشريعات[١].

١- العقيدة الإلهية:

وأول ما يسترعي الانتباه من الفوارق بين الديانتين هو الفرق الشاسع بينهما في العقيدة الإلهية.

فبينما نرى البوذية الأولى تقف من الألوهية موقفاً سلبياً، فلا تثبت وجود الإله ولا تنفيه، وبينما نجد هذه الديانة في صورها المستحدثة تتحدث عن وجود الإله ووحدانيته أحاديث غامضة مبهمة أو تنحدر إلى الدرك الأسفل فتجعل من الملوك أو رؤساء الكهنوت آلهة أو شبه آلهة يعبدون، أقول – بينما نجد هذا وذاك إذا بنا نجد الإسلام يتحدث عن الإله حديثاً واضحاً مفهوماً لا لبس فيه ولا غموض، فالله واحد لا شريك له "لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد"، و "هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم" و "هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة والرحمن الرحيم. هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر" و "هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى، يسبح له ما في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم"[٢].

---

(١) نقلناها من كتاب بوذا الأكبر للأستاذ حامد عبد القادر ص ١٤.

(٢) الحشر: ٢٣ – ٢٥.

وهو سبحانه المسيطر على جميع المخلوقات، الخبير بشئون الكائنات "لا يعرف عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض"[١]. و "وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم"[٢].

وهو جل شأنه مبرأ من جميع النقائص لا يشبه شيئاً، وليس كمثله شيء، وهو منزه عن الحلول بأي معنى من معانيه، وعن الاتحاد بأية صور من سورة.

وهو تعالى المنعم على عباده، المتفضل عليهم؛ فقد خلق الإنسان في أحسن تقويم، وعلمه الفصاحة والبيان، وغرس في نفسه القدرة على اكتساب العلوم والمعارف التي يقتحم صعاب الحياة ويحل مشكلاتها، ويجني ثمراتها. ثم أنعم عليه بما لا يحصى من النعم، وسخر له الشمس والقمر والأرض وما فيها من بحار وأنهار وأنعام. استمع إليه تعالى يقول: "وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ"[٣].

---

(١) سبأ.

(٢) المجادلة ٨.

(٣) النحل ٥ – ١٩.

ثم تفضل سبحانه على الناس فارسل فيهم رسلاً يرشدونهم إلى الحق، ويدعونهم إلى الخير، ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، ويحلون لهم الطيبات، ويحرمون عليهم الخبائث.

ولكي يشكر الإنسان هذه النعم أوجب الله عليه الإيمان والإيمان في الإسلام واضح المعالم، بين الاتجاهات، فهو يشمل الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

اقرأ قوله تعالى: "آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ"(١). وقوله عز وجل: "لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ"(٢).

والإيمان بالله تعالى يشمل الإيمان بوجوده، وباتصافه بجميع صفات الكمال، وبأنه وحده هو المسيطر على الكون، المتصوف في جميع أموره، المدير لجميع شئونه.

والإيمان بالملائكة يشمل الإيمان بوجودهم، وبأنهم ليسوا إناثاً، وبأنهم عباد الله لا يعصون أوامره، بل يفعلون ما يؤمرون، ولا يجرؤ أحدهم على ادعاء الألوهية من دون الله. اقرأ في ذلك قوله تعالى: "وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ"(٣).

وقوله عز وجل: "وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ"(٤).

---

(١) البقرة: ٢٨٦.

(٢) البقرة: ١٧٧.

(٣) الأنبياء: ٢٧ – ٣٠.

(٤) الزخرف: ١٤.

والإيمان بالكتب السماوية المقدسة يشمل الاعتقاد الجازم بأنها من عند الله حقاً، أنزلها الله تعالى بطريق الوحي على رسله ليبلغوها الناس، ويذيعوا فيهم ما تضمنته من مواعظ وأوامر ونواه، ليتبعوا المواعظ والأوامر، ويجتنبوا النواهي، فيحظوا بخيري الدنيا والآخرة، وفي ذلك يقول سبحانه: "لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ"(١). ويقول أيضاً: "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"(٢).

والإيمان بالرسل يتضمن الاعتراف بأن الله تعالى أرسلهم بطريق الوحي لهداية الناس، وبأنه يؤيدهم بما يظهر على أيديهم من المعجزات البينات، وبأنهم صادقون في أقوالهم، أمناء على أداء رسالاتهم، يبلغونها الناس صحيحة لا مسخ فيها ولا تأويل، ولا تغيير ولا تبديل، وبأنهم فطناء قادرون على إقامة الحجج القاطعة، والبراهين الدامغة الدالة على صدقهم في دعوتهم.

يقول الله عز وجل: "وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ"(٣). ويقول سبحانه: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ"(٤).

وقد ذكر القرآن في أربع آيات متوالية أسماء ثمانية عشر رسولاً، وذلك حيث يقول تعالى: "وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ

---

(١) الحديد: ٢٦.

(٢) البقرة: ٢١٣.

(٣) فاطر: ٢٤.

(٤) غافر: ٧٨.

وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ"[١].

وذكر القرآن أيضاً أسماء سبعة آخرين من الأنبياء وهم: آدم، وشعيب، وهود، وصالح، وإدريس، وذي الكفل، ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين. أما اليوم الآخر فإن القرآن الكريم يفيض في وصفه: فيذكر البعث، والحشر، والحساب، والثواب، والعقاب، ويتحدث عن الجنة ودرجاتها، وعن النار وطبقاتها، ويصف كل هذه وصفاً دقيقاً يقربها إلى الأذهان. "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ". ومن ثم نستطيع أن نقول.

<u>إنه لا كارماً في الإسلام:</u>

وسواء أكان ما ذكره القرآن عن اليوم الآخر وما فيه من قبيل الوصف المطابق للواقع، أم كان من قبيل التمثيل المراد به تقريب حوادث ذلك اليوم أحواله وأهواله إلى أذهان الناس – فإن العقيدة التي يجب على المسلم اعتناقها والإيمان بها إيماناً جازماً هي أن الناس سوف يحشرون ويحاسبون، ويثابون أو يعاقبون على ما فعلوا في هذه الحياة الدنيا، بقطع النظر عن الصور الحقيقية للحشر والحساب، والثواب، والعقاب، والجنة والنار.

وفي القرآن الكريم كثير من الآيات التي تتحدث عن اليوم الآخر وتصف ما يحدث فيه، هذا في حين أننا لا نجد في البوذية عن هذا اليوم شيئاً يذكر.

والرجعة بالمعنى الذي فهمه بوذا وأتباعه ليست من عقائد الإسلام في شيء، فهذا هو ما يفهم من قول الرسول ρ في إحدى خطبه: "فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار".

<u>٢- الآداب والأخلاق الدينية:</u>

وإذا تركنا العقائد وانتقلنا إلى الآداب والأخلاق الدينية وجدنا الفرق بينهما عظيماً أيضاً، فبينما تدعو البوذية على ضبط النفس وحرمانها جميع الملذات

---

(١) الأنعام: ٨٣ – ٨٩.

والشهوات أياً كان نوعها. وبذلك تكلف الطبيعة البشرية ما لا طاقة لها به، إذا بالإسلام يدعو إلى ضبط النفس أيضاً، ولكنه يفصل الكلام فيه تفصيلاً يكاد يبلغ درجة الكمال، فيوضح صوره المختلفة كالصبر والحلم وكظم الغيظ والعفة والعفو عند المقدرة.

ولا يكتفي الإسلام بذلك، بل إنه يضع التشريعات الكفيلة بضبط النفس، فهو يوجب على كل مسلم أن يؤدي الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة. ولا ريب أن الصلاة تستلزم ضبط الحركات، والامتناع عن كل ما عدا فروض الصلاة وسنتها، وحصر الذهن في التوجه إلى الله، ولذا نجد الصلاة مقرونة بالصبر في بعض آيات القرآن الكريم منها قوله تعالى: "وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ".

والصوم في مقدمة الشعائر الدينية التي تعود الإنسان الصبر وضبط النفس بالامتناع عن الطعام والشراب، والابتعاد عن جميع اللذات الحيوانية بعداً تاماً خلال ساعات طوال.

وإيتاء الزكاة يستلزم ضرباً من ضروب الصبر وضبط النفس الميالة إلى الشح، فمعطي الزكاة يحرم نفسه جزءاً من ماله، ويقسرها على البذل والسخاء الذي قد يصعب عليها.

والإيثار منزلة أعلى من منزلة الزكاة أو التصدق، وفيه يتجلى الصبر وضبط النفس بصورة أوضح، لأن معناه حرمان الإنسان نفسه ما هي في حاجة غليه، وتفضيل غيره عليه في تناول الطعام ونحوه، ولذا مدح الله تعالى المؤثرين فقال: "وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"[1]. ووعدهم جنته ورضوانه فقال: "إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ

(١) الحشر: ١٠.

رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا"(١).

والحج من شأنه أن يعود الإنسان الصبر على مشتقات السفر، وآلام الغربة، وعلى ما يعانيه من متاعب عند أداء شعائر الحج.

والجهاد في سبيل الله يتضمن كثيراً من أنواع المشقة والحرمان وضبط النفس، أما المشقة ففي الحل والترحال، والصمود في وجه العدو، وتحمل أذى الحروب على اختلاف أنواعه ودرجاته. وأما الحرمان ففي الاكتفاء بالقدر الضروري من الطعام والشراب والغطاء والكساء، وفي قلة أوقات النوم والراحة، وفي عدم الاستمتاع بمباهج الحياة التي يستمتع بها القاعدون، ولذا يقول الله تعالى: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ"(٢).

وإذا شمل الجهاد في سبيل الله الجهاد بالنفس والمال كان أدعى إلى الصبر والإمعان في ضبط النفس.

والخلاصة أن الإسلام لا يدعو إلى ضبط النفس فحسب، بل إنه ينظمه أيضاً، ويضع التشريعات التي ترغب المسلم فيه.

ومن بدائع النظم القرآني، وروائع الكلام الرباني آية كريمة جمعت بين الإيمان على اختلاف شعبه، ومظاهر ضبط النفس في شتى صوره، تلك هي قوله تعالى:

"لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ"(٣).

وليس موقف الإسلام من الاستمتاع بملذات الحياة ومباهها موقعاً سلبياً ولا غامضاً، وإنما هو موقف صريح واضح لا لبس فيه، بصورة قوله تعالى على لسان

---

(١) الدهر: ٤ – ٢٣.

(٢) البقرة: ٢١٦.

(٣) البقرة: ١٧٧.

قوم موسى لقارون، "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا"[١]. وقوله تعالى: "يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً"[٢].

وقوله: "وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا"[٣]. وقوله: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ"[٤].

وليس من تعاليم الإسلام التسول والرهبنة، اللذان دعا إليهما بوذا، واتبعهما هو وأصحابه، فإن التسول يستبع الذل والمسكنة، وينافي الكرامة الشخصية التي يحرص الإسلام على أن يكون الاحتفاظ بها من صفات المسلم. يدل على ذلك قوله تعالى: "مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا"[٥]، وقوله:

"لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا"[٦].

والرهبنة تنافي الطبيعة البشرية ويترتب عليها كثير من الآثام، وفي تاريخ الرهبان والراهبات ما يؤيد صحة ما تقول، ويبين الحكمة في أن روح الإسلام تأباها، يشير إلى ذلك قوله تعالى: "وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا"[٧].

---

(١) القصص: ٧٨.

(٢) الأعراف: ٣١ – ٣٢.

(٣) الفرقان: ٦٨.

(٤) الملك: ١٦.

(٥) الفتح: ٢٩.

(٦) البقرة: ٢٧٣.

(٧) الحديد: ٢٨.

ومع أن الإسلام يأبى التسول ويستنكر الرهبنة فإنه يجب إلى الناس الأعمال الصالحة التي تنفعهم يوم القيامة، ويزهدهم في زخارف الدنيا البراقة الزائلة، وملذاتها الغرارة الباطلة. وفي ذلك يقول الله عز وجل: "اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ"[١].

أما المبادئ الثمانية[٢] التي ينطوي عليها المسلك الطيب المرضي لدى بوذا فقد شرحها الإسلام، وحث على اتباعها، فإن الإسلام قصد أولاً وقبل كل شيء إلى هدم العقائد الفاسدة التي شاعت بين الناس، وإزالة الأوهام المضرة التي علقت بأذهانهم، وإحلال العقائد الصالحة والآراء السديدة محلها.

واستنكر الإسلام فيما استنكر الأغراض الخبيئة والنيات السيئة التي كان يضمرها المنافقون، وحمل على النفاق والمنافقين حملة شعواء لا هوادة فيها.

وامتدح الكلمة الطيبة، وجعلها بمثابة الصدقة، ودعا إلى العمل الصالح، وإلى اتباع طريق مستقيم في الحياة، وإلى بذل الجهد في الأعمال، والاهتمام بها لإتقانها وإحكامها، وإلى النظر في ملكوت السموات، والتأمل في عجائب المخلوقات، وإلى التبتل والانقطاع لعبادة الله ولو بعض الوقت.

يقول الله تعالى: "الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ"[٣]. ومن الظلمات الشرك وغيره والتقاليد الفاسدة، ومن مظاهر النور الإيمان بالله وحده وغيره من العقائد الصحيحة، وكذلك

---

(١) الحديد: ٢١ – ٢٢.

(٢) هي: ١- العقائد الصحيحة. ٢- الأغراض الشريفة. ٣- القول الطيب. ٤- العمل الصالح. ٥- بذل الجهد الصادق. ٦- أتباع خطة قويمة في الحياة وكسب العيش. ٧- الاهتمام. ٨- صدق التأمل الروحاني.

(٣) إبراهيم: ١.

الأعمال والتقاليد الصالحة. ويقول سبحانه: "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا"(١). "والتي هي أقوم" هي الطريقة المثلى التي تتضمن المبادئ الثمانية، وما هو أكثر منها.

ويقول عز وجل: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ"(٢). ويقول أيضاً: "إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ"(٣). وكذلك النية الحسنة أو الغرض الشريف، فإن ضد النية الحسنة هو المكر السيء المشار إليه بقوله تعالى: والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد.

ويقول تباركت أسماؤه: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا"(٤).

ويقول عز من قائل: "قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"(٥). ويقول أيضاً "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ"(٦). ويقول: "وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ"(٧).

ويقول سبحانه وتعالى: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ

---

(١) الإسراء: ١٠ – ١١.

(٢) إبراهيم: ٢٥ – ٢٦.

(٣) فاطر: ٩.

(٤) الكهف: ٣٠ – ٣١.

(٥) يونس: ١٠٢.

(٦) آل عمران: ١٩٠ – ١٩١.

(٧) الذاريات ١٩ و ٢٠.

ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا"[١]. ويقول: "يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا"[٢].

وأما المحبة فإن الإسلام لا يحث عليها فحسب بل إنه يعظم من شأنها أيضاً، ويجعلها من شروط الإيمان، ففي الحديث الشريف، "لا تؤمنوا حتى تحابوا". ولا يكتفي الإسلام بالدعوة إلى مجرد المحبة التي موطنها القلب بل أنه يدعو إلى الإحسان بالقول والفعل لتكون الأعمال والأقوال مطابقة للنوايا والأفكار، ويفصل في بيان ضروب الإحسان وموطنه تفصيلاً لا مزيد عليه، فيأمر بالإحسان إلى الوالدين، وإلى ذوي القربى، وإلى اليتامى والمساكين، وإلى الجيران قريبين كانوا أو بعيدين، وإلى الأصدقاء، وإلى أبناء السبيل، وإلى الأرقاء. ويجعل الأمر بالإحسان عقب الأمر بعبادته وعدم الإشراك به، إشارة إلى وجوب الاهتمام به، وذلك حيث يقول سبحانه وتعالى: "وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا"[٣].

وليس وجوب الإحسان مقصوراً على الأصدقاء بل يشمل الأعداء، فالله عز وجل يقول: "وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ"[٤].

بل إن الإحسان واجب على الإنسان نحو الحيوان، ففي الحديث الشريف: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته".

القضايا السلبية:

---

(١) الكهف: ٢٨.

(٢) المزمل: ١ – ٨.

(٣) النساء: ٣٦.

(٤) السجدة (فصلت): ٣٦.

وأما الوصية السلبية أو النواهي العامة فنجدها في القرآن الكريم كاملة واضحة. وليس هذا فحسب بل إننا كثيراً ما نجد في النظم القرآني الكريم كل نهي مصحوباً بما يشبه أن يكون تعليلاً له مبيناً لحكمته، فالله تعالى يقول: "وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا"(١). فالتوراة تكتفي بأن تقول "لا تقتل"(٢). وكذلك يقول بوذا، ولكن القرآن يشير إلى بشاعة جريمة القتل وشناعتها بقوله: "التي حرم الله"، ويزيد على ذلك حيث يقول: "إلا بالحق".

وكذلك يقال في قوله تعالى: "وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"(٣). وفي قوله: "وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا"(٤). وفي قوله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"(٥).

وكذلك شأن القرآن الكريم في الأوامر أو الوصايا الإيجابية، كما في قوله تعالى: "اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ"(٦). وقوله: "اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً"(٧).

٣- نظام الإسلام وتشريعه:

والإسلام مع هذا كله نظام تام وتشريع مثالي كامل، يبين للناس أكمل بيان الأصول المنظمة للمعاملة، والآداب المهذبة للسلوك. وتلك آداب تكفل لمن يتبعها أن يحيا حياة سعيدة في عدل وأمن وطمأنينة.

"فرض الإسلام للفقراء في أموال الأغنياء حقاً معلوماً، يفيض به الآخرون على الأولين سداً لحاجة المعدوم، وتفريجاً لكربة الغارم، وتحريراً لرقاب المستعبدين،

---

(١) الإسراء: ٣٤.

(٢) راجع الوصايا العشر، سفر الخروج: ٢٠ (١ – ١٧).

(٣) المائدة: ٤٢.

(٤) الإسراء: ٢٣.

(٥) المائدة ٩٤.

(٦) التوبة: ١٢١.

(٧) النساء: ٢.

وتيسير الأبناء السبيل، ولم يحث على شيء حثه على الإنفاق من الأموال في سبيل الخير، وكثيراً ما جعله عنوان الإيمان، ودليل الاهتداء إلى الصراط المستقيم، فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة، ومحض صدورهم من الأحقاد على من فضلهم الله عليهم في الرزق، واشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء، وساق الرحمة في نفوس هؤلاء على أولئك البائسين، فاستقرت بذلك الطمأنينة في نفوسهم أجمعين وأي دواء الأمراض المجتمع أنجع من هذا؟ .. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

"أغلق الإسلام بابي الشر، وسد ينبوعي فساد العقل والمال – بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريماً باتاً لا هوادة فيه".

"لم يدع الإسلام بعد ما قررنا أصلاً من أصول الفضائل إلا أتى عليه، ولا أماً من أمهات الصالحات إلا أحياها، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده – كما ذكرنا – حرية الفكر، واستقلال العقل في النظر، وما به صلاح السجايا، واستقامة الطبع، وما فيه إنهاض العزائم إلى العمل وسوقها في سبيل السعي".

"ومن يتلو القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزاً لا ينفذ، وذخيرة لا تفنى. هل بعد الرشد وصاية؟ وبعد اكتمال العقل ولاية؟ كلاً قد تبين الرشد من الغي، ولم يبق اتباع الهدى، والانتفاع بما ساقته أيدي الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين"[1].

تأثير الملامح العرفانية الهندية في اليهودية والنصرانية:

١ – اليهودية:

لقد ذكرت فيما سبق كيف انتقل مبدأ الحلول من الملامح العرفانية الهندية إلى الأفلاطونية الحديثة ومنها انتقل إلى اليهود عن طريق "فيلون اليهودي أول مؤسس للأفلاطونية الحديثة".

٢ – في النصرانية:

(١) من رسالة التوحيد، للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

لقد انتقل مبدأ الحلول من اليهود إلى أهل العرفان واعتبر مذهب الحلول أحد المذاهب النصرانية – المسيحية – واعتنقه متصوفوا المسيحية – النصرانية – وهم أهل العرفان.

ويهمنا هنا أن نذكر كيف أثرت النصوص الهندية في النصرانية حتى حلت محلها.

ونذكر هنا مختارات من هذه النصوص المتطابقة كما ذكرها الإمام الراحل الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه "الديانات القديمة"(١).

النصوص الهندية		النصوص النصرانية
قد يجد الملائكة ويحاكي والده كرشنة ابن الله وقالوا: يحق للكون أن يفاخر بابن هذه الطاهرة(٢).		دخل الملاك على مريم العذراء والدة يسوع المسيح وقال لها سلام عليك أيها المنعم عليها الرب معك(٣).
عرف الناس ولادة كرشنة من نجمه الذي ظهر في السماء(٤).		لما ولد يسوع المسيح ظهر نجمه في المشرق وبواسطة ظهور نجمه عرف الناس محل ولادته(٥).
لما ولد كرشنة أضيء الغار بنور عظيم وصار وجه أمه "ديفاكي" يرسل أشعة نور ومجد(٦).		لما ولد يسوع المسيح أضيء الغار بنور عظيم أعيا بلمعانه عيني القابلة وعيني خطيب أم يوسف النجار(٧).
وعرفت البقرة أن كرشنة إله وسجدت له(٨).		وعرف الرعاع يسوع وسجدوا له(١).

(١) متى أراد الاستزادة فعليه الرجوع إلى الكتاب المذكور من ص ٣٠ : ٤٢ ص ٥٥ : ٦٨.

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

(٧)

(٨)

وآمن الناس بكرشنة وتعرفوى بلاهوته وقدموا له هدايا من صندل وطيب[٢].		وآمن الناس بيسوع وقالوا بلاهوته وأعطوه هدايا من طيب ومر[٣].
وسمع نبي الهنود طنادر" بمولد الطفل الإلهي كرشنة فذهب وزاره في "توكول" وفحص النجوم فتبين له من فحصها أنه مولود إلهي يعبد[٤].		ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك إذا المجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين أين هو المولود الجديد؟[٥]
كرشنة هو براهما العظيم القدوس وظهوره بالناسوت سر من أسراره العجيبة الإلهية[٦].		يسوع هو يهوه العظيم القدوس وظهوره في الناسوت سر أسراره العظيمة الإلهية[٧].
كرشنة هو المخلص والعادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط وابن الله والأفنوم الثاني من الثالوث المقدس، وهو الأب والابن وروح القدس[٨].		يسوع المسيح هو المخلص والعادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط وابن الله والأفنوم الثاني من الثالوث المقدس وهو الأب والابن وروح القدس[٩].
لما مات كوذا ودفن انحلت الأكفاء وفتح غطاء التابوت بقوة غير طبيعية[١٠].		لما مات يسوع ودفن انحلت الأكفاء وفتح القبر بقوة إلهية[١١].

هذا والله أعلم:

---

(١)
(٢)
(٣)
(٤)
(٥)
(٦)
(٧)
(٨)
(٩)
(١٠)
(١١)

وبعد أن انتهينا من المبحث الثالث[1].

ننتقل بإذن الله تعالى وقدرته إلى المبحث الرابع وهو الأخير من الفصل الثاني.

(١)

المبحث الرابع
الملامح العرفانية عند الفرس التصوف الفارسي

لقد غزا الفرس غرب آسيا حتى شواطئ البحر الأبيض المتوسط ووصلوا إلى مصر، وتركوا آثاراً في الحضارة الغربية، كما في الحضارة العربية الإسلامية.

الناحية الدينية عند الفرس بإيجاز:

إن ديانة قدماء الإيرانيين – الفرس – خليط بين الوثنية والعرفان، ولقد مرت بأدوار أثمرت عن بزوغ التصوف عندهم (الملامح العرفانية) وأثرت في الاتجاه الروحي والملامح العرفانية فيما بعد.

وهذه المراحل – الأدوار هي:

١- قدسوا بعض عناصر الطبيعة الأربعة – النار، والماء، والأرض، بعض الأشجار – وغيرها بالإضافة إلى عبادة الخاصة منهم "ميترا" أو "أهو رامازدا" أي الذي لا يرى وليس له معبد خاص فقد أصبحت بقاع الأرض كلها معبداً وليست النار سوى رمز له.

واستمر الحال على هذه العقائد إلى أن جاء زرادشت.

٢- زرادشت:

لقد نادت الزرادشتية في القرن السابع قبل الميلاد بالإصلاح والطهارة الأخلاقيين وتخليص العالم من الشرور واستئصالها، بما يحقق سعادة تنظم الوجود الواحد كله ولقد نادت بالتوحيد[١].

٣- ماني ٢١٥ – ٢٧٥ ق.م:

ويعد مذهبه مزيجاً من حالته النفسية، المتشائمة المتنسكة والممتزجة من الزرادشتية، الميهرية، البراهمة، والمسيحية قبل سيادة المجامع وقوانينها الكنسية[٢].

ويدعو إلى الاعتقاد بوجود إلهين قديمين، يسيران هذا العالم ويقومان على شئونه، إله الخير، وإله الشر، ويرى أنهما متساويان[١].

---

(١) أنظر التصوف العربي ص ٤٠ بتصرف يسير.

(٢) علم التصوف ص ١٧٥.

٤- المزدكية – مزدك – ٤٨٧م:

تميزت أفكاره الاجتماعية باللغو، وفقد رأى شيوع المال والنساء وعدم الاقتصار على طقوس دينية معينة.

ويدعو إلى القول بإلهين، وفي الوقت نفسه يدعو إلى الاشتراكية بين الناس في الأموال والنساء، لأن ذلك يذهب الكبد والحقد من قلوب الناس، ويسد الشر الكامن في نفوسهم، فإذا ما ألغيت الملكية، وأبيحت النساء للجميع بلا قيد ولا شرط، طهرت القلوب من الحقد إلى الأبد ووضعت الحرب أوزارها إلى نهاية الوجود(٢).

وقد أخذ بهذا المذهب – قباذ – ملك الفرس، ثم أبطله من بعده من كسرى أنو شروان، وكما ذهب إلى اشتراكية النساء والأموال ورأى أن الكل فيهما سواء، ذهب – أيضاً – إلى أنه لا يجوز أن يختص بعض الناس بطقوس دينية دون الآخرين، حتى تزول جميع الفوارق التي هي سبب البلاء في العالم وقد تأثر بهذا المذهب أفلاطون في القول باشتراكية النساء(٣).

الملامح العرفانية - التصوف عند الفرس:

لقد أفرزت الثقافة الفارسية ملامح عرفانية – التصوف – كان لها تأثيرها فيما بعد.

<u>هذه الملامح العرفانية – التصوف – هي:</u>

١- عبادة النار وبعض القوى المجردة.

٢- التركيز على فكرة الخلاص النفسي – زرادشت – زرادشتية.

٣- تعميم مبدأ الخير والشر وسيادة مبدأ الخير على الشر في نهاية الأمر أي أن "أهو رامازدا – إله الكون كله، وليس له خصم سوى "أهر من" إذن هناك ثنائية.

---

(١) الأديان الشرقية، ص ١٤٧.

(٢) المذاهب الشرقية، ص ١٤٨.

(٣) علم التصوف ص ١٧١.

لقد حل رجال الدين هذه الثنائية فيما بعد في أن "أهرمن" ليس خصماً للإله الأعلى ولكنه مقابل "روح القدس في مازدا" والفكرة لها علاقتها بالإنسان الأول عند الفرس(١).

٤- الزمان المطلق.

أنت الزروانية المستمدة من المعتقدات الكلدانية فاعتبرت الزمان المطلق وقد ولد أمين "أرمزد" و "أهرمان" هما مبدأ الخير ومبدأ الشر على التوالي، قوتان متعادلاتن متكاملتان، مما يعني أن الازدواجية في الوجود صحيحة وضرورية(٢).

٥- فكرة المخلص أو المهدي:

تطورت فكرة "المخلص أو المهدي" من العقيدة الإيرانية القديمة – الأفشتا – الذي سيعود ليملأ العالم عدلاً بعد أن مليء جوراً وشروراً، فيخلص البشر.

وقد ذهب ماني إلى أنه "البار قليط" الذي وعد بمقدمة المسيح فهو المسيح الثاني الذي جاء للعالم بديانة "الخلاص".

٦- الخير والشر في كل شيء:

رأى ماني أن الخير والشر في كل شيء، حتى في العناصر الطبيعية وتصدر الخيرات عن الله بينما تصدر الشرور عن مبدأ أزلي آخر والتطهير لا يتم إلا بطريق "المعرفة" عند الصوفيين.

<u>ومذهبه في هذا خليط من الأفكار:</u>

- فيه حدس الأفلاطونية الحديثة.
- النار العاقلة عند الرواقيين.
- معتقدات الصينيين في السماء والضوء النفسي.
- عقائد المغتسلة – تلك الفرقة المسيحية التي دعت إلى التطهير بالعماد واعتبرت المسيح نور العالم(٣).

---

(١) الملل والنحل، للشهرستاني جـ ١ / ٢٣٤ التصوف في العرب ص ٤١.

(٢) أنظر علم التصوف، ص ١٧٠ بتصرف.

(٣) علم التصوف ص ١٧٧ وما بعدها.

ففكرته عن الإنسان تتمثل في الصراع بين مبدأ الخير والشر حيث رأى وجوب التخلص من قيود الجسم البشري وإبادة العنصر البشري بواسطة حظر الزواج وغير ذلك من الوسائل.

يرى كثير من المفكرين أن معظم الملامح السابقة أصلها هندي فالبستاق أو الإقستالة لها أصولها في الفيدا الهندية.

كما أن البوذية كانت واسعة الانتشار في فارس.

أثر التصوف - الملامح العرفانية الفارسية في التصوف البشري:

لقد أثر التصوف الفارسي فيما بعد في التصوف البشري وتجلى ذلك في:

١- نظرية الحق الإلهي.

٢- الإمام المعصوم.

٣- الحقيقة المحمدية.

٤- الحلول، تقديس البشر.

٥- نظام الرهبنة والزهد.

٦- القول بالرجعة.

٧- دعوة الألوهية.

٨- التناسخ[١].

٩- يرى فريق من الباحثين أنها أثرت في بعض الفرق الإسلامية.

- تقديس بشار بن برد للنار فقد ورد أنه يفضل النار على الطين.
- زندقة ابن المقفع.
- ومروق الجاحظ في بعض آرائه[٢].

هذا رأي فريق من المؤرخين، لكنه يحتاج إلى تمحيص ليس في الوقت متسع له، ولا المجال الآن يسمح به، ولكننا مع اعتقادنا بأن الديانة الزرادشتية – ومنها الملامح العرفانية – عرفت لدى المسلمين بعد الاختلاط بأهلها أيام الفتح الإسلامي

---

(١) علم التصوف، ص ١٧٧ وما بعدها.

(٢) الفلسفة الشرقية، د/ غلاب ص ٢٠٨.

لهذه البلاد، وأن كتبها ترجمت إلى اللغة العربية ضمن ما ترجمته الفرس كعبد الله بن المقفع – من الكتب الفلسفية إلى اللغة العربية، فليس من الممكن أن نرى لها أثراً إيجابياً في الملامح العرفانية الإسلامية، إذ أن المذاهب الفارسية تعتقد بوجود إلهين، إله الخير، وإله الشر.

أما الفلاسفة المسلمين جميعاً فإنهم يقولون بوحدانية الإله، وإنه من المستحيل وجود إلهين للعالم في نظر المسلمين، ولكن قد يكون لهذه الآراء والملامح أثر سلبي في المفكرين من المسلمين، وهو:

هذه العقيدة القائمة على تعدد الإله، جعلت المسلمين يقولون بالوحدة التي هي أساس دينهم ويبالغون فيها، كما فعل المعتزلة والفلاسفة الذين قالوا بالبساطة في الذات الإلهية، ونفوا صفات المعاني وغيرها عنه تعالى خوفاً من تعدد القدماء أو التكثر في الذات الإلهية، بل نفوا وجود الشر في العالم، وقالوا إن الشر نسبي، فالشر عدم الخير أو عدم ما ينفع[1].

والعقيدة التي أتى بها الإسلام هي عقيدة التوحيد الصريح، الخالي من شوائب الشرك البريء من أدران الوثنية على اختلاف صورها. وكلمة التوحيد وهي: "لا إله إلا الله، تصور هذا المعنى في سهولة وبساطة، فليس في الكون إله غير الله الواحد الأحد، الفاعل المختار، المنصرف في شئون جميع الكائنات، المتصف بجميع صفات الكمال، المنزه عن جميع صفات النقص، لا شريك له ولا ند. ولا مثيل ولا نظير.

ولئن اختلف الباحثون في العقيدة الإلهية الزرادشتية إثنائية كانت أم توحيدية، إنهم لم يختلفوا في أن العقيدة التي أتى بها محمد بن عبد الله هي عقيدة التوحيد التي تقوم على الإقرار بوجود الله، وبوحدانيته، ونبذ الأصنام وعبادتها، تلك العقيدة التي نادى بها الرسول، وألح في المناداة بها منذ اللحظة الأولى من حياة رسالته، وتكرر ذكرها والدعوة إلى اعتناقها والبرهنة على صحتها في أوليات السور المكية، ففي هذه السور كثير من الآيات التي تبرهن على وحدانية الله، وعلى عموم قدرته، وتلفت

(١) أنظر المذاهب الشرقية ص ١٠٥، وما بعدها بتصرف.

الأنظار إلى عجائب المخلوقات في الأرض والسموات، وتدعو إلى التفكير فيها وفي منشئها ومصيرها.

ولا يقف الإسلام عند هذا الحد، بل إنه يحوط هذه العقيدة بفرض العبادات الواضحة المعالم، المحددة الغايات، وهي الصلوات والصوم، والزكاة، والحج. ومن شأن هذه العبادات أن تهذب النفس البشرية. وتقوم الشخصية الفردية بتعويد الإنسان الصبر وضبط النفس، والاعتماد على الله، والثقة وبه وحده.

نعم إن الزرادشتية تفرض بعض الأمور التعبدية كالصلاة والصوم، ولكن هذه لم تصل في الأحكام والإتقان والوضوح إلى ما وصلت إليه العبادات التي يفرضها الإسلام.

والإسلام لا ينكر على الفرد حريته وكرامته الشخصية، بل إنه متجه حرية التصرف في أمواله وجميع شئونه الخاصة، بعد أن يؤدي الواجب عليه نحو الفقراء والمساكين، ونحو الوطن الذي يعيش فيه.

وقد منح المرأة حرية ما كانت تحلم بها من قبل فرفع منزلتها الاجتماعية، وجعل لها ما الرجل من حقوق، وعليها ما عليه من واجبات وتكاليف شرعية، غلا حيث تقتضي الحكمة التفرقة بينهما.

ووضع القوانين وسن الشرائع التي من شأنها أن تسهل عنق الأرقاء، وتمهد لهم سبل الخروج من ربقة الاستبعاد وذل الاسترقاق، إلى نعيم الحرية والمساواة والإخاء.

فهل لهذه التشريعات الحكيمة نظائر في الزرادشتية؟

وقد وضع الشارع الحكيم القوانين الكفيلة بتنظيم الحياة المنزلية، لتحسين العلاقة بين الزوجين وبين الآباء والأبناء، وبين المخدوم والخادم، ويؤدي كل ما عليه من واجبات، ويستمتع بما له من حقوق.

ولست أدرى أن في الزرادشتية مثل هذا التشريع. اللهم إلا بعض إشارات إجمالية مبهمة تتعلق بالحياة المنزلية.

وكذلك وضع الإسلام قوانين شتى لتنظيم الحياة الاجتماعية العامة، وإقامة العلاقات بين الناس، ومعاملة بعضهم لبعض على أسس من العطف والتراحم،

والأمانة والصدق، والإخاء والمساواة، والعدل والتعاون، وحسن الجوار، والوفاء بالعهد – وغير هذه من الأخلاق الحميدة التي تؤدي إلى التآلف والاتحاد.

فكر في قوله تعالى: "إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ". تجد أنه يشتمل – في أسلوب طلي رقيق – على الجواهر الثلاثة التي نادت بها الزرادشتية، وهي القول الحسن، والعمل الصالح، والفكر الطيب، الذي أشار إليه سبحانه بقوله: "وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ". فمكر السيئات هو التفكير الخبيث الذي ينافي التفكير الطيب.

ومن مقاصد الإسلام السلمية تقوية الأمة تقوية مادية، كي تستعد للطوارئ، وتستطيع المحافظة على كرامتها، وتعظم هيبتها فلا يطمع فيها أعداؤها، فالله تعالى يقول: وأعدوا لهم ما استعطتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم". ويقول: يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا: "المؤمن القوي خير وأفضل عند الله من المؤمن الضعيف".

وقد نظم الشارع العلاقة بين الحاكمين والمحكومين، فأوجب على الحكام العدل، وعلى المحكومين الطاعة لينتشر الأمن ويسود السلام.

ولم يؤثر عن الزرادشتية شيء مثل هذا أو ذاك في صورة واضحة.

وقد حرمالإسلام تحريماً صريحاً قاطعاً الخبائث التي دل التاريخ، وأثبتت التجارب والمشاهدات أنها تؤدي إلى فساد الجسم والعقل، وإضعاف النسل، أو إلى إيقاع العداوة والبغضاء بين الناس، وتقضي على ما يجب أن يكون بينهم من ألفة ومحبة، وذلك كالاعتداء على الأرواح والأموال والأعراض والربا، وشرب الخمر، والميسر.

وليتم التعاون بين الحاكمين والمحكومين، ويكون على الأمة رقباء منها دعا الشارع الحكيم إلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. ونعى على بني إسرائيل عدم نتاهيهم عن المنكر. فقال: "كانوا لا يتناهون عن المنكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون". وقال "لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ".

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مبادئ الزرادشتية – كما يقول الشهرستاني[1].

وقد علم الله سبحانه وتعالى أن أداء الواجبات الدينية والدنيوية لا يتم على الوجه الأكمل إلا بصحة البدن وسلامة العقل، فأوجب على الناس المحافظة على أرواحهم، وعلى سلامة أجسامهم، وأباح لهم الاستمتاع بالطيبات من الرزق من مأكل ومشرب وملبس، في غير إسراف ولا تقتير، ودعاهم إلى تدريب عقولهم بالتفكير في أنفسهم، والنظر في ملكوت السموات والأرض، وحثهم على التبصر والتدبر كي تتسع مداركهم، ويستطيعوا فهم العقيدة والتعاليم الإسلامية على وجهها الصحيح، ويثبتوا أمام المعاندين المكابرين، إذا احتدم النزاع واستدت الخصومة، واضطروا للمجادلة والمحاجة.

ويخطئ من يدعي أن الإسلام دين لجاجة وخصومة، وعداء واعتداء: فإن روحه روح مسالمة وإصلاح بين المتخاصمين، وجنوح إلى السلم إذا لم يترتب عليه ضرر للأمة ولا إضعاف لهيبتها، أو إهدار لكرامتها، ولا تعطيل للدعوة الإسلامية.

والله تعالى يقول: "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا". ويقول: "وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا". ويقول: "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ". ويقول: "وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ". ويقول: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ".

وجدير بالذكر أن آيات القرآن الخاصة بالقتال ليس فيها أمر بالقتل اعتداء وإنما فيها أمر بالقتال للدفاع عن النفس. فمن ذلك قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ". وقوله: "وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً".

---

(١) جـ ٢، ص ٧٧.

وقد وضع سبحانه لذلك قاعدة عامة حيث قال: "فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ".

والله تعالى يعلم أن النزاع بين الناس يقوم في الكثير الغالب على المطامع الشهوانية والرغبات المادية، والتطلع إلى الجاه والمناصب، وأن المسألة لا تتم إلا بالزهد في الدنيا وحطامها الزائف الزائل، ومراعاة جانب العفة والقناعة التي هي منشأ السعادة النفسية لذا نراه جل شأنه يرغب في العمل للآخرة أكثر مما يرغب في العمل للدنيا، ويدعو إلى ضبط النفس وكبح جماحها: حتى لا تستسلم لشهواتها، ولا تخضع لرغباتها وفي ذلك يقول سبحانه: "اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ". ويقول: "فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى".

هذه وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره هي تعاليم الإسلام الرشيدة، وتعاليمه الحكيمة التي إذا اتبعها الناس مؤمنين بها، مخلصين لها شاع بينهم الحب والإخاء، والتعاون والوفاء، وذهب عنهم الحقد والحسد، والعداوة والبغضاء، وعاشوا عيشة سعادة وأمن ورخاء.

وهذه في مجموعها وجملتها وتفصيلها هي التي جعلت الإسلام دين سلام وأمن، وأخوة ومساواة وعدل، وكانت – في الوقت نفسه – في مقدمة الأسباب التي دعت إلى ظهور المسلمين على غيرهم من الأمم، وظهور الإسلام على غيره من الأديان.

وصدق الله تعالى حيث يقول: هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون[1].

---

(١) زرادشت الحكيم، حامد عبد القادر، ص ٨٥ : ٩٠.

وفوق ما تقدم أنظر الديانة والمذاهب الفارسية والملامح العرفانية فيها وأثرها في:

١- زرادشت الحكيم – حامد عبد القادر زرادشت ، الكتاب كله مانويه مزدكيه.

٢- الأديان والمذاهب الشرقية د. عثمان عيش، ٩٣، ١٣٠، ١٤٧.
٣- قصة العقائد بين السموات والأرض، إسماعيل مظهر، ٢٣٢.
٤- دراسات في أديان العالم القديم، د. أحمد غلوش، ١٢٤، ١٥٠.
٥- الدين والإنسان، د. عبد الغفار عزيز، ١٤٣، ١٥١، ١٥٣.
٦- الملل والنحل للشهرستاني، جـ ١، ٢٣٤، ٤٤٤، ٢٤٩.
٧- الفصل لابن حزم.
٨- الأسفار المقدسة علي عبد الواحد وافي.
٩- الإنسان في ظلال الأديان، د. عمارة نجيب.
١٠- الأديان في القرآن الكريم، د. محمود بن الشريف.
١١- علم التصوف، ١٧٥.
١٢- التصوف العربي. ٤٠.

الفصل الثالث
التصوف الغربي - اليوناني

(الملامح العرفانية الغربية – اليونانية)

ويشتمل على:

مدخل.

والمباحث الآتية:

المبحث الأول: التصوف الطبيعي الوثني والعقلي المنحرف.

المبحث الثاني: التصوف العرفاني الروحي.

المبحث الثالث: تصوف الأفلاطونية الحديثة والتصوف التوفيقي – الشرقي والغربي

مـدخـل

تعد اليونان مهداً من مهود الحضارات القديمة الخصبة بأنواع العلوم والفنون والآداب وجميع فروع المعارف الأخرى التي بلغت فيها مكانة راقية شامخة الذرى، حتى ظن مؤرخوا الغرب واعتقدوا أن مهد المدينة الغربية كان اليونان، حتى تبين لهم سبق بلاد النيل ودجلة(١).

والفكر اليوناني لم يكن مقطوع الصلة منذ البداية، عن الاتجاهات الشرقية السالفة فقد سافر كبار فلاسفتهم ومفكريهم إلى المشرق، مثل: ديمقريطس، أنكسيمندر وأفلاطون.

يقول صاحب تاريخ الفلسفة اليونانية (يرجع الفضل الأكبر فيها – الحضارة اليونانية – إلى المستعمرين بالإجمال، والأيونين منهم بنوع خاص وكانوا أنجب اليونان، جاوروا فانتفعوا بعلومها واصطنعوا مدنيتها) (٢).

ومن ذلك يتبين لنا خطأ ما يقوله "أرسطو" و "نيلتو" وأن عكسه هو الصحيح، فقد تناولت الملامح الروحية الشرقية بالبحث والتحليل أهم ما يشغل البشرية من جهة العقل والروح وهذا ما اتضح لنا من الفصل السابق.

يقول الدكتور/ محمد غلاب "أثبتنا بالأدلة القاطعة، سذاجة – أرسطو، وأذنا به في دعواهم أن الفلسفة نشأت للمرة الأولى في – أيونية – القرن السادس قبل المسيح وأن أول فيلسوف في الدنيا هو "طاليس المالطي" وبرهنا على أن ذلك العصر الذي حدده لبدء الفلسفة العالمية كان عصر تدهور وانحطاط سبقه تفكير راق وفلسفة رفيعة دامت أكثر من خمسة وعشرين قرناً"(٣).

ومن هنا يتضح الفرق بين الملامح العرفانية الشرقية والملامح العرفانية الغربية اليونانية – على الرغم من تأثير الفكر الشرقي في الفكر الغربي.

---

(١) الدين والإنسان – دراسات في الأديان والمذاهب القديمة د. عبد الغفار عزيز وآخرون ص ١٦٧ بتصرف يسير.

(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم، ص ٩.

(٣) الفلسفة الشرقية ص ٣٤٥ نقلاً في كتاب علم التصوف، ص ١٧٦.

فإن الملامح العرفانية الشرقية نظرت إلى الوجود، نظرة على أنه واحد وأن الإنسان مظهر من مظاهر الكون "العالم، الذي هو مظهر إلهي".

وهذه النمطية من التفكير تعتبر طريقاً للمعرفة الحدسية الباطنية والفيض الصادر عن الروح – الكلية – الله.

أما الفكر الغربي. ومنه الملامح العرفانية اليونانية – فقد أظهرت في أغلب الحالات ميلاً إلى التفريق بين العقل والنقل في المعرفة والتي تلح في أكثر الأحيان على سيادة العقل لاعتماده في هذا الشأن على العقل البشري وحده، والفكر المستقل عن الوحي.

والملامح العرفانية الغربية – اليونانية – قد انبثقت من الفكر اليوناني الذي نشأ في بلاد اليونان ومستعمراتها حوالي القرن السابع قبل الميلاد – ٧ ق – م. واستمر أحد عشر قرناً من الزمان: أي من منتصف القرن السابع قبل الميلاد إلى أوائل القرن السادس بعده وذلك عندما أغلق الإمبراطور جوستنيان إمبراطور الدولة الشرقية، المدارس، الفلسفية في أثينا عام ٥٢٩ م أي استمرت من القرن ٧ ق م : ٦ م.

مراحل الملامح العرفانية اليونانية:

قد مرت المعرفة للملامح العرفانية اليونانية باعتبارها طابع البحث والمعرفة والمجال فيها إلى المراحل الآتية:

أولاً: المرحلة الأولى مرحلة ما قبل سقراط ٦٤٠ : ٤٨٠ ق م:

تمتد هذه المرحلة من القرن السابع قبل الميلاد إلى ما بعد منتصف القرن الرابع قبل الميلاد بقليل – أو القرن الخامس ق م.

مدارس ومفكروا هذه المرحلة:

لقد وجدت في هذه المرحلة عدة مدارس فكرية وبالتالي وجد معها مفكروها وهذه المدارس هي:

١ – مدرسة الطبيعيين الأولين – إيونيا:

مفكرو هذه المدرسة:

١– طاليس ٦٣٤ – ٥٤٦ ق م.

٢- أنكسمندر ٦١٠ – ٥٤٧ ق م.

٣- انكسيمنس ٥٨٨ – ٥٢٤ ق م.

٤- هيراقليطس ٥٤٠ – ٤٧٥ ق م.

٢- مدرسة الفيثاغوريين:

مفكرو هذه المدرسة كثيرون ولكن مؤسسها هو فيثاغورث ٥٧٢ – ٤٩٧ ق م.

٣- مدرسة الإيليين:

١- إكزينوفان ٧٥٠ – ٤٨٠ ق م.

٢- بارمينيدس ولد ٥٤٠ ق م.

٣- زيتو ولد عام ٤٩٠ ق م.

٤- مدرسة الطبيعيين المتأخرين:

مفكروا هذه المدرسة هم:

١- أنبا دوقليس ٤٩٠ – ٤٣٠ ق م.

٢- ديمقرايطس ولد عام ٤٧٠ ق م.

٣- انكساغوراس ٥٠٠ – ٤٢٨ ق م.

ثانياً: المرحلة الثانية مرحلة السوفسطائيين وسقراط ٤٨٠ : ٣٩٩ ق م:

تمتد هذه المرحلة من سنة أربعمائة وثمانين إلى سنة ثلاثمائة وتسع وتسعين سنة قبل الميلاد.

مدارس ومفكروا هذه المرحلة:

لقد وجدت في هذه المرحلة عدة مدارس فكرية ومعها مفكروها.

١- مدارس السوفسطائيين:

وأشهر مدارس السوفسطائيين مدرستان هما:

١- مدرسة العندية ويقصدون بذلك: إن هذا الرأي حق عندي ويمثل هذه المدرسة المفكر – بروتاجوراس ٤٨٠ – ٤١٠ ق م.

٢- مدرسة العنادية ويقصدون بذلك المكابرة وإنكار وجود الأشياء جميعها. ويمثل هذه المدرسة – جورجياس ٤٨٠ – ٢٧٥ ق م.

٢- مدرسة سقراط:

ويمثلها سقراط ٤٦٩ : ٣٩٩ ق م.

ثالثاً: المرحلة الثالثة مرحلة أفلاطون وأرسطو ٤٢٧ : ٣٢٢ ق م:

تمتد هذه المرحلة من سنة أربعمائة وسبع وعشرين إلى ثلاثمائة واثنين وعشرين سنة قبل الميلاد.

مدارس هذه المرحلة:

١- مدرسة أفلاطون ٤٢٧ – ٣٤٧ ق م، نظرية المثل عنده.

٢- مدرسة أرسطو (أرسطوطاليس) ولد ٣٨٥ ق م. أرسطو ومذهب الحلول.

رابعاً: المرحلة الرابعة مرحلة ما بعد أفلاطون – وأرسطو مرحلة الاضمحلال ٣٢٢ ق م : ٥٢٩ م (عصر التلفيق):

تمتد هذه المرحلة من سنة ثلاثمائة واثنتين وعشرين قبل الميلاد إلى سنة خمسمائة وتسع وعشرين بعد الميلاد حتى أغلق جوستنيان المدارس الفكرية الفلسفية عام ٥٢٩ م.

مدارس هذه المرحلة:

١- المدرسة الأبيقورية ومؤسسها المفكر – أبيقور ولد ٣٤١ ق م.

٢- المدرسة الرواقية معاصرة للأبيقورية – مؤسسها المفسر زينون ٣٣٦ : ٢٦٤ ق م.

٣- مدرسة الأفلاطونية الحديثة ومن مفكريها أفلوطين ٢٠٥ – ٢٧٠ م.

٤- مدرسة التلفيق بين الغنوصين[١] الشرقي – والغربي "الجمع بين الملامح العرفانية الشرقية والملامح العرفانية الغربية.

ولقد اخترلنا – أوجزنا – الحديث عن الفكر اليوناني إيجازاً كي نتناول الاتجاهات الأخرى المهمة التي هي أقرب إلى العرفان والروحية في المباحث الآتية:

---

(١) الغنوص كلمة يونانية تعني المعرفة الحدسية المباشرة التي لا تعتمد على وسائل العقل المستدل له أو النقل، لأنها تهدف إلى وحدة العارف والمعروف أنظر إلى كل ما سبق في تاريخ الفلسفة اليونانية أ.د عوض الله حجازي، د. محمد السيد نعيم ص ٤٥ – ٢٠٨.

المبحث الأول
التصوف الطبيعي الوثني والعقلي المنحرف
"اتجاهات الملامح العرفانية الوثنية والعقلية المنحرفة"

ويدخل تحته مطلبان:

المطلب الأول: اتجاهات الملامح العرفانية الوثنية:

ونتناول فيه الاتجاهات الآتية:

١- الوثنية الغليظة القائمة على الأساطير بألهيتها الساذجة التي تتصرف مثلما يتصرف البشر، بعواطف متنوعة كالغضب والقتال والحب.

وعلى الرغم من وجود عباقرة – شعراء وفلاسفة – فإن اليونانيين اتخذوا عديداً من الآلهة، وجعلوا لهم مقراً رسمياً فوق جبال الأوليمب في مكان يعرف "الأكريول"(١).

إن آلهة اليونان بدأت مسيطرة على القوى الطبيعية بصورة غامضة، ثم أخذت تترقى في وظائفها حتى اتضحت ذواتها وخرجت إلى عالم النور وتميزت بعضها عن بعض، ولم تنحصر في عدد معين وإنما تزايدت وتكاثرت بصورة واضحة.

والآلهة – عندهم – لها سلطة عظمى على الحياة ولها إرادة وقدرة على كل ما يحدث من خير أو شر، ومن أجل هذا التزام اليونان بطقوس معينة، يتجهون بها للآلهة كالذبح والتراتيل وغير ذلك.

ولم تكن الآلهة البشرية هي كل الآلهة عند اليونانيين، لأننا نجدهم يؤمنون بآلهة خفية غامضة، تميل لنشر الذعر والخوف بين الناس، وكانوا يرونها فوق الطبيعة، وأقوى منها لذلك لم يتمكنوا من تحديد حقيقتها.

لقد درج اليونانيون على تصوير آلهتهم المعروفة والخفية بأنها تنزل قضاءها الرهيب بالخلائق، وأحاطوا هذا المعنى بالأساطير المتنوعة الكثيرة المكتوبة في أشعار مطولة.

---

(١) أنظر إلى آلهتهم ونظرتهم لها وعلاقتها بالكون بالتفصيل، دراسات في الأديان – أديان العالم القديم د. أحمد غلوش، ص ١٤٨ : ١٥٠، الدين والإنسان د. عبد الغفار عزيز / ١٦٧ : ١٧٨.

وقد استمر اليونانيون على ما هم عليه بالنسبة للآلهة حتى جاء القرن الخامس قبل الميلاد، وفيه حدث تنظيم جديد في نظرة اليونانيين لآلهتهم حيث يرفع إله واحد فوق جميع الآلهة، ذلك الإله هو "زيوس" ممثل العدالة، وكل الآلهة تخضع لقوة ذلك الإله وسلطانه، وكل ما يقع للناس هو بأمر "زيوس".

واستمر الحال كذلك إلى:

٢- الاتجاهات العرفانية عند المدرسة الطبيعية، المادية الأولى.

وهذا الاتجاه يضم النقاط الآتية:

١- مفكروا هذا الاتجاه:

- طاليس ٦٢٤ – ٥٤٦ ق م – أنكسمندر ٦١٠ – ٥٤٧ ق م.
- أنكسمينس ٥٨٨ – ٥٢٤ ق م هيراقليطس ٥٤٠ – ٤٧٥ ق م.

٢- فلسفة هذا الاتجاه ومبادئه العرفانية:

- الماء أصل الأشياء وأنه المادة الأولى والعنصر الوحيد الذي تتكون منه الموجودات وهذا رأي طاليس.
- اللامحدود واللامتناهي – يضم مزيجاً من الأضداد جميعاً كالحار والبارد، واليابس، والبياض وغيرها.

هذه المادة لا محدودة من ناحية الكم، ولا من ناحية التكيف.

- أما أنها ليست محدودة من ناحية الكم، لأنها غير متناهية.
- وأما أنها ليست محدودة من ناحية الكيف فلأنها غير معينة، فلا يمكنك أن تكيفها وتصفها بصفة خاصة وإذا أردت أن تصفها فلابد أن تجمع لها جميع الصفات المتضادة والمتناقضة وهذا اتجاه انكمسندر.

٣- الأصل الذي نشأ منه هذا الوجود المحسوس، مادة غير محدودة من جهة الكم ولكنها معينة من ناحية الكيف هذه المادة هي "الهواء" وهذا اتجاه انكسمينس.

٤-الأصل الذي نشأ منه هذا الوجود – نار طليفة أثيرية إلهية تتحلل فتصير ناراً ملموسة وهكذا[١].

وهذا رأي هيراقليطس.

إذن مبادئ هذا الاتجاه تدور حول تعليل الوجود وأنه نشأ من مادة واحدة لكن تعددت الآراء حول هذه المادة:

الماء، مادة غير محدودة كماً وكيفاً، الهواء، النار.

٣- الملامح العرفانية لهذا الاتجاه:

تتلخص في:

١- تأليه العناصر.

٢- تظهر العرفانية بقلة نادرة من خلال الوثنية الطاغية لتفكيرهم الوثني، لأنهم يرون في الماء، الهواء، النار، اللامحدود مجرد رموز للألوهية أو القوة الواحدة[٢].

٤- تأثير هذه الملامح العرفانية على الملامح العرفانية فيما بعد:

١- ظهور وحدة الوجود فيما بعد.

لقد قال هؤلاء أن مبدأ العالم مادة واحدة قديمة باقية منها نشأ العالم وإليها يعود.

وأضافوا لهذه المادة صفة الحياة فهم يعتقدون بوحدة الوجود أي مبدأ العالم مادة واحدة حية، يتكون منها العالم ثم يتحلل وهكذا.

٢- أدى هذا إلى ظهور المذهب المادي الحديث في إنكار وجود الله وقدم العالم.

٣- ظهور مبدأ من يرجع العالم إلى مواد أربع هو الماء، والهواء، والتراب والنار[٣].

---

(١) أنظر في تاريخ الفلسفة اليونانية أ.د عوض الله حجازي، الدكتور محمد السيد نعيم ص ٤٧ : ٥٩ بتصرف شديد.

(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٨.

(٣) أنظر في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٥٩ وما بعدها بتصرف، أنظر الملل والنحل للشهرستاني، جـ ٢ طاليس/ ٦١، أنكسمانس ٦٦.

٤- ظهور مبدأ الفكر العقلي الحر الذي أبعد الإله – بعيداً عن الآلهة أي تحكيم العقل المجرد في القوة الغيبية ولهذا أثره الخطير فيما بعد.

٣- الاتجاهات العرفانية لدى المدرسة الإيلية:

هذا الاتجاه بضم النقاط الآتية:

١- مفكرو هذا الاتجاه:

- إكزينوفان ٥٧٠ – ٤٨٠ ق.م.
- بارمنيدس ولد ٥٤٠ ق.م.
- زينو ولد ٤٩٠ ق.م.

٢- فلسفة هذا الاتجاه العرفاني:

لقد كان طابع هذا الاتجاه طابعاً عقلياً ويتلخص اتجاههم في أن العالم موجود واحد، وطبيعة واحدة لا كثرة فيه، ولا تغير، ولا حركة.

٣- الملامح العرفانية لهذا الاتجاه:

- الله والعالم شيء واحد.
- الأشياء واحدة في العقل كثيرة في الحس.

أي أن الملامح العرفانية لهذا الاتجاه نظرته الحلولية إلى الوجود(١). فالإله عند مفكري هذا الاتجاه إله واحد، أرفع الموجودات وأعلاها، ليس مركباً كنز كيبنا، ولا يفكر مثلنا، وهو ثابت، كله فكر، وسمع، وبصر يحرك الكل بقوة عقله، بلا تعب ولا مشقة وجميع العوالم في قبضة يده، ولا شريك له، بل هو الواحد المتصف بجميع صفات الكمال.

وهذا الإله هو والعالم شيء واحد، والموجود شيء واحد وطبيعة واحدة، وعالم واحد، وأن هذا العالم هو الله.

وبذلك يميل إلى مذهب وحدة الوجود، أو مذهب الحلول(٢).

٤- تأثير هذه الملامح فيما بعد:

---

(١) أنظر علم التصوف ١٧٧.

(٢) أنظر في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٦٥ : ٧١.

نرى أثر تلك الملامح العرفانية في هذا الاتجاه واضحاً في الملامح العرفانية الآتية بعد بتثبيت.

مذهب وحدة الوجود أو مذهب الحلول.

٤- الاتجاهات العرفانية عند الطبيعيين المتأخرين:

هذا الاتجاه بضم النقاط الآتية:

١- مفكروا هذا الاتجاه:

- أنبادوقليس ٤٩٠ – ٤٣٠ ق . م.
- ديمقريطس ولد ٤٧٠ ق . م.
- انكساغوراس ٥٠٠ – ٤٢٨ ق . م.

٢- فلسفة هذا الاتجاه العرفاني:

يدور هذا الاتجاه العرفان حول الكثرة الحقيقية. ولكن تعددت الآراء حول تلك الكثرة.

- الماء، الهواء، النار، التراب، وهذا رأي أنبادوقليس.
- ذرات متجانسة غير متناهية – الجوهر الفرد ديمقريطس.
- مواد كثيرة متباينة بمقدار ما في الكون من مواد إنكساغوراس.

٣- الملامح العرفانية لهذا الاتجاه:

تتلخص في:

- تأليه القوى الطبيعية[١].
- أن هذه القوى قديمة.
- وحدة الوجود.
- تأليه البشر في بعض الأحيان.
- ادعاء النبوة.
- تطهير النفوس عن طريق الدور وهو الوجود بعد العدم.
- والعدم بعد الوجود وهذا هو التناسخ[٢].

٤- تأثير هذه الملامح فيما بعد:

---

(١) أنظر في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٧٢ : ٨٠ بتصرف شديد.

(٢) أنظر تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٨.

أنظر الملل والنحل للشهرستاني جـ ٢، ص ٦٨ أنبادوقليس.

لقد أثرت هذه الملامح العرفانية على الملامح العرفانية فيما بعد في:

- وحدة الوجود. – ادعاء النبوة عن طريق الرياضة.
- التناسخ. – قدم العالم.

– أثرت فيما بعد – فيما يرى بعض الباحثين، في الفيلسوف الصوفي الأندلسي "ابن مسرة".

وبذلك تكون قد انتهينا من المطلب الأول من المبحث الأول.

المطلب الثاني: الاتجاهات العرفانية عند أرسطو:

(أ) المعرفة قبل الحضارة اليونانية:

إن المعرفة – ومنها ملامح العرفانية – قبل الحضارة اليونانية كانت تسير سيراً طبيعياً.

١– مسائل المعرفة المحددة.

- فقد كان هناك ميدان للحس يجول فيه كيفما يشاء.
- وهناك ميدان للعقل يبحث فيه كيفما يريد.
- وهناك عالم ما وراء الطبيعة وهذا من اختصاص الوحي أو البصيرة.

٢– ميادين المعرفة محددة كذلك:

وكانت ميداين المعرفة محددة تحديداً كاملاً، لا لبس فيها ولا غموض إذن كانت المعرفة قبل العصر اليوناني محددة فيما يتعلق بالوسائل وكانت محددة فيما يتعلق بالموضوعات.

(ب) المعرفة بعد الحضارة اليونانية:

حينما نشأت الحضارة اليونانية، لم تكن هذه الحضارة مرتكزة على دين صحيح، ولم تكن مستقرة على دعائم من النصوص المقدسة الثابتة من أجل ذلك.

بدأت الأمور تختلط، وبدأت الحدود تزول بين ميادين المعرفة، وبدأت بالتاليـ تضطرب الأمور فيما يتعلق بأدوات المعرفة.

فأدخلت العقل في مسائل ما وراء الطبيعة، وحكمته فيها أي إن إدخال العقل في مسائل ما وراء الطبيعة والأخلاق.

انحراف يؤرخ بالعصر اليوناني[١].

والفكر اليوناني فكر وثني، لأنه يصدر عن العقل لا عن الوحي، وكل فكرة تصدر عن العقل لا عن الوحي في عالم ما وراء الطبيعة – أي في عالم العقيدة – إنما هي فكرة وثنية، وأنها فكرة لا حق لها في الوجود، لأن علم العقيدة إنما هو من اختصاص الله – بينه على لسان رسله[٢].

ولقد سار معظم المفكرين على هذا النمط – وإن كان الخير لا يعدم كله في تجريد التفكير فيما وراء الطبيعة؛ أو الحقيقة الإلهية، وما يحيط بها غيب إلى أن وصل هذا الفكر مداه على يد أرسطو.

أرسطو – أرسطو طاليس ٣٨٥ : ٣٢٢ ق . م:

ذلك الرجل الغريب الذي شغل العالم بنظرياته في الألوهية والطبيعة والفلك. والنفس، والشعر – وغير ذلك.

وكان ممثلاً خير تمثيل لذلك اللون المشهور من الفلسفة اليونانية، وهو تحكيم العقل في ما وراء الطبيعة – بكل انحرافاته بعزله إلهه عن العالم، والقول بقدم العالم[٣].

إن أرسطو بعمله هذا يعتبر لسان – الفكر اليوناني في ما وراء الطبيعة والأخلاق القائم على العقل، مقدماته ونتائجه.

وأصبح علماً في كل زمان ومكان وفكر من بعده – على كل نزعة في البحث فيما وراء الطبيعة والأخلاق تتخذ من العقل أساساً[٤].

١ – فلسفته:

لقد كانت الموجودات الحقيقية قبل أرسطو هي المثل وإن الموجودات المحسوسة ليست إلا أشباحاً وخيالات صيغت على نمط مثلها، وليس لها وجود حقيقي.

---

(١) أنظر المنقذ من الضلال، ص ٢٤٩ بتصرف يسير.

(٢) أنظر التوحيد الخالص، أو الإسلام والعقل للإمام الراحل الشيخ عبد الحليم محمود ص ١٤٦.

(٣) علم التصوف، ص ١٧٧.

(٤) التوحيد الخالص، ص ٥٧.

إذا بأرسطو يذهب إلى أن هذه الكليات – المثل – ليس لها وجود حقيقي وما هي إلا مفاهيم ينتزعها العقل من الموجودات الحقيقية وهي المحسوسات، وليس للكليات إلا الوجود العقلي فقط[١].

كما يذهب إلى أن الموجودات المحسوسة موجودات حقيقية بجوهرها وماهيتها، وأنها نقطة البداية في كل فكر وعليها مدار التجربة، تدرك بالمشاهدة لا بالفكر[٢].

٢- الإله عند أرسطو:

نظر أرسطو في الكون فرأى أنه في تغير مستمر، وحركة دائبة وهذه الحركة لا يمكن أن تكون من ذات المتحرك بل هي من محرك خارج عنه، وهذا المحرك الخارج إن كان بدوره متحركاً فلابد أن يكون له محرك آخر وهكذا ...

حتى يصل إلى النهاية إلى محرك ثابت يمد بالحركة كل ما عداه وهو منزه عنها، وهذا الكائن هو العلة الأولى لجميع المعلومات والحركات، وهي العلة التي تؤثر ولا تتأثر وتخضع الحركات لناموسها ولا تخضع هي للحركات.

إذن للكون إله واحد منزه عن الزمان، والمكان، والتغير، والنقص، والتأثر بغيره.

غير أن أرسطو يرى أن المحرك الأول للعالم يجب أن يفهم على أنه العلة الغائبة بمعنى أنه لا يحرك الشيء يدفعه من خلفه دفعاً ميكانيكياً؛ لأن هذا التحرك يقتضي المماسة وهي من شأن الأجسام وهذا الإله لا يعقل إلا ذاته فقط[٣].

ويترتب على رأي أرسطو هذا:

١- أن الله لا يعلم العالم وأن الأشياء توجد وتعدم دون أن يريد الله لها ذلك أو يدري بشيء منها[٤].

وبذلك يكون قد عزله الله تعالى عن العالم ونفى علم الكون عن الله تعالى.

---

(١) في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٥٣ وما بعدها.

(٢) أنظر المرجع السابق، نفسه ص ١٥٤.

(٣) أنظر في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٦٠ بتصرف.

(٤) أنظر مشكلة الألوهية د. محمد غلاب ص ٣٧.

٢- نفيه عن الله التدبير الإلهي[١].

٣- الملامح العرفانية عنده:

تتلخص في:

- وسائل المعرفة عنده هي المحسوسات.
- مذهب الحلول.

يقول أرسطو بتدرج العالم في الترقي وأنه يكون سلماً بعضه أرقى من بعض، وأن كل نوع من أنواع الموجودات إنما يأخذ حظه من الرقي بمقدار ما يحويه من قرب إلى الصورة المحضة – العقل المحض – فكلما كان أقرب إلى العقل الخالص كلما كان أرقى مما هو دونه في القرب.

وهو يرى أن الكائن الأول كان عقلاً خالصاً – صورة محضة – ولكنه لم يتمتع بالوجود الحقيقي الفعلي، فأخذ يمثل نفسه في النبات ثم في الحيوان، ثم حقق وجوده في الإنسان وسيظل يرقى إلى وجود خالص من شائبة، إلى الصورة المحضة إلى الله.

فهو بهذا يرى أن الله حال في كل شيء، وأن كل شيء مظهر له، حيث إن كل شيء في العالم يسعى لتحقيق العقل، وله منه حظ قليل أو كثير.

فأرسطو يميل بهذا الرأي إلى القول: بمذهب الحلول[٢].

٤- تأثير ملامحه العرفانية:

لقد أثرت هذه الملامح فيما بعد على الملامح العرفانية في المستقبل.

١- عزل الإله عن العالم وأنه يسير بقوانين آلية دون علم الله.

٢- القول بقدم العالم.

٣- هو أول من وضع علم المنطق.

٤- مذهب الحلول.

٥- أهم أثر في زعامته لذلك الاتجاه الذي يعتمد على الفلسفة العقلية كأسلوب للتطهير.

---

(١) مشكلة الألوهية ص ٣٨.

(٢) أنظر في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٦٨.

٦- اتهام بعض الصوفية فيما بعد بالتأثر به[١].

وبذلك نكون قد انتهينا من المبحث الأول في الفصل الثالث وننتقل إلى المبحث الثاني وهو ما يهمنا في هذا الفصل.

المبحث الثاني
التصوف العرفاني الروحي

لقد اختزلنا الحديث عن الملامح العرفانية في التصوف الطبيعي الوثني والعقلي المنحرف اختزالاً نظراً لوجود الملامح العرفانية فيه بقلة وبندرة وتعتبر كمقدمة ضرورية لكي نصل بها إلى الاتجاهات الأخرى التي هي أقرب إلى العرفان والروحية.

وهو الاتجاه النفسي الذي تتجلى الألوهية فيه في نفوس المتنسكين تجليات فردية تشعر كل واحد منهم على حدة وفي داخل روحانيته الشخصية بذلك الوجود النوراني الباهر الذي يشع في دخيلة النفس فيغمرها في حالة غير عادية لا تتمشى مع أساليب العقل السائد ولا مع الحجج الفلسفية[٢].

وهذا ما سنبحثه في المبحث الثالث.

تحت المطالب الآتية:

١- المطلب الأول الديانات السرية.

٢- المطلب الثاني سقراط.

٣- المطلب الثالث أفلاطون.

٤- المبحث الرابع فيثاغورث.

٥- المطلب الخامس الرواقيون.

---

(١) أنظر الرمزية عند محي الدين بن عربي ص ١٧ نقلاً عن علم التصوف ص ١٧٨.

(٢) أنظر مشكلة الألوهية د. غلاب ص ١٢٦ بتصرف يسير.

المطلب الأول
الديانات - الاتجاهات السرية

أشهرها اثنتان هما:

أ – نحلة "أسرار ألوسبس".

ب- الأورفية.

وما دامتا سريتين فالمعلومات عنهما تكاد تكون نادرة وفي طي الكتمان والسرية.

أ – نحلة "أسرار ألوسيس".

مبادؤها: على حسب ما تيسر لنا – كانت تعبد – ديمتر – كرمز – يعقدون لهذا الإله حفلات الموسيقى(١).

الغاية من ذلك: تحقيق حالة الجذب الروحي.

تأثيرها فيما بعد: ما نراه الآن في بعض مدعي التصوف من الضرب بالدف والمزمار والرقص إلى غير ذلك.

ما نراه الآن في بعض الأماكن المخصصة لعبادة غير المسلمين من الموسيقى إلى غير ذلك.

ب- نحلة الأورفية:

لقد ذاعت في إيطاليا في القرن السادس الميلادي وهي منسوبة على شخص ما زال مجهولاً من أهل – تراقيا – هو "أورفيوس".

الملامح العرفانية عندها:

١- تتوجه بالعبادة إلى "ديسميوس" الذي تحول من إله للترف إلى إله للتحضية.

٢- تؤمن بالعدالة.

٣- تؤمن بالعالم الروحي.

٤- تؤمن بالطهارة الباطنة غير المقصورة على القرابين والطقوس المختلفة.

٥- اتجهت وانحرفت – فيما بعد – إلى القول بالتناسخ أو ما يسمى عندهم "دولاب الولادات".

---

(١) أنظر علم التصوف ص ١٧٨ بتصرف.

تأثير ملامحها العرفانية فيما بعد:

لقد وجهت تأثيرها الفلسفية وجهتها العقلية الروحية على الذين أتوا من بعدها مثل "سقراط" وأفلاطون – و "فيثاغورث" الذين كان لهم تأثيرهم الخطير في الفكر البشري، بما فيه الفكر الإسلامي والملامح العرفانية فيه بطبيعة الحال(١).

أثرت فيما بعد وأصلت مبدأ "تناسخ الحياة "دولاب الولادات". يقول الإمام الراحل الشيخ الدكتور/ عبد الحليم محمود عن "الأورفية" إن "سبل تزكية النفس – التنسك والعبادة والذكر وهذا من أجل المعرفة: سبيل فهمه الكثير من الألمعيين في العصر اليوناني، ومما لا شك فيه، أن بذوره الأولى جاءتهم من الشرق.

لقد كانت فرق الأورفية في العصر اليوناني الأول تمثل هذا الاتجاه تمثيلاً واضحاً"(٢).

المطلب الثاني

اتجاه سقراط ٤٦٩ – ٣٩٩ ق . م

حياته: سقراط بن سفرنيقوس الحكيم الفاضل الزاهد، اقتبس الحكمة من فيثاغورس وأرسالوس، واقتصر من أصنافها على الإلهيات فالأخلاقيات، واشتغل بالزهد ورياضة النفس، وتهذيب الأخلاق، وأعرض عن ملذات الدنيا، واعتزل إلى الجبل وأقام في غاربه.

نهى الرؤساء الذين كانوا في زمانه عن الشرك وعبادة الأوثان، فثاروا عليه وأجبروا ملكهم على قتله، فحبسه الملك إلى أن مات(٣).

وقد ربط بين العلم والعمل، وجند نفسه لمحاربة السوفسطائية ولم يتابعهم في نزعتهم النشكية الرامية إلى إنكار حقائق الأشياء.

وأهم ما يميزه، حقيقة هو سلوكه العملي تبعاً للقاعدة العرفانية التي اتخذها شعاراً له والموجودة على "معبد دلف" – اعرف نفسك بنفسك"(٤).

الملامح العرفانية عنده:

---

(١) المرجع السابق نفسه، ص ١٧٨.

(٢) التوحيد الخالص – الإسلام والعقل ص ١٢٦.

(٣) أنظر الملل والنحل للشهرستاني – جـ ٢ ص ٨٤ بتصرف: ج٢، ص ٨٣: ٨٨ نفس المرجع السابق.

(٤) أنظر علم التصوف ص ١/٩ بتصرف.

- الربط بين العلم والعمل.
- الزهد ورياضة النفس وتهذيب الأخلاق والعزلة.
- وسيلة المعرفة عنده العقل.

كانت وسيلة المعرفة عند السوفسطائيين الحس ويقولون: إن الإحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة، ولما كانت المحسات متحولة متغيرة فالمعارف – كذلك – نسبية والشخص هو مقياس الحقيقة.

وسقراط قد نصب نفسه حرباً على السوفسطائيين وعلى مبدئهم فهو يرى: أن لكل شيء طبيعة وماهية هي حقيقته يكشفها العقل وراء المحسسات الجزئية، ويعبر عن هذه الماهية بالحد ورأى أن غاية العلم هو إدراكه هذه المعاني الكلية المشتركة.

ولما كان العقل عاماً ومشتركاً بين الناس جميعاً وكان هو الوسيلة للمعرفة، وبه يبعد الشخص الصفات العارضة عن الصفات الذاتية المشتركة، كانت أحكامه صحيحة يتفق الناس عليها، وذلك لأنهم يرون الحقائق كلها بمنظار واحد وهو العقل الذي لا يختلف في حقيقته عند جميع الأفراد.

وبذلك أبطل سقراط رأي السوفسطائيين الذين حصروا طريق المعرفة في الإحساس. وفي الوقت ذاته اعتمد على العقل وبين أنه الوسيلة المأمونة للوصول إلى الحقيقة وجعل الحواس مقدمة تساعد العقل في وظيفته، وأن أخطأت الحواس في بعض الأحيان فالمدرك لهذا الخطأ هو العقل ذاته[1].

إن سقراط جعل العقل هو الطريق المأمون للوصول إلى الحقيقة والحواس لم يغلها بل جعلها وسيلة تساعد العقل في عمله ومهمته.

إذن وسيلة المعرفة عنده هي العقل.

وهذا هو رأيه في المعرفة جعله تمهيد التحقيق الفضيلة.

---

(١) أنظر تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٠٠ بتصرف يسير.

- الفضيلة:

أقام سقراط المعرفة عنده على أساس الإدراكات العقلية دون الإدراكات الحسية ولم يجعل رأيه في المعرفة غرضاً في ذاته ومقصوداً لنفسه، بل جعله وسيلة لمقصده الأعلى وهو (الأخلاق العملية) الفضيلة.

وسقراط جعل العلم الجدير بالبحث والمعرفة هو العلم بالإنسان والعلم بالنفس الإنسانية لأجل تقويمها[١]، تطبيقاً للقاعدة التي اتخذها شعاراً له "اعرف نفسك بنفسك".

وقد طبق سقراط رأيه في المعرفة على الأخلاق، فأخذ يستقرئ الفضائل الجزئية حتى يصل إلى تعريف الفضيلة وبيان حقيقتها أخذ يسأل نفسه ما الخير وما الشر؟ وما العدالة وما الظلم؟ واستطاع أن يجمع الصفات الذاتية، وإبعاد الصفات العارضة ليصل بذلك لبيان ماهية الفضيلة، وأن يوجد المقياس العام الذي نقيس به جميع أعمالنا وهو – الضمير[٢] – فنميز بين خيرها وشرها.

ولم يرد سقراط بمعرفة الإدراك العقلي للفضيلة، إلا أن يتمكن من السلوك سلوكاً فاضلاً ينطبق على الفضيلة كما حددها العقل.

تأثير تلك الملامح فيما بعد:

تجلى هذا التأثير في:

- الزهد، والعزلة، ورياضة النفس.
- وسيلة المعرفة العقل، أدى فيما بعد إلى اعتماد من بعده على العقل كلية والاغترار به.

---

(١) أنظر لمعرفة رأي سقراط في النفس الإنسانية الملل والنحل للشهرستاني جـ ٢/ ٨٥ ، ٨٧.

(٢) مصطلح الضمير نحن – المسلمين – لا نؤمن به وهو خرافة – اتخذها الغرب المعاصر بدل مصطلح الألوهية لأنه على حسب فهمهم القوة التي يحتكم إليها كل فرد في تقدير الأعمال والحكم عليها بالخير أو الشر عندنا نحن المسلمين "أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

أنظر الرد على مصطلح الضمير في كتاب الأخلاق الإسلامية ومنها محاضرات في علم الأخلاق د. محمد ضياء الكردي ص ٤.

وأنظر الرد على وجهة نظر سقراط في المعرفة والفصيلة في تاريخ الفلسفة اليونانية د. عوض الله حجازي ص ١٠٢.

أنظر خرافة الضمير التوحيد الخالص ص ٧٩ أ.د/ عبد الحليم محمود.

- ظهور مصطلح الضمير عند الغرب كمصطلح لقياس الخير والشر وله خطره الخطير.
- تأثر بعض مدعي التصوف بشعاره "إعرف نفسك بنفسك تعبروا عنها بحديث شاع في الأوساط الصوفية وهو "من عرف نفسه عرف ربه"[١].

المطلب الثالث

اتجاه أفلاطون ٤٢٧ : ٣٤٨ ق . م

حياته:

أفلاطون بن أرسطن بن أرسطوقليس من أثينية معروف بالحكمة والتوحيد.

أخذ العلم من سقراط، وطيماوس، وغيرهما – وضم غليه العلوم الطبيعية والرياضية[٢].

ولد في أثينا حوالي عام ٤٢٧ ق . م من أسرة كبيرة كان لها شأن كبير في السياسة وفي الحزب الأرستقراطي وقد تربى تربية طيبة وتثقف ثقافة عالية فقرأ لشعر اليونان وفلاسفتها، واشتغل بالرياضة، وأخذ عن اتباع هيراقليطس فلسفتهم، ثم اتصل بسقراط وتتلمذ عليه وصار من التلاميذ المخلصين له، وشغف به وبعلمه إلى حين وفاته.

وبعد وفاة أستاذه غادر أثينا متوجهاً إلى "ميغاري" ومكث بها ثلاث سنوات، اتصل بصديقه وزميله في التلمذة إقليدس ثم انتقل أفلاطون إلى مصر واتصل بالمدرسة الكهنوتية في عين شمس واستفاد من المصريين في حكمهم وأخلاقهم وبعد أن مكث مدة في مصر سافر إلى وطنه الأول أثينا – ثم اتجه إلى إيطاليا حوالي عام ٣٨٨ ق . م للاطلاع على الفيثاغوريين ثم قبض عليه وبيع رقيقاً فافتداه رجل

---

(١) قال ابن تيمية موضوع وقال النووي قبله ليس بثبات، وقال أبو المظفر ابن المعاني في القواطع أنه لا يعرف مرفوعاً، وإنما يحكي عن يحيى بن معاذ الرازي، يعني من قوله وقال ابن الغرس لكن كتب الصوفية مشحونة به يسوقونه مساق الحديث وللجافظ السيوطي تأليف لطيف سماه القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه وقال النجم وقع في أديب الدين والدنيا للباردوي عن عائشة رضي الله عنها سئل النبي ρ من أعرف الناس بربهم؟ قال أعرفهم بنفسه.

أظن كشف الخفا ومن الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس جـ ٢، ٢٦٢ وإن كان الحديث موضوعاً إلا أن المعنى صحيح على ضوء قوله تعالى: "وفي أنفسكم أفلا تبصرون".

(٢) أنظر الملل والنحل للشهرستاني، جـ ٢، ص ٨٨ : ٩٤.

كان يعرفه وبعد هذه الحادثة رجع إلى أثينا مرة ثانية واستمر بها إلى أن وافته المنية عام ٣٤٨ ق . م[١].

الملامح العرفانية في اتجاه أفلاطون:

تصوره للإله:

يخبرنا الشهرستاني عن تصور أفلاطون للإله فيقول (كان يقول: "إن للعالم محدثاً مبدعاً، أزلياً، واجباً بذاته، عالماً بجميع معلوماته على نمت الأسباب الكلية.

كان في الأزل ولم يكن في وجود رسم ولا طلل إلا مثالاً عند الباري تعالى، ربما يعبر عنه بالهيولي، وربما يعبر عنه بالعنصر"[٢].

وأضفى على اسم الإله أبهى أنواع العظة والإجلال، فتارة يسميه "المبدع" وأخرى يدعوه "أبا السكون" وثالثة يطلق عليه اسم "كتاب القداسة" ورابعة يسميه "الشمس المعنوية" أو "مليكنا الأعلى" أو "زوس الحقيقي" أو "الحي بين الآلهة" مما جعل بعض المفكرين يطلق عليه "أفلاطون الإلهي"[٣].

- لقد نزع أفلاطون منزعاً صوفياً في فكره حيث.
- إن النفس عنده تهبط إلى الجسد الذي يمثل سجناً لها.
- اعتبر الإنسان مركباً من عنصرين مختلفين يسمى الأول للمعرفة، ويمنع الآخر إدراكها، لأنه مر در الأهواء والشهوات والمخاوف والأوهام.
- لابد أن تمزق النفس حجب الجسد وتتخلص من عبوديته كما يتسنى لها إدراك المعرفة، لأن الروح بذاتها هي التي يجب أن تشهد الأشياء في ذواتها.

فإذا تخلصنا من صفقاة الجسد استطعنا أن نتصل بما هو نقي، وأدركنا نور الحقيقة الصفي، الذي لا يقترب منه العسكر، والتطهير من العسكر، يتم بعزل الروح عن الجسد[٤]، عن طريق التناسخ فهو أيضاً اعتنق "التناسخ" وقال به.

---

(١) أنظر في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢١٠.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني جـ ٢ ص ٨٨.

(٣) أنظر مشكلة الألوهية د. غلاب ص ٢٦.

(٤) التصوف العربي ص ٤٤.

نظرته الخطيرة في المثل – المعرفة:

ترتبط نظرية المثل الأفلاطونية بنظرية المعرفة السقراطية ارتباطاً وثيقاً، إذ تعتبر الأخيرة أساساً للأولى.

لقد انتهى سقراط – كما بينا ذلك سابقاً – إلى القول بأن المعرفة الصحيحة هي تلك المدركات الكلية المعقولة أو بعبارة أوضح: هي تلك الصور الكلية العقلية التي يصل إليها العقل بعد النظر في المحسوسات وتحليل صفاتها واستبعاد ما هو جوهري مشترك.

وحينما جاء أفلاطون وافق أستاذه سقراط فيما ذهب إليه إلا أن سقراط وقف عند هذا الحد، بينما تابع أفلاطون السير إلى الأمام حتى انتهى به المطاف إلى القول بنظرية المثل.

لقد وقف سقراط عند حد تحديد المعرفة الصحيحة بتلك الصور الكلية المطابقة للواقع التي يصل إليها الإنسان بعقله وهذه الصور لا وجود لها إلا في العقل وحده ولم يعتبر لها وجوداً معيناً في الواقع الخارجي.

لم يرتض أفلاطون رأي أستاذه في هذا وقرر أن تلك الصور الكلية المعقولة لا تكون علماً صحيحاً. ولا معرفة حقة إلا إذا كانت لها حقائق خارجية، مستقلة عن الإنسان، لها وجود في الواقع، مجردة عن المادة، بحيث تكون تلك الصور الكلية العقلية مرآة لها ومنطبقة عليها.

فالإدراكات الكلية التي يصل إليها العقل هي أسماء لها مسميات في الواقع، وإلا لكانت وهماً من الأوهام، واختراعاً من اختراعات الخيال.

واستدل على ذلك بأن الفكرة الصحيحة هي ما كانت مطابقة للواقع.

فإذا قلنا أن الشمس طالعة مثلاً، فإن هذا الحكم يكون صحيحاً إذا كانت طالعة في الواقع، أما إذا لم تكن طالعة فإن هذا الحكم يكون باطلاً.

ويعتقد أفلاطون أن الإدراك الكلي العقلي هو الإدراك الحق والعلم الصحيح فلابد أن يكون – أيضاً مطابقاً لما في الواقع.

وبعبارة أوضح: لابد أن يكون لهذه الصور العقلية الكلية مسميات حقيقية، واقعية، خارجية، تطابقها تمام المطابقة، وإلا لما كانت علماً صحيحاً.

مثال ذلك: إذا نظرنا في أفراد الإنسان الممثلة في محمد، سيد، محمود، خالد، يحيى، وجدناً كلاً من هذه الأفراد يشتركون في كونهم جسماً نامياً ومتحركاً بإرادته وهي ما يعبر عنه بقولنها – حيوان.

ووجدناها كذلك – تشترك في التفكير – بالقوة – المعبر عنه بالنطق وبجانب هذه الصفات الجوهرية المشتركة بين جميع الأفراد نجد صفات أخرى عارضة فالنوم، المرض، المشي، فنستبعد الصفات العارضة، ونستبقي الصفات الجوهرية، مر تبين إياها في جنس وفصل فيصبح التعريف حينئذ تعريفاً بالحد التام، حيث يكون تعريف الإنسان، الحيوان الناطق، وكل من الحيوان، الناطق مدرك كلي عقلي منتزع من أفراد الإنسان الحسية بعد تجريدها من المادة، فهو صورة عقلية كلية مجردة عن المادة.

هذه الصورة الكلية التي هي التعريف هي العلم الصحيح، وما دامت هي العلم الصحيح فلابد أن تكون لها حقيقة خارجية مجردة عن المادة، لابد أن لها كيان خارجي مستقل، بحيث تكون تلك الصور مرآة لها، ومنطبقة عليها وإلا لكانت علماً باطلاً، وخيالاً مخترعاً.

هذه الحقيقة الخارجية المجردة التي تنطبق عليها الصورة العقلية هي ما يسميها أفلاطون بمثال الإنسان.

وهكذا بالنسبة لكل الكائنات كالحيوان، النبات، الجماد أو المعنويات كالبياض والجمال فكل ؟؟؟؟ هي حقائق مستقلة لها وجود في العالم الواقعي ومجردة عن المادة.

وأفلاطون يرى أن المثال، قد صيغ على نمطه ما هو مثال له، فمثال الإنسان هو تلك الحقيقة المجردة الكائنة في العالم المعقول، قد نظر إليه الصانع وصنع على نمطه أشخاص الإنسان المحسوسة.

إذن فوجود المثال سابق على وجود أفراده التي هي بالنسبة إليه كالمثال بالنسبة إلى صاحبه.

والمثل من أجل ذلك إذا وصفت بأنها موجودة كان ذلك وصفاً حقيقياً، بخلاف الأفراد التي تصاغ على نمطه فإنها إذا وصفت بالوجود كان ذلك وصفاً مجازياً فحسب.

وعلى ذلك:

فالمثل هي الموجودة على الحقيقة وأما المحسوسات فما هي إلا أشباح وظلال لتلك الموجودات الحقيقية أي أنها ظلال لمثل وأشباح لها(١).

أفلاطون قد استمد فكرته في نظرية المثل من ثلاثة عناصر هي:

١- أخذ فكرة الوجود المطلق المجرد عن المادة من – بارميندس – الإيليائي. وطبقها على المثل.

٢- وأخذ فكرة التغير المستمر من هيراقليطس وطبقها على المحسوسات.

٣- وأخذ نظرية المدركات عن سقراط.

وهذا يؤدي بالبداهة عنده إلى:

التدرج الهرمي في نظرية المثل:

يرى أفلاطون أن لكل شيء مثالاً – كما تقدم ويرى أن هذه المثل الكثيرة ليست منعزلة بعضها عن بعض، بل أنها أعضاء في مجموع هو كل لها، وهي في مجموعها تكون هرماً تبتدئ قاعدته بالأنواع القريبة من الأشخاص، وتنتهي قمته بأعلى الأجناس(٢).

اعتماد أفلاطون على أسلوب الرمز والتخييل والشعر والقصة ويبدو ذلك واضحاً في انشغاله بالتحضير الباطني للمعرفة، فجد له الصاعد في نظرية الحصول على المعرفة تدفع إليه قوة باطنة، ولا يقتصر على بغية الوصول إلى الوضوح الذهني بل انتظاراً للحظة إشراق.

---

(١) أنظر في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٢٣ أنظر نظرية المثل، الملل والنحل للشهرستاني جـ ٢، ص ٨٩، في التصوف تأريخ وقضايا ص ١٢٥، أنظر نقد أرسطو لها ص ١٥٢ في تاريخ الفلسفة.

(٢) من أراد الاستزادة في هذا وبيان اضطراب أفلاطون في تحديد قمة أعلى الأجناس مثال المثل هل هو الله أو غيره فلينظر في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٢٤ (صفات المثل – عناصر موجودة بنفسها، عامة لا خاصة، مجردة عن المادة، أزلية لا تفتي معقولة).

الخير الذي يجمع بين الحق والجمال، وهو علة لنفس الأوصاف المنعكسة في العالم، ونفس العالم الكلية، ومادته الأصلية العامة.

- سبق النفس البدن[١].
- التناسخ.
- الخلود.
- الحب المتعلق بالجمال المطلق.
- التشبه بالله كطريق للتخلق ومعظمها نظريات خطيرة[٢].
- الفضيلة عنده تكون في النظام والتناسب بين قوى النفس الإنسانية الثلاث القوة العاقلة، والقوة الشهوانية، والقوة الغضبية.

فهو يرى أن الفضائل ثلاث تنشأ عن اعتدال هذه القوة وانسجامها مع بعضها وعدم انحرافها هذه الفضائل هي:

١- فضيلة الحكمة تنشأ عن القوة العاقلة إذا اعتدلت ولم تخرج وتتحرف عن طريقها المرسوم لها.

٢- فضيلة الشجاعة تنشأ عن اعتدال القوة الغضبية، والتزامها الحد الواجب عليها.

٣- العفة وهي تنشأ عن اعتدال القوة الشهوانية والتخفيف من أهوائها ولذاتها.

إذا اعتدلت هذه القوى الثلاث، وحصل الانسجام وبينها، تحقق في النفس النظام والتناسب تسمى هذه الحالة بالعدالة[٣].

وقد أثر أفلاطون في تلاميذه تأثيراً بالغاً فكان يصطفي منهم ذوي النفوس الشفافة والشعور المرهف، وهم قلة قليلة، فيسلك بهم سبيل التنسك، كسبيل المعرفة[٤].

تأثير الملامح العرفانية الأفلاطونية على ملامح من بعده:

---

(١) أنظر الملل والنحل للشهرستاني جـ ٢، ص ٩٢.

(٢) أنظر علم التصوف ص ١٨٠ بتصرف يسير.

(٣) أنظر في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٣١ بتصرف يسير.

(٤) أنظر التوحيد الخالص للإمام الشيخ عبد الحليم محمود ص ١٢٦.

- كل ما سبق أثر فيمن بعده.
- أثر في المجامع المسيحية وعلى المدارس المتأثرة به.
- وصل أفلاطون إلى العالم الإسلامي.
- بطريق غير مباشر عن طريق المجامع المسيحية.
- بطريق مباشر بترجمة جزئية لبعض محاوراته، كالجمهورية، السفسطائي الأمر الذي جعل معرفة المسلمين به معرفة جيدة.
- ساعد طابعه الروحي الشرقي الذي ورثه عن الأورفية الفيثاغورية وبلاد الشرق التي زارها على أن يكون له تأثير بالغ:

في:

- الفكر الإسلامي.
- في التيار الكلامي عند المعتزلة.
- في التيار الفلسفي عند الكندي والفارابي، وابن سينا، وأبي البركات.
- مدرسة أصحاب الهيولي القديمة، الإبران شهري، ومحمد بن زكريا الرازي.
- والتيار الأخلاقي الذي تزعمه ابن مسكويه.
- وزعم البعض تأثيره في التصوف الإسلامي وبخاصة لدى ابن مسرة، وابن العربي، وابن سبعين، والتستري وغيرهم ولاسيما في أفكار قضية المعرفة كتذكير طريق المعرفة والمثل، والتناسخ والتحضير الباطني.

ولكنهم تناسوا أن الاشتراك في التحضير الباطني – وغيرها – لا يعني أن النصوص الإسلامية لم تقره ولم تقرره بوضوح كما يمكن أن يكون للصوفية في بعضها مستند كالقول بنظرية المعرفة أنها تذكر، ولكن لم يقولوا – مطلقاً بالمثل، فعلى الرغم من القول بأزلية الممكنات في العلم الإلهي، إلا أنها ظلت دائماً جزئية لا كلية كما هي عند أفلاطون، أضف إلى ذلك أنهم تجنبوا خط النصوص الأفلاطونية أو على الأقل تفسيراتها، بين المثل والحق، ولم يبلغ بهم القول بالنظرية إلى القول بالنتائج كما فعل أفلاطون والأورفية[1].

المطلب الرابع

(١) أنظر علم التصوف ص ١٨١.

اتجاه فيثاغورث ٥٧٢ : ٤٩٧ ق . م

حياته: هو فيثاغورث بن منسارخس من أهل ساميا – جزيرة ساموس وكان في زمان سليمان النبي ابن داود عليهما السلام، أخذ الحكمة من معدن النبوة، وهو الحكيم الفاضل ذو الرأي المتين والعقل الرين يدعي أنه شاهد العوالم العلوية بحسه وحدسه، وبلغ في الرياضة إلى أن سمع حفيف الفلك ووصل إلى مقام الملك وقال: ما سمعت شيئاً قط ألذ من حركاتها ولا رأيت أبهى من صورها وهيئاتها(١).

رحل إلى كثير من بلدان العالم وتنقل في بلاد الشرق ومنها مصر الذي أقام فيها على رأي البعض اثنين وعشرين عاماً، يدرس الهندسة والفلك وعقائد قدماء المصريين ثم عاد إلى "ساموس" وطنه الأول ولكنه لم يلبث أن انتقل إلى "أفروطونا" في جنوب إيطاليا، وقد ذاع اسمه فيها، وعرف فيها بالفضل والعلم، وكون في هذه المدينة فرقة دينية وعلمية وسياسية حسب ميول الإنسان الطبيعية(٢).

وأنشأ مدرسة وكان التعليم فيها سماعاً وتلقيناً لا كتابة، كما كان التعليم سرياً يعاقب من يفشي هذا التعليم بالطرد من بينهم.

ومن هنا صعب على المؤرخين أن يضيفوا كل رأي إلى صاحبه، وإنما تكلموا على المدرسة بالإجمال، فما ينسب لهذه المدرسة من رأي إنما يضاف لهم كجماعة وفرقة معينة.

ملامح الفيثاغوريين العرفانية :

أهم الاتجاهات اليونانية العرفانية وأبعدها أثراً بعد الأفلاطونية، بعد أن كانت أحد المكونات الأساسية لها(٣).

كانوا – بعد الأورفية – يسيرون في طريق التنسك والعبادة والذكر وتؤمن أنه الوسيلة الصحيحة للوصول إلى علم الغيب.

لقد كان الجانب التنسكي، وكانت العبادة والذكر – على حسب فهمهم – وغير ذلك مما يتصل بوسائل استخلاص النفس به شيئاً عادياً في الفيثاغورية(٤).

---

(١) أنظر الملل والنحل للشهرستاني جـ ٢، ص ٧٤ : ٨٣.

(٢) أنظر في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٦٤.

(٣) علم التصوف ص ١٨٣

(٤) أنظر التوحيد الخالص، ص ١٢٦ بتصرف يسير.

ومن هنا اعتبر الحدس – بمعناه الإشراقي – أشرف منزلة من الحس والإدراك.

النفس جوهر مغاير للجسد، تنتقل من جسد إلى آخر، حيث يتم تطهيرها بالتحصيل العلمي والمعرفة.

إذن هي تؤمن بالتناسخ:

- الاعتقاد بخلود الروح ووحدة الكائنات، والروح تنتقل من كائن إلى آخر، وكل كائن يظهر ويتلاشى ثم يعود إلى الظهور في دورة مدتها ثلاثة آلاف سنة(١).
- فيثاغورث أول من نادى بالشيوعية قبل أفلاطون ولكنها شيوعية العلم فقد أباح اختلاط التلاميذ من الرجال والنساء.
- يرى بعض المؤرخين أن فيثاغورث هو أول من وضع لفظ – فلسفة إذ قال لست حكيماً، فإن الحكمة لا تضاف لغير الآلهة، وما أنا إلا فيلسوف أي محب للحكمة(٢).
- أضاف إلى وسائل التصفية أمرين علم الرياضة، علم الموسيقى، وبهذا فتح الباب لتصفية العلم والنظر.
- إليه يرجع الفضل في إرساء الأساس لعلم الرياضة.

وإن اتسمت الرياضة الفيثاغورية بنزعة رمزية عرفانية، حين تستخدم الحروف والأعداد من الروحانيات عن طريق الرمزية.

- الزهد والتنزه عن بعض الشهوات فقد كان فيثاغورث يحرم أكل اللحم، ويقتصر في طعامه على الخبز والعسل والخضر.
- اعتقدت اتصال النفس بالبدن تآلفاً عددياً، مع اختلاف طبيعتها وخلود النفس وأزليتها وخلاصها بالتطهر.
- أهم عقائدها التوحيد عن طريق العدد والتناسخ.
- هم أساس المعرفة التذكرية(٣).

---

(١) أنظر التصوف العربي محمد ياسر شرف ص ٤٢ بتصرف.

(٢) أنظر في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٦٢.

(٣) أنظر علم التصوف، ص ١٨٢.

تأثير الملامح العرفانية للفيثاغورمين على الملامح العرفانية – لمن بعدهم:

- وصلت الملامح العرفانية لهم وأثرت في المسلمين عن طريق السريان الذين نقلوا الكثير من الثقافات إلى العربية وأيضاً وصلت إليهم عن طريق الأفلاطونية الحديثة.
- يبدو هذا التأثير واضحاً عند الشهرستاني، وابن فاتك والقفطي، وابن أبي أصيبعة، وابن أبي السيد البطليوسي الفليسوف الأندلسي، وابن عربي الصوفي المسلم.

غير أننا لا نستطيع القول بأن مجرد استخدام أساليب الرمز العددي في توضيح بعض القضايا التي يختلف فيها اليونان عن المسلمين اختلافاً بيناً كالتوحيد، يعتبر تأثراً بالمعنى الحقيقي، ولم يذهبوا في تصفيتهم، إلى حد تحريم ما أحل الله، بل كان امتناعاً في بعض الأحيان، ردعاً للنفس وكسراً لشهوتها، وإتاحة للصفاء الروحي أن يحكم(١).

المطلب الخامس

الاتجاه الرواقي زينون ٣٣٦ – ٢٦٤ ق . م

لا يستطيع أي باحث أن يرد أجزاء الاتجاه الرواقي إلى كل واحد من أعلام هذا الاتجاه، على الرغم من كثرة ما كتبوه وألفوه مما لم يحفظ منه التاريخ إلا القليل.

حياة مؤسسها:

ولد – زينون – في – سيتيوم – من أعمال قبرص سنة ٣٣٦ ق . م كان أبوه من تجار قبرص، يختلف إلى أثينا بحكم عمله التجاري، ويحل منها كتب سقراط، فأكب ابنه على قراءتها ثم رغب في الاتصال بأصحابها ورحل على أثينا حوالي سنة ٣١٢ ق . م فدرس كثيراً من المدارس الفلسفية، ومن بينها فلسفة أفلاطون وأرسطو، وفي سنة ٣٠٠ ق . م أنشأ مدرسة في رواق مزخرف لذا دعى هو وأصحابه بالرواقيين.

وكان زينون – ذا شخصية فذة، استطاعت أن تكون موضع الإجلال والإكبار، لما امتازت به من جميل الصفات وسمو الأخلاق.

---

(١) علم التصوف ص ١٨٣.

وقد عمر طولياً دون أن يناله مرض أو تصيبه علة، ثم مات منتحراً في سنة ٢٦٤ ق . م[١].

الملامح العرفانية للاتجاه الرواقي:

هي مدرسة عجيبة من الناحية الموضوعية، تبدو لأول وهلة في ثوب مادي كريه، وتبدو في بعض الأحيان حاملة لبعض آثار العرفان. ولعل هذا راجع إلى أنها التصقت بعد أن تحول إلى رموز مادية انحدرت به إلى الوثنية والإلحاد وتتضح نظرتهم المادية في نظرتهم إلى المعرفة فهي عندهم مادية، وفي خلطهم بين الحق والعالم المادي، وذلك حين يصورونه كعقل كلي مثبت في الكون.

وإن كنا نرى بعض الظلال العرفانية في فلسفتهم الخلقية، إذ الغاية عندهم الاتصال بالعقل الكلي، أو بلوغ التناسق العقلي المثبت في الطبيعة[٢].

وحدة الوجود:

لم يكن للرواقيين مناص من أن – ديناميكيتهم – التغير – القائلة باشتمال كل جزء من أجزاء العالم على حياة كامنة أو ظاهرة هي طبيعة فيه غير متأثرة بأي شيء خارجي تنتهي بهم حتماً وبالضرورة إلى القول بوحدة الوجود.

ما دام العالم عندهم هو كائن حي مشتمل كالإنسان على جزء مدبر: وهذا الجزء هو نفس العالم أو الإله، ومع ذلك فهذه النفس لا نختلف في جوهرها عن جسم العالم ويترتب على ذلك: إن الله والعالم ليس إلا موجوداً واحداً.

وإذا كان الإله هو العلة الفاعلة العليا فإن كل ما عداه لا يعد وكونه بعضه انبثق عنه.

ولا ريب أن الرواقيين بذكرهم هذه البعضية في وضوح وبتصريحهم بأن روح العالم نار، هم يسجلون على أنفسهم مادية لا سبيل إلى الشك فيها، على أنهم لا يوارون في هذه المادية، إذ هم يعلنون أنه لا يوجد إلا المادة اللامحضة، وأن اللامادية المحضة هي ضرب من الخيال، وأن التماس ضروري للإيجاد[٣].

---

(١) في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٩٧.

(٢) علم التصوف ص ١٨٣.

(٣) مشكلة الألوهية د. غلاب ص ١٠٠.

أصل المعرفة عندهم:

المحسوسات أصل المعرفة عندهم والحواس طريق وصول صورها إلى العقل، ثم إن العقل ينتزع من هذه المحسوسات الجزئية إدراكات كلية لا توجد إلا في عقولنا نحن، وليس لها مدلول في خارج أذهاننا كما يقول أفلاطون في نظرية المثل.

- الحقيقة عندهم هي في المطابقة بين ما ينطبع في أذهاننا من آثار وبين الأشياء الخارجية نفسها.
- مقاس الحقيقة الذي يدلنا على أن هذا الإدراك مطابق للواقع هو ذلك الشعور القوي الذي ينبعث من الأشياء الخارجية المدركة بالحواس فيلقى في نفوسنا اعتقاداً بأن ما ندركه مطابق للواقع.

فالشعور وحده (لا الفكر) هو مقياس الحقيقة عندهم.

وهنا نرى الرواقيين يعودون الفهقري، حيث يرددون ما قاله السوفسائيون من أن مقياس الحقيقة هو الإحساس الشخصي(١).

- أساس الطبيعة عند الرواقيين هو "ليس في الوجود إلا المادة".
- ينكر الخلود.

تأثير الملامح العرفانية للرواقية على الملامح العرفانية فيما بعد:

١- تأثيرها في المسيحية:

لقد أثرت الرواقية تأثيراً بالغاً وخطيراً في المسيحية، وتسببت لها في أضرار قاتلة، وبخاصة في ميادين الأخلاق، نظرية الكلمة، الوجود الواحد(٢).

٢- انتقالها إلى المسلمين:

انتقلت الرواقية إلى المسلمين فقد كانوا يعرفون مفكريها "بأصحاب المظال" بطرق متعددة: عن طريق الاحتكاك الفكري بآباء الكنيسة، والديصانية والمصادر المكتوبة.

---

(١) في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٩٨.

(٢) الفلسفة الإغريقية ص ١٢٦، ١٥٦.

ولكن أهم مصدر يقدم لهم الرواقية سليمة الأفكار إلى حد ما هو "الآراء الطبيعية" الفلوطرخس.

كما يرى البعض أنه من المحتمل أن تكون بعض الكتب الرواقية قد نقلت في العصر الأموي اعتماداً على إشارة غامضة للشيرازي وردت في الأسفار الأربعة[١].

تأثيرها في الفكر الإسلامي:

أثرت تأثيراً واضحاً في التيار الفلسفي عند الكندي وابن سينا.

أثرت تأثيراً ظاهراً في التيار الكلامي عند شيوخ المعتزلة كالجاحظ والظلم، وبعض الأشعرية كالباقلاني والجويني.

أضاف البعض تأثراً التيار الصوفي بـ:

- التزمت الخلقي الرواقي.
- نظريات الكلمة أو النور المحمدي.
- التجسيم.

وبخاصة بعد الدراستين الهامتين اللتين قام بهما الدكتور/ علي سامي النشار، ويضع الرواقية مدرسة كبرى إلى جانب الأرسطية والأفلاطونية والإسلام[٢].

والدكتور/ عثمان أمين "في دراسته" الفلسفة الرواقية[٣].

ولكننا سوف نرى عند الحديث عن المصدر الإسلامي: التزام الصوفية في التخلق بالنصوص الدينية، وتمتعهم بتوحيد صاف يخلو من التشبيه والتجسيم تماماً، كما يخلو من التعطيل الذي وقع فيه المعتزلة والفلاسفة، وسوف يتبين لنا كذلك أوجه الخلاف في نظرية الكلمة[٤].

وأيضاً المدرسة الأبيقورية ومؤسسها أبيقور ٣٤١ – ٢٧٢ ق . م لها نفس الاتجاه[٥].

---

(١) أنظر علم التصوف ص ١٨٤.

(٢) نشأة المكر الفلسفي ج١، ص ١٥٢ (نقلاً عن كتاب علم التصوف ص ١٨٤).

(٣) الفلسفة الرواقية ص ٢٩٤، ٢٤٠ (نقلاً عن كتاب علم التصوف ص ١٨٤).

(٤) علم التصوف ص ١٨٥.

(٥) أنظر بالتفصيل في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٨٦.

إلا أن هناك فروقاً بينهما تتلخص في:

كانت المدرستان على طرفي نقيض – إذا تقول الرواقية بوحدة الوجود، وبقانون ضروري أو عقل منبث في الكون وتتلمس أساس الأخلاق في حرية الإرادة، وتعين لها قانوناً هو الواجب، واجب المطابقة بين الإرادة الفردية والإرادة الكلية، وتضع السعادة في عبادة العقل الكلي.

فهي مدرسة عقلية على الرغم من ماديتها ومدرسة فضيلة وشجاعة.

بينما تقول الأبيقورية بكثرة الموجودات وتدعمها لفعل الصدفة دون ضابط ولا قانون وتضع السعادة في اللذة وتجعل قانون المنفعة الأخلاق المنفعة الذاتية، وتقصي الآلهة خارج العالم، وتنكر دعاءهم.

فهي مدرسة مادية بكل ما في هذه الكلمة من معنى ومدرسة لذة ودعة إلا أن المدرستين تتفقان في المادية وإنكار الخلود.

فتبدو الأبيقورية أكثر تمشياً مع نفسها إذ تستبعد القانون والعقل والواجب والفضيلة، وهذه المعاني لا تستقيم إلا في مذهب روحي.

وتبدو الرواقية ضعيفة إذ تأخذ على نفسها السمو بالإنسان فوق المادة والحياة وهي لا تملك غيرها[1].

وبذلك نكون قد انتهينا من المبحث الثاني،،،

(١) في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٤.

المبحث الثالث
التصوف التوفيقي

تصوف الأفلاطونية الحديثة والتصوف التوفيقي – الشرقي والغربي. وسنتناول في هذا المبحث مطلبين.

المطلب الأول
الملامح العرفانية عند الأفلاطونية الحديثة

كان للأفلاطونية الحديثة ثلاثة فروع: أحدها بالإسكندرية، والثاني الفرع السوري – الصوري – والثالث الفرع الأثيني[١].

ظهرت الأفلاطونية الأولى – في مدينة الإسكندرية في العصور الأولى لميلاد المسيح وإنما سميت بهذا الاسم، لأنها وليدة تعاليم أفلاطون، وتجديد لآرائه، وإن لم تحافظ عليها.

وهي مدرسة وثنية، تفلسفت باليونانية وعلى طريقة اليونان، أسسها "أمونيوس"، وقد ولد من أبوين نصرانيين، ولكنه اعتنق الدين اليوناني القديم، وهو أول من حاول من الإسكندريين التوفيق بين آراء أفلاطون وأرسطو، وهو لم يدون آراءه، ولم يؤلف أي كتاب ومات سنة ٢٤٢م ومن أشهر مؤيديه، ومعتنقي مذهبه تلميذه[٢].

<u>أفلوطين – الشيخ اليوناني:</u>

ويعتبر مؤسس المذهب، وقد ولد في سنة ٢٠٥م في ليقوبوليس – أسيوط، ورحل إلا أستاذه حوالي سنة ٢٣٣م ولزمه إحدى عشر سنة، ثم رغب في تعلم الأفكار الفارسية والهندية، فرحل إلى سوريا والعراق وفي سنة ٢٤٥م رحل إلى روما حيث استقر بها. وأسس مدرسته التي أقام بها حتى مات سنة ٢٧٠م[٣].

---

(١) أنظر مدرسة أفلوطين وتلميذه فورفوريوس الجانب الإلهي من التفسير الإسلامي ص ١٤٨.

المدرسة السورية.

المرجع السابق نفسه ص ١٧٤.

مدرسة أثينا.

المرجع السابق نفسه ص ١٧٨ : ١٩٥.

(٢) في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٤٠٥.

(٣) المرجع السابق نفسه.

وكانوا يطلقون على مذهبه الإسكندارنيين "أما الشهرستاني فيطلق عليه" الشيخ اليوناني"[١].

وهو الذي حول تعاليم الأفلاطونية الحديثة بعد أن كانت آراء منثورة إلى مذهب، أو هو الذي صاغها كتابة هذه الصياغة على الأقل وابتدأ هذا وهو في سن الخمسين من عمره[٢].

الملامح العرفانية للأفلاطونية الحديثة:

لقد حمل تلاميذ أفلاطون مذهبه وتناولوه بالشرح والتحليل والإضافة حتى ظهر بصورة متكاملة.

يقوم هذا المذهب على أصول أفلاطونية مع وجود عناصر بارزة أرسطية ورواقية، هرمسية، يهودية، مسيحية، وسائر علوم الشرق وغنوضه، بما في ذلك السحر والتنجيم.

وعلى الرغم من الكوارث الفكرية والعقائدية التي سببها الفكر اليوناني للبشرية فقد حرصت هذه المدرسة – على الاحتفاظ بالروح اليونانية – خالصة أي بالعقلية العلمية التي تنظر إلى الوجود كأنه هندسة كبرى فتستبعد منه قدر المستطاع، الممكن والحادث وتخصه بالضرورة.

وهم بهذا يعارضون الديانات جميعاً، ومنها اليهودية، والمسيحية ويعارضون أفلاطون ذاته في تصويره للصانع يتدخل تدخلاً شخصياً طوعاً لخيريته وينظم العالم طبقاً لخيريته، ويوجبون تأويل القصص الأفلاطوني إلى الرمزية[٣].

وأهم ملامحهم العرفانية هي:

١- نظريتهم – نظرتهم – للمعرفة:

فهم يعتمدون في المعرفة على الجذب والإشراق، وإن خلطوا ذلك بالتأمل العقلي والتوازن الرمزي بين العالم العلوي والسفلي اعتماداً على نظرية المثل وتعالى المبدأ الأول مطلقاً[١]، ويقول أفلوطين عن نفسه إنه جذب عدة مرات[٢].

---

(١) أنظر الملل والنحل للشهرستاني، جـ ٢، ص ١٤٤ : ١٤٧ حكم الشيخ اليوناني.

(٢) الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، د. محمد البهي ص ١٤٨ دار الكتاب العربي – بتصرف يسير.

(٣) أنظر علم التصوف ص ص ١٨٧ وما بعدها.

٢- الرمزية:

هم يوجبون التأويل ويأخذون بالرمزية.

٣- الفناء في الله تعالى:

وغاية الإنسان عندهم الفناء في الله تعالى على ما يقرب من رأي الهنود، ويخالفون في هذا رأي أفلاطون الذي كان يرى أن الإنسان يدرك الله بالعقل، ويغتبط بهذا الإدراك مع الاحتفاظ بشخصيته(٣).

٤- الفيوضات الإلهة:

يرى أفلوطين أن في الوجود أربعة أقانيم أي أربعة جواهر أولية: الأول أو الواحد ثم ثلاثة صادرة عنه على النحو الآتي: هي العقل، فالنفس، فالمادة.

في قمة الوجود الواحد، أو الأول وهو جوهر بسيط ليس فيه تنوع وهو كامل، والكامل جواد فياض، وفيضه يحدث عنه شيئاً، فهو مبدأ أول والشيء المحدث عنه – عقل – شبيه به، وهو بدوره يفيض، فيحدث صورة منه هي – النفس الكلية –، وتفيض هذه النفس فتصدر عنها الكواكب، ونفوس البشر ونفوس الأجسام، والمادة تأتي في آخر مراتب الوجود، وهي أصل الشرفية(٤).

وملخص أفكار أفلوطين في – أول – الموجودات عنده أنه.

لا يوصف بأنه عقل ولا معقول، ولا بأنه جوهر ولا عرض، ولا بأنه مريد – ويوصف فقط بأنه خير، ولكن كونه خير أهو عين ذاته، وليس عرضاً قائماً به، حتى يفضي وصفه به إلى تكثر فيه بوجه من الوجوه.

وأنه واحد من كل وجه في الواقع والتصور.

وأن صدور العقل عنه بالطبع وليس بالإرادة، لأن وصفه بالإرادة يوجب كثرة فيه، والفرض أنه واحد من كل وجه كما أن هذا الصدور ليس في زمان ولا مكان(٥).

---

(١) المرجع السابق، نفسه ص ١٨٨.

(٢) في تاريخ الفلسفة ص ٢٠٧.

(٣) المرجع السابق نفسه ص ٢٠٧.

(٤) أنظر في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٠٦.

(٥) الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، ص ١٦٧، أنظر كذلك مشكلة الألوهية، ١٠١ : ١٠٥.

فالإله عنده ليس خالقاً، ولا صانعاً، ولكن الموجودات تصدر عنه أو تفيض منه دون أن يعلمها أو يعني بها[١].

٥- النفس والاتحاد:

النفس البشرية عرضة للشر والألم في الجسد، وتعيش في الشقاء والخوف والشوق والشرور، فالجسد بمثابة سجن ولحد، والعالم بمثابة كهف ومغارة.

والنفس في طبيعتها نقية طاهرة، واتصالها بالمادة – بالجسم – أصل نقائصها وشرورها، ويفقدها نقاوتها، دون أن يدخل تغييراً في جوهرها[٢].

فيجب أن تكون غايتها الخلاص من الجسم وصعودها إلى الأول وتتحد به وهذا الاتحاد هو الغبطة العظمى، وهو حال انجذاب تفقد النفس فيه كل شعور بذاتها وتستغرق في الواحد الأول.

وهذه الحالة ممكنة في الحياة العاجلة، ولكن لا يذوقها إلا القليل، ولا يذوقها هذا القليل إلا نادراً[٣].

٦- إرجاع الشر إلى المادة أي إلى الجسد:

لأن الكائنات ترتبط بالواحد العقل عن طريق الحب والكائنات في ترتيب تصاعدي، يجعل كل كائن خيراً بالنسبة للكائن الذي دونه. فخير الجسد النفس وخير النفس الفضيلة، وفوقها العقل، وفوقه الطبيعة التي تسمى الواحد الأول.

والخير هو الهدف الأعلى الذي تبلغه النفس المحبة، ولا حد للحب الذي تشعر. نحو الخير، إذ ليس للمحبوب حد وجماله يختلف عن كل جمال؛ لأنه فوق الجمال ولا يتم الوصول إلى هذه الدرجة من الحب الحقيقي إلا بالإعراض عن الأمور الحاضرة والوقائع الدنية، وتجريد النفس من الصور الزائلة حينئذ تحظى النفس – بصدمة والحقيقة وهي مشاهد قصيرة الأمة، نادرة الحدوث.

فالخير موضوع حيناً، لأنه غاية في ذاته، ولا يمكن إدراكه إلا بمعرفة إشراقية تصلنا به. كما أننا عندما نشاهد الأول لا نشاهده منفصلاً عن ذاتنا، بل واحداً معها.

---

(١) أنظر في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٠٧ بتصرف.

(٢) التصوف العربي ص ٤٨.

(٣) أنظر في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٠٦.

ومن ثم لا حاجة إلى وسيط، إذ يصبح الله والنفس شيئاً واحداً، لا سبيل لا التفريق بينهما.

يقول أفلاطين. "ليست النفس في العالم، بل العالم فيها، لأن الجسم ليس محلاً للنفس، والنفس في العقل، والجسم في النفس والنفس في مبدأ آخر، لكن ليس لهذا المبدأ شيء يخالفه ويستطيع أن يكون فيه، فهو إذن ليس في شيء قط وبالتالي ليس في مكان قط، فأين الأشياء إذن؟ إنها فيه، فهو إذن ليس بعيداً عن الأشياء الأخرى وإن لم يكن فيها والعقل الذي يجب أن يتصل بالواحد ويذوب فيه فلا يعود عقلاً يعقل بل عقلاً يحب[١].

٧- النزعة الوثنية في تأليه أفانيم العقل والنفس.

٨- تأليه الكواكب والسحر وأساليب الشعوذة[٢].

٩- وحدة الموجود.

<u>تتلخص وحدة الوجود عندهم في:</u>

١- المادة صادرة عن – الأول – الخير، والنور الكامل، الموجود على الحقيقة. ومع ذلك هي شر، وظلام، وعدم.

ولا تضارب بين خيرية الأول ونوره ووجوده الحقيقي من جهة، وبين صدور المادة عنه التي هي شر وظلام وعدم – ولا شيء – من جهة أخرى، لأنه ليس في سلسلة الموجودات عنده موجود محايد يخلو من خصائص الأول وخصائص المادة.

٢- وأن النفس الكلية منقسمة إلى قسمين، أو هي ذات اتجاهين تتجه مرة نحو الأعلى، وأخرى نحو الأدنى.

٣- وأن هذا العالم كامل، وكماله في النظام العام للكل، وليس في العناية بكل فرد، وهذا العالم صورة للعالم العقل، ومرآة له[٣].

كل مرتبة من هذه المراتب تحتوي على جميع الكائنات التي ستتميز في المكان فالواحد يحوي كل شيء من غير تميز، والغفل يحوي جميع الكائنات إلا أنها

---

(١) التصوف العربي ص ٤٩.

(٢) أنظر علم التصوف ص ١٨٨.

(٣) الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ص ١٦٧.

فيه متمايزة متكاملة، بحيث تحتوي كل كائن منها بالقوة على جميع الكائنات الأخرى، والنفس تتميز الكائنات فيها حتى إذا وصلت إلى العالم المحسوس انفصلت وانتشرت.

وقد صدرت هذه الكائنات كلها عن الواحد كما يصدر النور المتلألئ عن الشمس وهي ساكنة، وهذه الكائنات جميعها ما دامت موجودة تحدث حتماً ضرورة حولها ومن جوهرها حقيقة تنزع إلى الخارج، وهذه الحقيقة أشبه بصورة للأشياء التي انبثقت عنها.

هكذا يبدو الواحد قوة جميع الأشياء دون أن يكون واحداً منها، والعقل الفائض عنه يعقل مبدأه فيصبح خصباً ويفيض عنه ما دونه، وترتبط الكائنات المتسلسلة بالواحد العقل عن طريق الحب(١).

هذه هي الملامح العرفانية للأفلوطينية الحديثة اشتركت في بنائها الأفلاطونية، الأرسطوطاليسية والرواقية وبعبارة أخرى مزجت الملامح العرفانية للأفلاطينية الحديثة الملامح العرفانية للمدارس الإغريقية الثلاث(٢).

تأثير هذه الملامح العرفانية على الملامح الأخرى:

١- لقد أثرت في المسيحية تأثيراً ملموساً(٣).

٢- انتقلت هذه الملامح وغيرها إلى حقل الفكر الإسلامي عن طريقين:

أ – طريق السريان والحرنيين الذين كانوا مدرسة لها أهميتها تدرس

ب- أما الطريق الثاني فهو طريق مباشر، بالاطلاع على بعض نصوصهم، وإن أخذها المسلمون تحت أسماء خاطئة وأهمها اسم "أرسطو".

وقد قام الدكتور عبد الرحمن بدوي بمجهود كبير في هذا الباب فقد نشر عدة نصوص هامة تنير الطريق أمام الباحثين، حين نشر النصوص الخاصة بالمثل الأفلاطونية في مجموعتين:

---

(١) أنظر التصوف العربي ص ٤٨.

(٢) الجانب الإلهي ص ١٦٨.

(٣) أنظر الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي د/ البهي ص ١٧٢.

أ – المجموعة الأولى: بعنوان الأفلاطونية المحدثة عند العرب تضم هذه المجموعة الخير المحض، وفي قدم العالم، في المسائل الطبيعية المنسوبة لا يرقلس ومغازلة النفس المنسوب لهرمس، والروابيع المنسوبة إلى أفلاطون.

أما المجموعة الثانية تحت عنوان "أفلوطين":

وتضم أنولوجيا أرسطاليس الذي هو في الحقيقة ترجمة لفقرات من تساعيات أفلوطين والمقتطفات التي يظهر فيها واضحاً مثل رسالة في العلم الإلهي المنسوبة إلى الفارابي والفصول الأخيرة من ما بعد الطبيعة لعبد اللطيف البغدادي(١).

ولأهمية هذه المدرسة وجانبها العرفاني نجد كثرة من المهتمين، تضم الأسماء اللامعة في مجال الاستشراق وأتباعه من الإسلاميين من أمثال نيكلسون في كتابيه "في التصوف الإسلامي وتاريخه" و "الصوفية في الإسلام وآسين بلاسيوس في كتابه" ابن عربي "وجولدتسيهر في كتابيه العقيدة والشريعة، ومذاهب التفسير الإسلامي وبحثه عن العناصر الأفلاطونية المحدثة والغنوصية في الحديث والدكتورين: أبو العلا عفيفي، والنشار وغيرهم(٢).

يثير الدكتور محمد البهي في كتابه الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي(٣).

عدة أسئلة حول تأثير هذه الملامح فيما بعد فيقول:

١- هل ما قيل حول "أول" أفلوطين من وصفه بأنه واحد من كل وجه، أثار بعد ذلك عند المسلمين مسألة: كيف يحافظ على وحدة الله مع وصفه مثلاً بكونه يعلم ذاته ويعلم غيره؟

إذن الوصف بذلك منش أنه أن يوجه كثرة في ذات العالم، على الأقل في التصور لأن العلم نسبة بين عالم ومعلوم والفارابي كان له في هذه المسألة رأيه، كما كان لابن سينا رأيه الذي يخالف فيه الفارابي نوعاً من المخالفة، ولابن رشد رأيه الذي يخالف فيه الاثنين معاً، ثم كان للمعتزلة رأيهم يقتربون به من هؤلاء الفلاسفة، وللغزالي وبقية رجال المدرسة الأشعرية رأيهم الذي يعارضون فيه الجميع.

---

(١) أنظر علم التصوف، ص ١٨٩.

(٢) علم التصوف ص ١٨٩.

(٣) ص ١٦٨.

٢- هل قول أفلوطين محافظة منه على وحدة "أوله" من كل وجه أن العقل صدر عن الأول بالطبع دون الإرادة، أثار مسألة قدم العالم وحدوثه عند المسلمين؟

إذ القول بالطبع يستلزم أن يتصور وجود العالم في اللحظة التي يتصور فيها وجود الأول.

وربما بعد أخذ ابن سينا وابن رشد بالقول بالقدم في هذه المسألة، ودفعهما استلزام القول به تعدد القديم، إحدى النتائج الإيجابية لدخول القول بالطبع في الجماعة الإسلامية. كما بعد إصرار المعتزلة والأشعرية على القول فحدوث العالم صدى سلبياً له.

٣- هل تدرج الموجودات في الوجود وفي صدورها عن الأول وفي أنها لا تصدر دفعة واحدة عنه، وأن المؤثر في اللاحق منها هو السابق عليه مباشرة كما صورته وحدة الوجود عند أفلوطين، آثار فكرة العقول عند ابن سينا في صدورها وترتيبها؟

إذ هي تنبئ عن أن وجود الأشياء عن الأول، أو تصور وجودها منه على الأقل، ليس دفعة واحدة، كما ننبئ عن أن التأثر في إبراز الأشياء ليس مباشرة عن مؤثر واحد، كما آثار عنده أيضاً فكرة الربط بين عالم الحس وعالم المعقول، عن طريق جعل "المادة" وهي أصل العالم الحسي صادرة عن عقل.

٤- هل حكم أفلوطين على كمال العالم بأنه كمال في الجملة، وأن العناية فيه لا تبدو بالنسبة لكل فرد، بل بالنسبة للكل، تثار مسألة العناية التي عبر بها ابن سينا عن إرادة الله؟

وملخص رأيه فيها: أن الإرادة نفس العلم، وعلم الأول كيفية الصواب في ترتيب الكل ووجوده منبع لفيضان الخير في الكل، وأما الشر فطارئ فيما دون عقل القمر، في المادة العنصرية، وفي الأشخاص، دون الأنواع، والله لم يقض به إلا بالعرض، إذ أنه أراد الخير إرادة أولية، ولم يعبأ بما قد تؤدي إليه المادة من شر، ما

دام الخير موجوداً، وعالمنا إذن كما يقول يغلب خيره على شره، فهو أفضل العوالم الممكنة[١].

هذه ملامح دخيلة على الملامح العرفانية البحتة ومن تأثر بها من المسلمين يعتبر ذا ملامح عرفانية يونانية لحماً ودماً وفكراً.

وعلى الرغم من وجود مناظرات لأفكار هذه المدرسة في التصوف الإسلامي فإنه يفترق وإياها في:

١- طريق المعرفة فطريقها في الملامح العرفانية للصوفية في الإسلام:

إسلامي اتباعي وما عدا ذلك فهو دخيل.

٢- وفي القضايا:

أن الإشراق ليس في الحقيقة سوى الإلهام الإسلامي المباشر، والتوازي بين العوالم لا يبلغ إلى القول بالمثل كما تمثلت عندهم وعند أفلاطون.

واختلافهم أيضاً. في نظرية الصدور مما يبعد الصوفيين الإسلاميين عن شبهة الوثنية والتأليه لغير الحق.

أما فيما يتعلق بعلو الحق، فإنه يتجاهل جمع الصوفية بين الإثبات والنفي في الصفات، فلم يقطعوا الصلة بين الحق وصفاته كما فعل المعتزلة والفلاسفة ولم يبلغوا مرحلة التشبيه والتجسيم بإثباتها[٢].

ولذلك لم تؤثر الأفلاطونية المحدثة في المسلمين، وإن كانت قد أثرت في عدة طوائف حملت أسماء المسلمين، وكانت هذه الطوائف قليلة متناثرة.

وقد حاولت الأفلاطونية الحديثة أن تنفذ إلى أعماق الحياة الإسلامية فدخلت في الحديث وقد عد الباحثون المحدثون أحاديث قدسية موضوعة وضعت بعد عصر النبي ρ وفيها تلك الصبغة الأفلوطينية المحدثة.

---

(١) أنظر النص الكامل في كتاب النجاة ص ٢٨٤، ٢٨٦ لابن سينا نقلاً عن الجانب الإلهي، ص ١٦٩ أنظر في هذا أيضاً.

نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ودا النشار جـ ١، ص ١٨٤.

(٢) أنظر علم التصوف ص ١٩١.

مثل قولهم "أول ما خلقني الله العقل، فقال له: أقبل فأقبل ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقاً أكرم علي منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أثيب وبك أعاقب"(١).

غير أن علماء الحديث أثبتوا وضعه:

والحديث الآخر "كنت نبياً وآدم بين الطين والماء" حديث أفلوطوني هو الآخر(٢).

الحديث الثالث كنت كنزاً خفياً، فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فيه عرفوا" هو أيضاً حديث أفلوطيني(٣).

من هذا نرى أن الأفلوطينية الحديثة دخلت في علم من أشد العلوم الإسلامية أصالة وأكثر علماء الحديث قاوموا كل الأفلوطينيات مقاومة عنيفة(٤).

إن الملامح العرفانية للأفلوطينية الحديثة تجمع مع العناصر الفلسفية وثنية إغريقية، وشرقية، وعناصر روحية صوفية معقدة لعدم قيامها على أساس واحد من فلسفة أو دين، أو عقلية واحدة شرقية أو غربية كان هذا من أسباب عدم انسجام التوفيق في الملامح العرفانية بين المسلمين والملامح العرفانية اليونانية.

فبينما تنادي الملامح العرفانية في الإسلام بوحدة الإله في التأثير في الكون وفي الخلق إذ بواحد الملامح العرفانية اليونانية نادت بوحدة الأصل معطل عن التأثير، وعن الإيجاد على الإطلاق أو مباشرة، وإذا بها نفسها في الوقت ذاته توزع التأثير في الكون على الآلهة المتعددة، جاعلة لكل إله عمله واختصاصه.

---

(١) حديث موضوع باتفاق.

أنظر كشف الخفا ومزيل الألناس جـ ١، ص ٧٢٥، ٣٠٩.

(٢) بهذا اللفظ لم يرد وقال العلقمي في شرحه الجامع الصغير أنه حديث صحيح وورد بلفظ آخر "كنت أول الناس في الخلق وآخرهم في البعث، رواه ابن سعد عن قتادة مرسلاً كشف الخفا جـ ١، ص ١٨٧.

(٣) حديث ليس له سند صحيح ولا ضعيف على رأي ابن تيمية، والزركشي، والحافظ أن حجر، والسيوطي قال القارئ لكن معناه صحيح يستفاد من قوله تعالى: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، كشف الخفا، جـ ١ ص ١٩١.

(٤) نشأة الكفر الفلسفي في الإسلام، د/ علي سامي النشار جـ ١/ ١٨٥.

بينما الملامح العرفانية في الإسلام جعلت خروج العالم، أو وجوده بقدرة الله، كما جعلت مرده إليه بقدرته أيضاً؛ إذا بالملامح العرفانية اليونانية تجعل خروج العالم نحو أصله وهو الأول، ورجوعه إليه عملاً طبيعياً، بدايته العلية والسببية، ونهايته المحبة والشوق، ولذا كان أولها صاحب الفيض، وعالماً ذا قدم.

بينما اتخذت الملامح العرفانية في الإسلام من الزهد وسيلة للاعتدال في الأخذ من الدنيا وتركها، إذا بالملامح العرفانية للأفلاطونية الحديثة تجعل غاية العمل الفكري للإنسان، وغاية تصرفه الخلقي، الإفناء في صاحب الفيض على العالم هو الأول والاتحاد به، عن طريق التطرف في الزهد[١].

ومن هنا ذكر الباحثون الأوروبيون أننا نحن المسلمين لم ننتج في دائرة الفكر اليوناني ومنها الملامح العرفانية جديداً لم يكن يشغلنا هذا الفكر، ولم تفتن به الفتنة الكبرى صماً وعمياناً كان يشغلنا تصورات أخرى أمدنا بها القرآن أمدتنا بها السنة وفي ضوئها قام أهل التصوف بوضع تصوفهم لذلك لم تؤثر الأفلاطونية المحدثة في المسلمين، وإن كانت قد أثرت في عدة طوائف حملت أسماء المسلمين وكانت هذه الطوائف قليلة متناثرة[٢].

وبذلك نكون قد انتهينا من المطلب الأول من المبحث الثالث من الفصل الثالث لننطلق منه إلى المطلب الثاني.

المطلب الثاني: الملامح العرفانية التوفيقية بين التصوف الشرقي والغربي الغنوص الشرقي والغربي:

تحديد مصطلح الغنوصية ومبادئها العامة:

الغنوص أو الغنوسيس هي كلمة يونانية الأصل معناها المعرفة غير أنها أخذت بعد ذلك معنى الصطلاحياً هو التوصل بنوع من الكشف إلى المعارف العليا، أو تذوق تلك المعارف تذوقاً مباشراً بأن تلقي في النفس إلقاءاً فلا تستند على الاستدلال أو البرهنة العقلية.

---

(١) أنظر الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي د/ البهي ص ١٩١ بتصرف.

(٢) نظر نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام د/ النشار جـ ١، ص ١٨٥ بتصرف يسير.

وقد اعتبر الغنوصيون عقائدهم أقدم عقيدة في الوجود، وأن الغنوصية أقدم وحي أوحى الله به فانتقل من طبقة غنوصية إلى طبقة أخرى، ولا يكف انتقاله ولا ينتهي، وهو يختلف عن غيره من العقائد الدينية بأن دائرته لا تتوقف أبداً وقد احتفظ به مجموعة من الكهان والسحرة وتناقلوه، معلنين أن بيدهم مفاتيح الأسرار الإلهية" و "أسرار القدس الأعلى وأن الغنوص الخلاص الأبدي، ذلك أنه الوحي المتجدد والفيض الذي ينبعث دائماً من الملأ.

وقد قامت الغنوصية بتخطيط عام للوجود، وضعت على قمته الله، وجوداً معقولاً مفارقاً للمادة غير مدرك على الإطلاق، ومن هذا الوجود صدرت الأيونات متتابعة، الواحدة بعد الأخرى في نسق زوجي كل زوج مكون من زكر وأنثى، وكلما ابتعدت الأيونات عن الوجود الأول ازدادت كثافة، وقلت مفارقتها للمادة، وأراد أيون من تلك الأيونات أن يرتفع إلى "الله" بدون أن يطهر نفسه بالغنوص، فطرد من مكانه، فصدرتعنه أيونات شريرة مثله، ومن هذه الأيونات الشريرة صدر العالم المادي وما فيه من أجسام، وليست النفوس وهي مادة في هذا العالم المادي الأجسام، فسجنها هذا الأيون الخاطئ وبقيت في الأجسام في هذا الإنسان، ولكن النفوس البشرية تحاول مرة أخرى الخلاص والصعود إلى عالمها الأول، وهنا يحدث الصراع العارم في الإنسان بين الإنسان بين قوى الخير وقوى الشر، فمن كانت فيه طبيعة الغنوص، عاد إلهياً ربانياً، ومن تغلبت فيه طبيعة المادة لم يرتفع من عالمه الأدنى، ومن تساوت فيه الطبيعتان حدث الصراع وقد يتغلب الخير وقد يتغلب الشر ولكن إذا كان الله خيراً محققاً، ووجوداً مفارقاً غيرها فكيف صدر عنه شر محض، ووجود غير مفارق، ومادي؟؟؟

لقد حل حكمه الفرس القدامى وذلك بإيجاب أصلين للوجود أو بمعنى آخر إلهين الوجود: إله خيره هو النور وإله شرير هو الظلام.

وتلاقحت المذاهب وأصبحت الثنائية بين الله والمادة عنواناً على الغنوصية، والشقة بين الله والمادة بعيدة تمام البعد، فكان لابد أن تملأ بوسطاء بأزواج من الأيونات، تزداد كثافة كلما بعدت عن الله، وتقل كلما اقتربنا منه وعلى النفس أن

تجتاز كل الأيونات أو العوالم أو الأراكنة كما يسمون أحياناً، تفعل هذا بالغنوص أو "أو بالكلمة" بروح القدس حتى تعود ثانية إلى الله[1].

ويتلخص من هذا أن:

الغنوص كلمة يونانية تعني المعرفة الحدسية المباشرة التي لا تعتمد على وسائل العقل المستدل أو النقل لأنها تهدف إلى وحطة العارف والمعروف.

والواقع أنه كفلسفة مذهب غريب يشوبه الكثير من الغموض الذي تلقاه الباحثون إلى الآن على علاته.

فبينما ينظر إليه البعض على أنها أقدم وحي أوحى به الله، وأنه انتقل على أيدي العارفين أو الغنوصيين انتقالاً مستمراً، بدوام العلاقة بين الله والبشر يعتبره البعض الآخر نحلة دينية وفلسفية، وكثر تساؤلهم عن مصدرها بعد انتشارها فيما بين القرن الأول والرابع الميلادي، وبخاصة بعد أن التقى الشرق بالغرب في دولة واحدة هي الدولة الرومانية؟ هل هو أفلاطون أو فارس أو الهند؟

ونلاحظ أن بعض الباحثين يعممها حتى تشمل كل القضايا العرفانية، وفي أحيان كثيرة تكون غير عرفانية، سواء أكانت سليمة أم كانت منحرفة فتضم في حناياها كل ما سمي بالغنوص الشرقي: الفارسي الهندي، المصري ... إلخ.

أو الغنوص الغربي الأفلاطونية، والرواقية.

وهذا ما فعله الدكتور/ النشار في نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام وتلميذه د/ عبد القادر محمود في كتابه عن الفلسفة الصوفية في الإسلام.

وكثيرون غيرهما، فهو السمة الواضحة بين الباحثين في التصوف الإسلامي والثقافة الإسلامي على وجه العموم.

بعددون في هذا الصدد: المعرفة المباشرة، والتطهير كطريق لها، ونظرية للصدور العالمي عن طريق المتوسطات، فلسفة الخير وفلسفة الشر المعتمدة على فكرة النور والظلمة.

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام د/ النشار جـ ١ ص ١٨٧.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن المعرفة المباشرة والطريق إليها، فكرة إسلامية بحتة، ولا يكفي التشابه للحكم بالأخذ، وأن نظرية لصدور تتميز عن النظريات الأخرى ولا تقع في أخطاء تأليه غير الحق أو الخلط بينه وبين الخلق.

أما فيما يتعلق بفكرة الشر والخير المعالجة على ضوء ثنائية النور والظلمة فهي إفهام خاطئ لأننا لا نعدم تغيير النور والظلمة عن الخير والشر في القرآن الكريم مثل قوله تعالى:

"كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور". [إبراهيم (١)].

"ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور". [النور (٢٤)].

"أفمن شرح الله صدره للإسلام، فهو على نور من ربه"[١]. [الزمر (٢٢)].

فالإسلام دين ذو رابطة ثنائية، لم يجعل بين الإنسان والله أي موجود آخر وسيطاً، بالمعنى الدقيق، وأسلوب النسك فيه جماعي. وطموحه الاجتماعي يشمل الإنسانية جمعاء، ونظامه الاعتقادي توحيدي لرده كل شيء إلى الخالق الأول الآخر الفرد الصمد"[٢].

---

(١) علم التصوف، ص ١٨٧.

(٢) التصوف العربي، ص ٥٨.

الفصل الرابع

التصوف الصائبي، اليهودي، النصراني - المسيحي

الملامح العرفانية عند الصابئة واليهود، والنصارى – المسيحيين.

ويشتمل على مدخل وثلاثة مباحث.

المبحث الأول: الملامح العرفانية – التصوف – عند الصابئة.

المبحث الثاني: الملامح العرفانية – التصوف – عند اليهود.

المبحث الثالث: الملامح العرفانية – التصوف – عند النصارى.

مـدخـل

يمكن لأي باحث في الثقافة الإسلامية وغيره على وجه العموم أن يتناول الصابئة، اليهودية، النصرانية – المسيحية – من عدة جوانب كل على حسب مجال تخصصه.

فباحث الفقه مثلاً له أن يتعرض للشروح القانونية للصابئة اليهودية، النصرانية، ليتعرف على مبادئها هل أتت نتيجة لتأثير غيرها عليها؟ أو أثرت هي على غيرها فيما بعد؟ وما هو مقدار هذا التأثير والتأثر في كلتا الحالتين؟ وما مقدار قربها أو بعدها عن النص الإلهي؟

ولباحث الحديث، أو التفسير، أو الفكر، والاجتماع مثلاً أن يبحث كذلك في كل ما سبق.

ونحن حينما نؤرخ للملامح العرفانية للصابئة، واليهودية والنصرانية لنتعرف على ملامحها العرفانية – التصوف – لابد لنا أن نتساءل أيضاً هل هي نصية أم تدخل العقل البشري في تأويلها وشرحها وفلسفتها؟ وما مقدار قربها أو بعدها عن نصها الشرعي؟ وهل تأثرت ملامحها العرفانية بالملامح العرفانية التي سبقتها؟ وهل هي أثرت في الملامح العرفانية التي أتت بعدها؟ وما هو مقدار هذا التأثير وذاك التأثر في كلتا الحالتين؟

ويمهنا في دراستنا هذه أن نحدد الشروح الإنسانية لها لا النص الإلهي الموحي به ذاته، لأن النصوص الإلهية قد دخل التحريف، والتبديل يقيناً؛ لأن الصابئة واليهودية، والنصرانية – المسيحية – مرت على كل منها فترتان، فترة إمساك نص عن الشرح وصيانته وحمايته من التأويل الإنساني ويطلقون على الصابئة، اليهودية، النصرانية في هذه الفترة الصابئة، اليهودية، النصرانية، النصية.

وفترة أخرى فترة تأويل النص الصابئي، اليهودي النصراني – المسيحي – وشرح ألفاظه ووضع الإنسان أمام عقله وفكره النص الإلهي يشرحه ويؤوله ويطلقون على الصابئة، اليهودية، النصرانية، في هذه الفترة الصابئة واليهودية والنصرانية المفلسفة أي التي تدخل العقل البشري في نص الوحي الإلهي بالتأويل والتحريف

والتبديل والخروج بها عن المعنى الحقيقي المراد إلى معنى آخر على حسب مدارك الإنسان العقلية وثقافته النوعية.

وبالتالي لم يقف النص الإلهي عن الحسد الذي كان عليه إيان رسلها ولا في دائرة فهم أصحابها الأوائل لها فامتدت إليها الأيدي بالتبديل وتدخلت فيها العقول بالتحريف بفضل عوامل التغيير وأهمها طول الزمن وتغيير البيئة.

ومن هنا يجب أن ننبه إلى ملاحظة مهمة وهي: أننا حينما نكتب عن الملامح العرفانية للصابئة، اليهودية، النصرانية نكتب عنها باعتبار أنها فكر بشري وليس باعتبار نصها الموحي به نظراً لما مرت به وما لحقها في المرحلة – الفترة – الثانية من تغيير وتبديل وتحريف بالنقص أو الزيادة أو الحذف أو الإضافة أو بالخروج بالنص عما وضع له فأصبحت بذلك فكراً بشرياً يخضع لما يخضع له الفكر البشري الآخر من الصحة والخطأ.

فالصابئة قد بادت نصاً ووحياً واليهودية قد حرفت والنصرانية قد بدلت وغيرت "إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون". [النمل (٧٦)].

"وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّـهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّـهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّـهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّـهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَـٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ" (٣٠، ٣١).

يصور القرآن الكريم جميع الشرائع السماوية السابقة وما دخلها من تحريف وتبديل مبيناً لها وما عليها.

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" [سورة البقرة (٦٢)].

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ". [المائدة (٦٩)]

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" [الحج (١٧)].

"قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ"[المائدة (٧٧)].

وسنبحث ذلك بإذن الله تعالى في المباحث الثلاثة الآتية:

المبحث الأول: الملامح العرفانية – التصوف عند الصابئة.

المبحث الثاني: الملامح العرفانية – التصوف عند اليهود.

المبحث الثالث: الملامح العرفانية – التصوف – عند النصارة – المسيحيين – في الفصل الرابع إن شاء الله تعالى.

المبحث الأول
الملامح العرفانية – التصوف – عند الصابئة.

مدخل:

إذا أردنا أن نبحث ونكتب عن الملامح العرفانية عند الصابئة لابد لنا من المطالب الآتية:

المطلب الأول: تحديد معنى كلمة الصابئة:

وعلى من تطلق وما يستنتج من ذلك

الصابئون جمع صابئ.

<u>وقد تعددت الآراء فيمن يلزمه هذا الاسم:</u>

١- قال بعضهم يلزم ذلك كل من خرج من دين إلى دين أي أنه صاحب دين ولكن ما هو؟ إنه غير مستقر وملتزم بدين معين.

٢- قوم لا دين لهم قال مجاهد: الصابئون ليسوا بيهود ولا نصارى ولا دين لهم. وفي رواية أيضاً له: الصابئون بين المجوس واليهود لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم.

هذه الرواية حددت لنا زمانهم ثم حددت لنا بعض مبادئهم.

٣- الصابئة دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي ولا يؤمنون برسل الله.

هذه الرواية حددت لنا مكانهم، قمة عقيدتهم، وبأنها دين مستقل قائم بذاته، ليس لهم كتاب، ويترتب على ذلك عدم إيمانهم برسل الله، وعدم العمل.

٤- هم قوم يعبدون الملائكة، ويصلون إلى القبلة ويقرءون الزبور.

هذه الرواية حددت لنا بأن:

لهم معبوداً وهم الملائكة إذن هم مشركون، أو يعبدون الملائكة لذاتها، ولهم شعائر هي الصلاة، لهم قبلة يتجهون إليها ولكن لم تحدد الجهة التي يتجهون غليها، ولهم كتاب هو الزبور أو يأخذون ما به قراءة.

٥- هم طائفة من أهل الكتاب[١].

٦- هم قوم عدلوا عن اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة[٢].

٧- هم فطريون ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين لهم قرر يتبعونه ويقتفونه[٣].

٨- هم قوم مما يلي العراق يؤمنون بالنبيين كلهم ويصومون من كل سنة ثلاثين يوماً ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات[٤].

هذه الرواية بنت لنا:

إيمانهم بالأنبياء كلهم.

لهم شعائر وهي الصوم فهم يصومون كل سنة ثلاثين يوماً وصلاة ويصلون كل يوم خمس صلوات.

بينت لنا قبلتهم وهي نحو اليمن وكذلك مكانهم وهو مما يلي العراق.

٩- قوم لم تبلغهم دعوة نبي[٥]، وهذا يتفق مع الرأي السابع.

١٠- قيل هم قوم يشبه دينهم دين النصارى إلا أن قبلتهم نحو الجنوب يزعمون أنهم على دين نوح.

هذه الرواية بينت لنا:

أفي دينهم يشبه دين النصارى لهم قبلة نحو الجنوب.

يدينون بدين نوح.

---

(١) تفسير الطبري، جـ ١، ص ٣١٨.

(٢) تفسير الكشاف، جـ ١، ص ٢٨٥.

(٣) تفسير القرطبي، جـ ٢، ص ٤٣٤.

(٤) المرجع السابق، نفسه جـ ١، ص ٤٣٤.

(٥) تفسير القرطبي، جـ ١، ص ٤٢٤.

١١- والأقرب الذي نميل إليه كما يقول الفخراني الرازي في تفسيره[١]، أنهم قوم يعبدون الكواكب ثم لهم قولان.

(أ) أن خالق العالم هو الله سبحانه وتعالى إلا أنه سبحانه أمر بتعظيم هذه الكواكب واتخاذها قبل للصلاة والدعاء والتعظيم.

(ب) إن الله سبحانه خلق الأفلاك والكواكب ثم إن الكواكب هي المدبرة لهذا العالم من الخير والشر والصحة والمرض والخالقة لها فيجب على البشر تعظيما؛ لأنها هي الإلهة المدبرة لهذا العالم ثم إنها تعبد الله سبحانه وتعالى.

وهذا المذهب هو القول المنسوب إلى الكدانيين الذين أرسل إليهم سيدنا إبراهيم عليه السلام ومبطلاً لهم.

<u>هذه الرواية بينت لنا:</u>

(ا) بالنسبة للشق الأول منها:

أن هؤلاء يؤمنون بالله تعالى ولا يؤمنون برسول ولكن يؤمنون بالوسائط المادية الجمادية وهي الكواكب.

عبادتهم الكواكب وهي قبلتهم ولهم صلاة.

(ب) بالنسبة للشق الثاني من الرواية:

الله خلق الأفلاك والكواكب فقط ثم استرح.

ترك الله الخلق للكواكب فهي التي تتولى خلق الناس وتثبيتهم بالثواب والصحة وتعاقبهم بالشر والمرض.

هم بذلك مشركون؛ لجعلهم الكواكب مدبرة لهذا العالم.

تحديدهم من الكلدانيين.

١٢- يقول الإمام الألوسي في تفسيره[٢].

"هم قوم مدار مذهبهم على التعصب للروحانيات واتخاذها وسائط ولما لم يتيسر لهم التقرب إليها بأعيانها والتلقي منها بذواتها فرعت جماعة منهم إلى هياكلها.

---

(١) جـ ١ ص ١٠٥ للطبعة الثانية.

(٢) تفسير الألوسي جـ ١، ص ٢٧٨.

فصابئة الروم مفزعها السيارات، وصابئة الهند مفرعها الثوابت، وجماعة نزلوا من الهياكل إلى الأشخاص التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن أحد شيئاً.

هذه الرواية حددت لنا:

تعصبهم للروحانيات وهي معنوية لا ترى.

اتجهوا إلى الوسائط بينهم وبين الرواحنيات عن طريق الكواكب.

بينت لنا ذاتيتهم وهم الروم.

بينت لنا أنواعهم بالنسبة للوسائط.

إذا كانت الكواكب كواكب سيارة فهم صابئة الروم.

إذا كانت الكواكب كواكب ثابتة فهم صابئة الهند.

إذا كانت الوسائط أشخاصاً فهي الأصنام التي يتقربون بها إلى الهيكل وهذه هي طائفة من صابئة الروم والهنود.

إذا نظرنا لكل الروايات السابقة استنتجنا منها ما يأتي:

١- زمانهم وزمانهم محصور بين المجوس واليهود.

٢- مكانهم هو، الموصل – العراق ما يلي العراق – الروم.

٣- ذاتيهم وشخصيتهم هم: كلدانيون – هنود – روم.

٤- أنواعهم صابئة رومية – هندية – عراقية – موصلية.

٥- أقسامهم من حيث التدين والدين – وعدمه.

(أ) فطريون لم تبلغهم دعوة أي رسول.

(ب) لا دين لهم.

(ج) لهم دين وهذا ينقسم إلى:

١- دين غير ملتزمين به فهم ينتقلون من دين إلى آخر.

٢- دين ملتزمون به وهذا ينقسم إلى:

عبادة الله وحده دون عمل يقولون لا إله إلا الله فقط ولا يؤمنون بأنبياء ولا كتب.

- مشركين. – طائفة من أهل الكتاب يهود، نصارى.
- دين نوح. – دين إبراهيم – دين النصارى.
- عبادة الكواكب لذاتها. – عبادة الأصنام لذاتها.

٦- من حيث الأمور الاعتقادية – العقيدة:

أ – الله منهم من يقول لا إله إلا الله فقط.

ب- الرسل:

- يؤمنون بكل الرسل المرسلة.
- لا يؤمنون بكل الرسل.
- يؤمنون بنوح وإبراهيم.
- يؤمنون برسول ابتدعوه من عندهم هي الكواكب لمن يؤمن بواسطتها عندهم.

ج- الكتاب:

- ليس لهم كتاب منزل.
- لهم كتاب منزل هو الزبور – صحف إبراهيم.

٧- من حيث العبادات والعمل.

ليس لهم عبادات مطلقاً.

لهم عبادات وهي:

١- صلاة خمس مرات كل يوم.

٢- صوم شهر في السنة يصومون ثلاثين يوماً كل عام.

٣- القبلة لليس لهم قبلة لمن ليس عنده عبادات.

لهم قبلة لمن يصلي وقبلته نحو الجنوب، أو اليمن أو الكواكب لذاتها لمن يتجه نحوها.

والأرجح الذي نميل ونستريح له – والله أعلم.

إن الصابئة قوم مشركون يعبدون الشمس والقمر، وسائر الكواكب.

<u>وهم فريقان:</u>

١- منهم من يقول إن الله سبحانه خلق الكواكب وفوض تدبير هذا العالم إليها فهذه الكواكب هي المدبرات للعالم وقالوا:

يجب علينا أن نعبد هذه الكواكب؛ لأن هذه الكواكب والأفلاك تعبد الله وتمجده:

٢- ومنهم قوم غلاة ينكرون الصانع.

ويقولون: إن هذه الأفلاك والكواكب أجسام واجبة الوجود لذواتها ويمتنع عليها العدم والفناء وهي المدبرة لأحوال العالم السفلي ويضيفون السعادة والنحاسة إليها[١]، وهؤلاء هم الدهرية الخالصة[٢].

ومدار مذهبهم على التعصب للروحانيات واتخاذها وسائط ولما لم يتيسر لهم التقرب إليها بأعيانها والتقى منها بذواتها فزعت جماعة منهم إلى هياكلها، فصابئة الروم مفزعها السيارات وصابئة الهند مفزعها الثوابت.

وديارهم بين بلاد واسط والبصرة من أرض العراق نحو البطائح والآجام[٣].

المطلب الثاني: مذهب الصابئة وأول من أحدثه:

أول من أحدث مذهب الصابئة رجل يقال له "بوداسف" وكان ينزل سابور في عهد الملك طهمورت بن أنوجهان بن أرفخشد بن أوشهنج أحد ملوك الفرس الأول.

يقول "يوداسف" إن معالي الشرف الكامل، والصلاح الشامل، ومعدن الحياة، في هذا السقف المرفوع، وأن الكواكب هي المدبرات والواردات والصادرات، وهي التي بمرورها في أفلاكها وقطعها مسافاتها، واتصالها بنقطة وانفصالها عن نقطة يتم ما يكون في العالم من الآثار من امتداد الأعمار وقصرها، وترك البسائط، وانبساط المركبات، وتتميم الصور، وظهور المياه وغيضها.

وفي النجوم السيارة وفي أفلاكها التدبير الأكبر وغير ذلك. وهذا الرجل أول من أظهر آراء الصابئة من الحرانيين والكيماريين[٤].

المطلب الثالث

الفرق بين الحنفية والصابئة والحرانية - الحرانية:

أولاً الحنفية والصابئة:

تعددت الآراء في هذا:

---

(١) أنظر الفخر الرازي، جـ ١، ص ٢٤٤.

(٢) المرجع السابق نفسه جـ ١٣ / ٣٥٥.

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن بن علي المسعودي ت ٣٤٦ جـ ١ ص ٢١٣ تحقيق المرحوم الشيخ العلامة محمد محي الدين عبد الحميد المكتبة الإسلامية بدون تاريخ.

(٤) مروج الذهب جـ ١ ص ٢٢٣.

(أ) فريق يرى أن الحنيفية هي الصابئة وهذا رأي الكندي يرى الكندي أن – الحنفاء هم الصابئون – الحنيفية هي الصابئة ويصفهم بما وصف به الحنفاء ويقول إنهم الصابئون الإبراهيميون الذين آمنوا بإبراهيم عليه السلام وحملوا الصحف التي أنزلها الله عليه[١].

وهذا الرأي لا نميل إليه لكونهما حقيقة مختلفين، لأن الصابئة تنسب التدبير إلى الأفلاك التي يعظموها والحياة والنطق والسمع والبصر وقد أقاموا هياكل لعبادة الكواكب واستنزال الروحانيات[٢].

ومن ثم كان هذا الرأي ضعيفاً.

(ب) فريق يفرق بين الصابئة والحنيفية وعلى رأسهم البيروني والإمام الشهرستاني.

يفرق الشهرستاني بين الصابئة والحنيفية فيقول الصبرة في مقابلة الحنيفية.

مدار مذهب الصابئة التعصب للروحانيين، ومدار مذهب الحنفاء هو التعصب للبشر الجسمانيين.

الصابئة تدعي أن مذهباً هو الاكتساب. والحنفاء تدعي أن مذهبها هو الفطرة.

إذن دعوة الصابئة إلى الاكتساب ودعوة الحنفاء إلى الفطرة[٣]، والصابئة ينكرون الرسل والرسالة والأنبياء والنبوة والحنفاء يثبتونها وبناء على هذا التفريق ذكر الإمام الشهرستاني.

المناظرات التي تمت بين الصابئة والحنفاء ونقد الحنفاء للصابئين[٤].

إذن الحنيفية غير الصابئة وهما مختلفان وهو ما تميل إليه.

ثانياً: الصابئة والحرنانية [حرانية – الكلدانيين].

تعددت الآراء في هذا أيضاً:

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي د/ علي النشار جـ ١ ص ٢١٥ دار المعارف، القاهرة، مصر ط ٨.

(٢) أنظر الآثار الباقية البيروني ص ٢٠٤ : ٢٠٦ بتصرف.

(٣) الملل والنحل للشهرستاني جـ ٢ / ٥ يقال صبأ الرجل إذا مال وزاع، فيحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق، وزيفهم عن نهج الأنبياء، قيل لهم الصابئة وقد يقال: صبأ الرجل إذا عشق وهوى وهم يقولون الصبرة هي الانحلال عن قيد الرجال.

(٤) أنظر المرجع السابق نفسه جـ ٢، ص ٩ : ٤٨ وهي مهمة لتعرف الفرق بين الاثنين فارجع إليها إذا شئت.

أ – فريق يرى الفرق بينهما فالصابئة غير الحرنانية وعلى رأي هؤلاء المسعودي، البيروني.

يقول المسعودي: "الصابئون مباينون للحرانيين في نحلتهم"(١).

أن الحرانية ليست هي الصابئة على الحقيقة بل هم المسمون في الكتب بالحنفاء الوثنيين – ولعله يقصد من ذلك إنهم الحنفاء الذين ظهروا في عهد الوثنية.

والاسم مشتق من هاران بن نزح أخي إبراهيم عليه السلام وأن إبراهيم قد ظهر بعد.

أما الصابئة على وجه الحقيقة فهم الذين تخلفوا في بابل من جملة الأصباط في أيام كورش ووضعوا مبادئها ممتزجة من اليهودية، النصرانية ويشبههم بالسامرة بفلسطين، وأماكن أخرى في واسط، وسواد العراق ويخالفون الحرانية، ويهاجمون مذاهبهم ولا يوافقونهم إلا في أشياء قليلة(٢).

وبناء على ذلك يوجد مذهبان مستقلان عن بعضهما البعض هما:

١– مذهب الحرنانية – الحرانية، وقد دعوا بالصابئة في عهد المأمون وهؤلاء يسكنون شمال العراق تقريباً ويتجهون إلى جهة القطب الجنوبي وكانوا في عهد الملك كورش وقد بادت هذه الطائفة.

٢– مذهب الصابئة الحقيقي وهؤلاء يسكنون وسط العراق ويتجهون صوب القطب الشمالي وقد بقيت هذه الفرقة إلى الآن في جنوب العراق، وفي بغداد، وكانوا في عهد طمهمورث(٣).

وإذا كان البعض – الدكتور النشار – بفرق بين الصابئة والحرانيين وأن الصابئة عباد نجوم وكواكب والكلدانيين الحرانيين هم موحدون فهذا رأي لا نميل إليه لأن الحرانيين جماعة من الصابئة وإذا كان الحرانيون ينزهون الله فلعل نحلتهم نحلة توحيد قديم يرجع إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام عادت إليه بعض التصورات البابلية القديمة، واختلطت به عناصر فلسفية إبان فتح الإسكندر للمشرق.

---

(١) مروج الذهب جـ ١، ص ٢٢٣.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي جـ ١ ص ٢١٣.

(٣) نشأة الفكر الفلسفي جـ ١ ص ٢٢٤.

والناظر في ديانتهم يجد مزيجاً غريباً من التوحيد، والتنزيه وعناصر خرافية فيها تنزيه وسحر وتعظيم للحق والشيطان والكواكب يوسطونها، باعتبارها آلهة – دينا بينهم وبين اله، ويقربون لها القرابين حتى الإنسانية منها ولهم أعياد وطقوس رمزية وتماثيل وتعليقات من أعضاء الحيوانات[١].

(ب) الحرنانية هي جماعة من الصابئة وهذا ما نميل إليه فالإمام الشهرستاني يرى "إن الحرنانية جماعة من الصابئة"[٢].

إذن الاثنان طائفة واحدة والحرنانية جماعة من الصابئة وسموا بالحرنانيين أولاً ثم سموا منذ أيام المأمون باسم الصابئة المذكورة في القرآن الكريم بفتوى شيخ فقيه من أهل حران بحيلة منه حتى ينجو من القتل، لأن اسم الصابئة قد ورد في القرآن الكريم فهو إذن من الأديان القديمة التي لا يقتل صاحبها[٣].

وهذا ما نميل إليه.

ثالثاً: الحرنانية – الحرانية – والحنيفية:

بناءاً على ما سبق:

(أ) إذا كانت الحرنانية نوعاً من الصابئة فتكون هي والصابئة فرقة واحدة بناء على ذلك.

تكون الحرنانية غير الحنفية مطلقاً لاختلافهما اختلافاً جذرياً كما بينت ذلك في الفرق بين الحنيفية وبين الصابئة وهذا ما نميل إليه.

(ب) وإذا كانت الحرنانية غير الصابئة فيطلقون عليها حينئذ الحنيفية الوثنية.

ومن هنا تتضح العلاقة بينها وبين الحنيفية العربية قبيل ظهور الإسلام حيث يلتقيان في الاسم فقط حيث إن الحرنانية – كانت أيام سيدنا إبراهيم وأخذت آراءها المنحرفة من هرمس وسولون جد أفلاطون لأمه وبادت.

أما الحنيفية الثانية فهي قبيل بيعة النبي ρ أيام الفترة وبقيب إلى بعثته ρ علاوة على أنها استمدت مبادءها من شريعة سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل ثم

---

(١) علم التصوف ص ١٩١.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني جـ ٢ / ٥٤.

(٣) أنظر نشأة الفكر الفلسفي جـ / ٢١٣.

دخلها بعض التحريف علاوة على أن الأولى مرت بأدوار متعددة لا مجال لذكرها الآن[١].

ويستنتج مما سبق كله:

١- أن الحنيفية غير الصابئة والحرانية التي هي فرقة من الصابئة.

٢- أن الحرنانية – الحرانية هي طائفة من الصابئة.

وهذا يؤدي بنا إلى معرفة طوائف الصابئة.

المطلب الرابع طوائف الصابئة وعقائدهم وطقوسهم :

١- طوائف الصابئة:

يرى البعض أنها ثلاث طوائف ويرى البعض الآخر أنها أربع ولا خلاف بين الاثنين، لأن الذي قسمها إلى ثلاث طوائف أدمج الرابعة في الثالثة وجعلها طائفة واحدة.

فالإمام الشهرستاني يقسمهم إلى المذاهب الثلاثة الآتية:

١- مذهب أصحاب الروحانيات.

٢- مذهب أصحاب الهياكل والأشخاص.

وقسم هؤلاء إلى:

(أ) أصحاب الهياكل. (ب) أصحاب الأشخاص.

٣- الحرنانية – الحرانية الكلدانيون[٢].

إذن المذاهب هي:

١- مذهب الروحانيات.

٢- مذهب أصحاب الهياكل.

٣- مذهب أصحاب الأشخاص.

٤- مذهب الحرنانية.

---

(١) أنظر الصابئة قديماً وحديثاً تأليف الشيخ السيد عبد الرازق الحسيني ص ٨ : ١٥ ط ١، ١٣٥٠ هـ – ١٩٣١ م مكتبة الخانجي القاهرة، مصر.

(٢) أنظر الملل والنحل للشهرستاني جـ ٢، ص ٦، ٤٩، ٥٤.

وهذا هو تقسيم الإمام أبو الحسن علي بن محمد المكني بأبي علي بن سالم التغلبي الفقيه الأصولي الملقب سيف الدين الآمدي المتوفى عام ٦٣١ هـ فقد ذكر أن أشهر فرق الصابئة أربع فرق.

١- أصحاب الروحانيات. ٢- أصحاب الهياكل.

٣- أصحاب الأشخاص. ٤- الحلولية – الحرانية.

وهذه هي أقسام الصابئة القديمة[١].

٢- عقائد الصابئة وطقوسهم:

لا يهمنا من هذا الجانب لا دراسة الملامح العرفانية عندهم ومن أراد الوقوف على عقائدهم وطقوسهم فعليه بالرجوع إلى[٢]:

ولكن الذي يهمنا هو معرفة ملامحهم العرفانية التي أثرت في ملامح من بعدهم.

المطلب الخامس: الملامح العرفانية للصابئة:

قبل أن نذكر ملامحهم العرفانية لابد لنا أن نبحث في:

أولاً: منبع ملامحهم العرفانية (تأثير الملامح العرفانية السابقة عليهم في تشكيل ملامحهم):

إذا نظرنا إلى ملامح الصابئة العرفانية سنجدها قد تأثرت بالملامح العرفانية السابقة عليها وتشكلت وتكونت من أمشاج عرفانية وثنية، وفارسية، وهرمسية سابقة

---

(١) أنظر الصابئة الشيخ السيد عبد الرازق الحسيني ص ٢٠.

ويجب أن ننبه أن الصابئة التي ذكرها القرآن الكريم قد سكنوا بلاد العرب قبل الإسلام وقبل اليهودية والنصرانية وبادت وانقرضت فأصبح من المتعذر علينا بيان معتقدهم بالتفصيل ويجب أن ننبه إلى أنه الموجود إلى الآن الصابئة الحرانية، وهم أقرب إلى الصابئة الحرانية، القديمة يعيشون الآن على ضفاف دجلة والفرات وليس لهم معابد مقدسة أما صابئة البطائح وهم يعيشون في بطائح العراق وقد يكون هؤلاء الصابئة الأصليون أولا يكونون إلا أن الشيء المحقق هو أن قسماً كبيراً من عبادة الصابئة القديمة وطقوس دينهم بارزة عند صابئة البطائح أنظر الصابئة ص ٢٥.

(٢) أنظر الملل والنحل للشهرستاني جـ / ٥ : ٥٦.

الصابئة ص ٢٧ : ٤٧.

عليهم وما نسب إلى "أغاثا ذيمون" الذي ينظر البعض إليه كنبي عند المصريين والحرانيين وأوزاني وسولون جد أفلاطون لأمه واليهودية والمسيحية[١].

١- أثر الاتجاه العرفاني المصري القديم لهرمس على الملامح العرفانية للصابئة من ناحية أن الإشراق هو طريق المعرفة، والوحدة الإلهية كما ذكرت ذلك سابقاً عند الملامح العرفانية لدى قدماء المصريين اتجاه هرمس الحكيم. فالصابئة بجميع فرقها ينسبون حكمهم المصبوغة بصبغ الملامح العرفانية – التصوف، والأسرار المكنونة إلى هرمس[٢].

٢- <u>تأثروا في ملامحهم العرفانية عن النفس بالملامح العرفانية للنفس عند أرسطو:</u>

تذهب الصابئة إلى النفس الشريرة إذا فارقت هيكلها حبست في الأثير وهي نار في أعلى علو العالم، وأن النفس الخيرة التي حصلت على الفضائل تعود إلى عنصرها الأزلي، يذهب – أرسطو – إلى أن العلو الأعلى محل الخلود وأن السفل الأسفل محل الموت.

ويتفقون مع أرسطو – أيضاً – في أن النفس داركة لا تبيد، وأنها جوهروليست بجسم ولا نلحقها لو أحق الجسم وأنهم تأثروا بكتابة – النفس[٣].

ثانياً: الملامح العرفانية – التصوف – عند الصابئة:

تتمثل المعرفة السمتية – التصوف – عند الصابئة فيما يأتي:

١- التناسخ:

التناسخ عندهم هو أن تتكرر الأكوار والأدوار إلى ما لا نهاية له، ويحدث في كل دور مثل ما حدث في الأول، والثواب والعقاب في هذه الدار؛ لا في دار أخرى لا عمل فيها.

---

(١) أنظر نشأة الفكر الفلسفي جـ ١، ص ٢١٣، ٢١٤، والصابئة ينسبون مقالتهم كلها إلى عاذيمون، هرمس، أعيانا، وأواذي – الملل والنحل جـ ٥٦.

(٢) أنظر الملل والنحل للشهرستاني جـ ٢، ص ٤٥.

(٣) أنظر نشأة الفكر الفلسفي جـ ١، ص ٢١٤، ٢١٥.

والأعمال التي نحن فيها إنما هي أجزية على أعمال سلفت منا في الأدوار الماضية، والفرح والدعة، والراحة والسرور التي نجدها هي مترتبة عن أعمال البر التي سلفت منا في الأدوار الماضية، والغم والحزن، والضنك والكلفة التي نجدها هي مترتبة على أعمال الفجور التي سبقت منا.

وكذا كان في الأول، وكذا يكون في الآخر، والانصرام من كل وجه غير منصور من الحكيم.

ونشأ أصل التناسخ من هؤلاء القوم[1].

٢- الحلول

أما الحلول فهو التشخيص.

إذن الحلول مبني على قاعدة عرفانية عندهم هي التشخيص إذن فما هو التشخيص؟

التشخيص:

قالوا عنه:

إن الصانع المعبود واحد وكثير.

أما واحد ففي الذات والأول والأصل والأزل.

وأما كثير فلأنه يتكسر بالأشخاص في رأي العين، وهي المدبرات السبعة والأشخاص الأرضية الخيرة، العالمة، الفاضلة. فإنه يظهر بها، ويتشخص بأشخاصها ولا تبطل وحدته في ذاته.

وهو الذي أبدع الفلك وجميع ما فيه من الأجرام والكواكب، وجعلها مدبرات هذا العالم، وهم الآباء، والعناصر أمهات والمركبات مواليد، والآباء أحياء ناطقون، يؤدون الآثار إلى العناصر فتقبلها العناصر في أرحامها، فيحصل من ذلك الموالد. ثم من المواليد قد يتفق شخص مركب من صفوها دون كدرها ويحصل له مزاج كامل الاستعداد، فيشخص الإله به في العالم يترتب على التشخيص الحلول إذن ما هو الحلول؟

---

(١) أنظر الملل والنحل للشهرستاني جـ ٢، ص ٥٤.

أنظر كذلك الصابئة ص ٣٤، أصل فكرة التناسخ عند الصابئة.

الحلول فهو التشخيص المذكور عاليه، وربما يكون ذلك بحلول ذاته، وربما يكون بحلول جزء من ذاته؛ على قدر استعداد مزاج الشخص.

وقالوا: إنما تشخص بالهياكل السماوية كلها، وهو واحد، وإنما يظهر فعله في واحد واحد بقدر آثاره فيها وتشخصه به.

فكأن الهياكل السبعة أعضاؤه السبعة وكأن أعضاءنا السبعة هياكله السبعة فيها يظهر فينطق بلساننا، ويبصر بأعيننا، ويسمع بآذاننا، ويقبض ويبسط بأيدينا، ويجيء ويذهب بأرجلنا، ويفعل بجوارحنا.

وأصل الحلول من هؤلاء القوم[١].

٣- الفيض:

هو أن الله تعالى تام العلم والحكمة: أما كونه تام العلم فلأنه قديم وعالم بجميع الأشياء لا يعرض له سهو ولا غفلة.

وأما أنه تام الحكمة فلأن المراد بذلك أنه يفعل ما هو أليق وأحسن ويفيض على المواد من الصور ما هو أليق بما فتمامه أنه بلغ النهاية التي لا يمكن أن تكون فوقها مرتبة أخرى وأفعاله كلها تعلل بالمصالح والحكمة.

ثم يفيض عن الله العقل كفيض النور عن القرض، فهو علة موجبة لوجود جوهر مجرد عن المواد، ليس بمتحيز ولا في المتحيز كما أن فيضان النور عن قرص الشمس والضوء عن السراج والإحراق عن النار ليس بالقصد والاختيار بل بالإيجاب، وفيضان هذا الجوهر من الله تعالى ليس قصداً ولا اختياراً بل إيجاباً، وهو الذي صدر أولاً عن الله قصداً، وأما ما عدا فصدر عنه تعالى بواسطة مستنداً على الأصل أن الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد[٢].

---

(١) أنظر الملل والنحل للشهرستاني، جـ ٢، ص ٥٦.

(٢) أنظر نشأة الفكر الفلسفي جـ ١، ص ٢١٧ بتصرف يسير.

٤- النفس عندهم:

هي جوهر مجرد، وأنها قديمة وعلة لحياة الأجسام، وعليتها لها إنما هي على سبيل الإيجاب، كفيض النور عن قرص الشمس، لكنها جاهلة لا تعلم حقائق الأشياء وماهيتها، ولا تعلم العلوم التصديقية إلا بعد أن تمارسها، ثم أوجد الله الهيولي وتعلقت بها النفس فأحدث الله فيها الصورة، فتعيناتها أو خلقها إنما حدث في الهيولي القديمة ثم إن الدهر هو الزمان والمكان هو الخلاء.

والنفس الشريرة إذا فارقت هيكلها حبست في الأثير وهي نار في أعلى علو العالم، وأن النفس الخيرة التي حصلت على الفضائل تعود إلى عنصرها الأول[١].

٥- الخير والشر عندهم:

الصابئة ترى أن الخير والشر موجودان من قبل الإنسان ويحدثان بفعله وأن إرادته الحرة واختياره المطلق هو الذي يجعله مسئولاً أمام الله، وهم يرون أن الله قد بين للإنسان طريق الخير وطريق الشر فله الحرية المطلقة في إتيان ما يشاء وترك ما يشاء[٢].

من أجل ذلك قالوا: إن الله أجل من أن يخلق الشرور والقبائح والأقذار والعقارب والحياة بل هي كلها واقعة ضرورة عن اتصالات الكواكب سعادة ونحوسة واجتماعات العناصر صفوة وكدرة فما كان من سعد وخير وصفو فهو المقصود من الفطرة، فينسب إلى الباري تعالى وما كان من نحوسة وشر، وكدر، فهو الواقع ضرورة فلا ينسب إليه، بل هي إما اتفاقيات وضروريات وأما مستندة إلى أصل الشرور والاتصال المذموم[٣]، وبهذا عزلوا الإله عن الحياة.

٦- نظرية المعرفة:

تتلخص في أخدهم المعرفة من العلويات الروحانية أو الكواكب بواسطة الإشراق[٤].

ثالثاً: تأثير الملامح العرفانية للصابئة على الملامح العرفانية لغيرهم:

---

(١) أنظر نشأة الفكر الفلسفي جـ ١، ص ٢١٧ ، ٢١٤ بتقديم وتأخير.

(٢) الصابئة، ص ٢٣.

(٣) أنظر الملل والنحل للشهرستاني، جـ ٢، ص ٥٦ بتصرف يسير.

(٤) أنظر علم التصوف ١٩٢ بتصرف.

لقد أثرت الملامح العرفانية – التصوف – للصابئة على الملامح العرفانية لغيرهم ويتجلى ذلك في الآتي:

أولاً: تأثيرها على المسيحية:

أثرت الملامح العرفانية للصابئة على الملامح العرفانية لبعض المسيحيين وهم الرهاويون الذين بنواحي خراسان ويذهبون مذهب الحرانية من الصابئة.

وفي عصرنا هذا نموذج حي لفرقة صابئة ما زال أفرادها يعيشون حتى الآن في العراق يعرفون باسم نصارى يحيى ويؤمنون بيحيى كالمسيح الجديد وينكرون نبوة عيسى أشد الإنكار(١).

ثانياً: تأثيرها على الفكر الإسلامي:

يتجلى هذا التأثير في الآتي:

١- أثرت فيما بعد في الإسماعيلية الباطنية التي انتشرت في واسط، وكانت واسط إحدى مراكز أولاد عبد الله بن ميمون القداح.

وأثرت في الإسماعيلية تأثيراً كاملاً في قولهم "إن للعالم علة لم تزل، والمدبرات سبع واثنى عشرة".

وفي قولهم "بمذهب الجواهر الخمسة" وأن هذا المذهب أثر أيضاً عن الخليفة المعز الفاطمي(٢).

٢- أثرت في طائفة – الكيسانية التي عاشت في سواد العراق وهناك من يرى أن حمدان بن الأشعث بقرمط كان صابئياً(٣).

٣- أثرت في الفيلسوف الكندي وأعجب بكتبهم وتبنى آرائهم فيقول "لا يجد الفيلسوف إذا أتعب نفسه مندوحة عنها والقول بها"(٤).

٤- أثرت في الفيلسوف محمد بن زكريا الرازي حيث قال مقالتهم في النفس كما ذكرت ذلك آنفاً(٥).

---

(١) أنظر نشأة الفكر الفلسفي جـ ١، ص ٢١٤، ٢١٩ بتصرف.

(٢) أنظر نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ ١، ص ٢١٣، ٢١٧ بتصرف شديد.

(٣) المرجع السابق، جـ ١، ص ٢١٣.

(٤) المرجع السابق نفسه، جـ١ ، ص ٢١٤.

(٥) المرجع السابق نفسه، جـ ١، ص ٢١٧.

٥- الفيلسوف الفارابي كان حرنانياً وأنه عاش في حران وتلقى تعاليمها وتأثر بها[١].

٦- أثرت فيما بعد في الدروز والقرامطة في قولهم "بوجود أكثر من آدم"[٢].

٧- أثرت في الفيلسوف الصوفي الباطني ابن مسرة ومدرسته[٣].

وعلى أية حال فقد كان لهم تأثير كبير في التشيع وفي التصوف عند البعض وبخاصة فيما يتعلق بمصدر الإلهام والمعرفة من العلويات الروحانية أو الكواكب والتركيز على السمو الروحي وأفكار وأساليب التطهير[٤].

وقد ترك لنا الشهرستاني وصفاً ممتعاً للصابئة أصحاب الروحانيات نجمله فيما يأتي:

أما الصابئة فمذهبهم أن للعالم صانعاً، قاطراً، حكيماً، مقدساً عن سمات الحدثان. والواجب علينا – أي على الصابئة – معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله، وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه وهم الروحانيون المطهرون المقدسون – جوهراً وفعلاً وحالة أما معنى أنهم فهم مقدسون عن المواد الجسمانية، والتغيرات الزمانية، قد جبلوا على الطهارة، وفطروا على التقديس والتسبيح لا يعصون الله أبداً ويفعلون ما يأمرهم الله به.

والواجب الأول على الصابئي أن يطهر نفسه عن دنس الشهوات الطبيعية، وأن يذهب أخلاقه عن علائق القوى الشهوانية والغضبية، حتى تحصل مناسبة ما بينه وبين الروحانيات، فحينئذ يتشبه أو يتناسب مع الروحانيات، فإذا تشبهنا بهم، كانوا شفعاءنا عند الله، وهذا التطهير والتهذيب إنما هو "باكتسابنا" فيحصل لأنفسنا استعداد واستمداد من غير واسطة بشرية، لا فضل لرسول أو نبي علينا – إننا من طبيعته وهو من طبيعتنا إنه من نفس نوعنا وصورتنا ومادتنا، فالصابئة تنكر الأنبياء واسطة بينهم وبين الله.

---

(١) أنظر نشأة الفكر الفلسفي، جـ١، ص ٢١٧.

(٢) المرجع السابق، جـ ١، ص ٢١٧.

(٣) أنظر نشأة الفكر الفلسفي، جـ ١، ص ٢١٧ بتصرف يسير.

(٤) أنظر علم التصوف، ص ١٩٢.

أما معنى أنهم مقدسون فعلاً. فذلك، لأن الروحانيين هم الأسباب المتوسطون في الاختراع والإيجاد وتصريف الأمور من حال إلى حال، وتوجيه المخلوقات من مبدأ إلى "كمال" يستمدون القوة من الحضرة الإلهية المقدسة ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية. وهذه الموجودات الروحانية تدبر الكواكب السبع وهياكلها. ولكل روحاني هيكل، أو بمعنى أدق، الروحاني للهيكل بمثابة الروح للجسد. ومن الهياكل تحصل انفعالات، فتحدث الموجودات مندرجة إلى أسفل.

أما إنهم مقدسون حاله فأحوال الروحانيات من الروح والريحان واللذة والراحة والبهجة والسرور في جوار رب الأرباب، كيف يخفى ثم؟ وهم يقضون حياتهم في التسبيح والتهليل، ويأتنسون بذكر الله لا طعام ولا شراب ولا حياة مادية، إنما قيام وركوع وسجود. حالة لا تتبدل فيها من البهجة واللذة، خاشعة أبصارهم لا ترفع ولا تطرف، وناظرة عيونهم لا تغمض. بعض في سكون مطلق، وآخر في حركة مطلقة، وبعضهم "كروبي" أي مقرب في عالم الفيض، وبعضهم "روحاني" في عالم البسط[1].

ولقد استخدم الشهرستاني ألفاظاً صوفية بضفيها عليهم وبالتالي نحن أمام نوع خطير من الغنوص التي تكلمنا عنه عند الصابئة.

وبذلك نكون قد انتهينا من المبحث الأول من الفصل الرابع.

---

(١) أنظر الملل والنحل للشهرستاني، جـ ٢، ص ٦ : ٨ بتصرف شديد.

وأنظر كذلك نشأة الفكر الفلسفي جـ ١ صـ ٢١٨.

المبحث الثاني
الملامح العرفانية - التصوف - عند اليهود
مدخل

اليهود هم أمة سيدنا موسى عليه السلام، وكتابهم التوراة، وهو أول كتاب نزل من السماء، لأن ما نزل على سيدنا إبراهيم وغيره –من الأنبياء– عليهم السلام قبله ما كان يسمى كتابا بل صحفا(١).

إن الدراسات الجادة تؤكد أن كتاب اليهود المقدس –العهد القديم– الحالي ليس هو التوراة الحقيقية وإن الصفة البشرية والإضافة فيه واضحة، وهذا ما أكده القرآن الكريم بطريق يقيني وهو الوحي(٢).

"فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون. (البقرة ٧٩).

"فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به" (المائدة ١٣).

من أجل ذلك.

هاجم الإسلام اليهودية وأعلن أنها بدلت كتابا تبديلا، وخاطب القرآن قلوبهم، كما خاطب عقولهم وأن ما حرفوه وغيروه وبدلوه إما تحريفا من حيث الكتابة والصورة، وإما تحريفا من حيث التفسير والتأويل(٣).

أما من حيث الكتابة والصورة فالتوراة خضمت لتغييرات وتحريفات وحذف منها الكثير وأما من حيث التفسير والتأويل فقد أولوا وفسروا في نص التوراة الموجود بين أيديهم الخاص بالبشارات الكبرى بظهور النبي محمد صلى الله عليه وسلم(٤).

لم يكن لليهود تاريخ فكري أو أصالة عقلية أو فلسفية فقد كانوا في الأرض أشتاتا –يعيشون هنا وهناك، وقد أنزلت بهم المسيحية ضرباتها العنيفة فتوزعوا في

---

(١) أنظر الملل والنحل جـ ١ ص ٢١١ بتصرف.

(٢) أنظر علم التصوف ١٨٩.

(٣) أنظر الملل والنحل، جـ ١، ص ٢١٢ بتصرف يسير.

(٤) أنظر نشأة الفكر الفلسفي، جـ ١ ص ٦٦ بتصرف.

الأرض. ليس ثمة رباط. عقلي أو فكري سوى إيمانهم بالتوراة في غموض وإبهام لم يعرفه مجتمع من المجتمعات وكانوا حيثما حلوا كانوا المجتمع المغلق[١].

ومن هنا فإننا إذا أردنا أن نبحث عن الملامح العرفانية للفكر اليهودي أو في الفكر اليهودي فإنه لابد لنا من المطالب الآتية:

المطلب الأول
الآراء في تسميتهم باليهود

تعددت الآراء في سبب تسميتهم بهذا الإسم.

هاد الرجل أي رجع وتاب.

١- يلزمهم هذا الإسم –يهود– لقول موسى عليه السلام "إنا هدنا إليك" أي رجعنا وتضرعنا[٢].

٢- سموا بيهود من أجل قوله تعالى "إنا هدنا إليك"[٣].

٣- قيل سموا بذلك حين تابوا من عبادة العجل.

٤- سموا بذلك، لأنهم نسبوا إلى يهوذا أكبر أولاد يعقوب وقالت العرب بالدال للتعريف، لأنهم إ ذا نقلوا أسماء من العجمة إلى لغتهم غيروا بعض حروفها.

٥- سموا بذلك لتهودهم عند قراءة التوراة أي يتحركون أثناء قراءتها[٤].

٦- سموا بذلك من قولهم "هدنا غليك" أي ملنا إليك.

والمدار كله يدور حول قوله تعالى "إنا هدنا إليك".

فمن نظر إلى نفس اللفظة سماهم –يهود– من هاد.

ومن نظر إلى معنى الكلمة تعددت معانيها حول هاد، تاب ورجع، هاد تحرك، هاد: مال.

ومن نظر إلى النسب. أي انتسابهم إلى يهوذا بالذال وحينما نقلت إلى العربية –على رأي هؤلاء– غيرت الذال إلى الدال للدلالة على النسب والانتقال من لغة الأعاجم إلى اللغة العربية والتعريف.

---

(١) المرجع السابق، نفسه جـ ١، ص ٦٤.

(٢) أنظر الملل والنحل جـ ٢، ص ٢١٠.

(٣) تفسير الكشاف، جـ ١، ص ٢٨٥.

(٤) تفسير الرازي، جـ ١، ص ١٠٥.

والذي أميل إليه هو "اليهود" لأن القرآن الكريم أطلق عليهم هذا الاسم" "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم". (البقرة:١٢٠).

المطلب الثاني
فرقهم ومسائلهم

نحن نذكر منها أشهرها وأظهرها عندهم، ونترك الباقي هملا وهذه الفرق هي:

١- العنانية. ٢- العيسوية.

٣- المقاربة واليوذعانية. ٤- السامرة[١].

ومسائلهم كلها تدور حول:

١- النسخ جوازه ومنعه. ٢- التشبيه ونفيه.

٣- القول بالجبر والقدر. ٤- تجويز الرجعة وعدمه[٢].

وهذا ليس موضوع كتابنا ومن أراد الغطلاع على عقيدتهم في الألوهية وغيرها فليرجع إلى[٣]:

وإنما موضوعنا هنا الملامح العرفانية عندهم وهذا ما سنبحثه في المطلب الثالث.

المطلب الثالث
الملامح العرفانية -التصوف- عند اليهود

سنتناول في هذا المطلب ثلاث نقاط مهمة.

أولا- النقطة الأولى: منبع ملامحهم العرفانية

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني، جـ١، ص ٢١٥ : ٢١٩.

(٢) المرجع السابق، نفسه، جـ ٢/ ٢١١، ٢١٢.

(٣) علاوة على ما سبق. ١- بنوا إسرائيل في الكتاب والسنة. أ.د محمد سيد طنطاوي.

٢- شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل، الإمام عبد الله عبد الله بن يوسف الحويني.

٣- اليهودية، أ.د أحمد أحمد غلوش. ٤- دراسات في الأديان والمذاهب، أ.د عبد الغفار عزيز وآخرون.

٥- اليهود من كتابهم المقدس إعداد الحياة الإنسانية، كمال أحمد عرن.

٦- تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، الأستاذ محمد عزة دروزة.

٧- دراسات في التوراة. الشيخ/ عطية إبراهيم الشوادفي. ٨- التوراة عرض وتحليل، د. فؤاد حسنين علي.

٩- اليهود نشأتهم وعقيدتهم ومجتمعهم من واقع نصوص التوراة، المحامي/ زكي شنودة.

١٠- اليهودية، الأستاذ/ أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلواني.

١١- الأسفار المقدسة، أ.د/ علي عبد الواحد وافي.

وغير ذلك من الكتب التي لا يتسع المقام من ذكرها علاوة على رسائل الدكتوراه والماجستير المسجلة في هذا الموضوع في كلية أصول الدين والدعوة، جامعة القاهرة.

تأثير الملامح العرفانية في الملامح العرفانية لليهود:

مما لاشك فيه أن أقوام بني إسرائيل الضالة كانت مائجة الفكر والروح، تحمل في طياتها بذور الوثنية والأفكار الأخرى التي ورثتها عن مصر.

وأن رحلاتهم المتعددة والمستمرة في النفي كانت سببا مباشرا في تأثرهم بمختلف النحل والمذاهب كاليونانية والهندية، والفارسية والمسيحية والعربية وانعكس ذلك على ملامحها العرفانية فجاءت ملامحهم العرفانية خليطا ممتزجا بالملامح العرفانية للنحل والمذاهب السابقة نظرا لتأثير الملامح العرفانية لتلك المذاهب السابقة الواضح على الملامح العرفانية اليهودية وتجل ذلك التأثير فيما يلي:

أولا: تأثير التصوف الشرقي على الملامح العرفانية لليهود:

١- تأثير الملامح العرفانية للمصريين القدماء على التصوف اليهودي. لقد أثرت الملامح العرفانية للمصريين القدماء على الملامح العرفانية عند اليهود وتجلى ذلك في:

صدور الكائنات عن مصدر واحد.

الاعتقاد بخلود النفس ومغايرتها للجسد.

البذور الأولية للأفلاطونية الحديثة التي أثرت فيما بعد في الملامح اليهودية. كما ذكرت ذلك سابقا(١).

٢- تصوف بلاد النهرين.

لقد أثرت الملامح العرفانية للكلدانيين على الملامح العرفانية لليهودية وتجلى ذلك في:

- وحدة الوجود حينما نفي اليهود إلى بابل تأثروا بالكلدانيين في طرق حياتهم وفي معتقداتهم وبالملامح الع رفانية عندهم ومنها وحدة الوجود.

- الرجعة لقد انتقلت من الكلدانيين فلقد اعتقدوا برجوع هابيل بعد أن قتله أخاه حسدا فأثر هذا الملمح في اليهودية وآمنوا بالرجعة(٢).

---

(١) أنظر نشأة الفكر الفلسفي جـ ١، ص ٧٣ بتصرف شديد.

(٢) أنظر الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، د. محمد البهي ص ٩٨ بتصرف شديد.

٣- الملامح العرفانية –عند اليهود- تصوف الهنود:

لقد أثرت الملامح العرفانية للهنود على الملامح العرفانية لليهود وتجلى هذا في الملامح الآتية:

- مبدأ الحلول فقد انتقل هذا الملمح إلى اليهود عن طريق فيلون – اليهودي[١].

التشبيه لقد انتقل إلى اليهود عن طريق الملامح العرفانية للبرهمية التي تعتقد بوجود شبه بين الله وبين الإنسان والتشبيه معناه –تقريب المعبود من الإنسان وتوثيق أواصر الشبه بينهما، فما يتصوره الإنسان في دائرته يحمله كذلك على مبعوده[٢].

٤- الملامح العرفانية للفرس- تصوف الفرس:

لقد أثرت الملامح العرفانية للفرس على الملامح العرفانية لليهود وتجلى هذا التأثير في الملامح الآتية:

- المسيح المنتظر لقد انتقل هذا الملمح إلى اليهودية عن طريق الزرادشتيه لاعتقادهم بالمسيح المنتظر.

فعندما ضغطت قوة اليهود وهزما أعداؤها ذهب اليهود يرجون ظهور مخلص لهم وهو المسيح المنتظر من سلالة الملك داود يستطيع إعادة المملكة اليهودية كما كانت عليه أيام داود وسليمان[٣].

- وجود قوتين تعلم اليهود من الفرس أن هناك في الوجود قوتين إلها يسيطر على الخير يحارب قوة أخرى هي روح الشر[٤].
- الاعتقاد في حياة أخرى بعد الموت كان من الملامح العرفانية التي أخذها اليهود عن الفرس –الزرادشتيه. الاعتقاد في حياة أخرى بعد الموت ولأول مرة عرفوا –أيضا- أن هناك جنة ونارا فنقلوا ذلك إليهم[٥].

---

(١) أنظر نشأة الفكر الفلسفي، جـ ١، ص ٧٥ بتصرف شديد وكذلك تأثيرهم في وحدة الوجود عند اليهود.

(٢) أنظر الجانب الإلهي، ص ٨٨.

(٣) أنظر قصة العقائد صـ ٣١٩ بتصرف شديد.

(٤) أنظر المرجع السابق نفسه، ص ٣١٨ بتصرف شديد.

(٥) أنظر المرجع السابق نفسه ص ٣١٨.

لقد تأثر اليهود بالفرس في معتقداتهم الدينية ونقلت إليه ملامحهم العرفانية وقد نفذت معتقدات الزندافستا – في إصحاحات العهد القديم: حزقيال وزكريا ودانيال وتركت آثارا يستطيع الباحثون في العهد القديم أن يجدوها بسهولة. وإذا كانت الزندا فستا لا تدعو إلى التوحيد وإنما تدعو إلى الأيلية ولكنها في الوقت نفسه تحارب الوثنية ولهذا فضلها اليهود وانعكست كثير من عناصر الزندافستا في العهد القديم.

كما أن الروحية التي تشع في الدين الفارسي جعلت اليهود ينجذبون إليها ويتفتح مجتمعهم المغلق الكبير لكثير من عناصر الزرادشتية العرفانية وأصبحت جزءا لا يتجزأ من ملامح اليهود العرفانية(١).

ثانيا: تأثير التصوف الغربي على الملامح العرفانية لليهود:

لقد أثرت الملامح العرفانية اليونانية –التصوف الغربي– في الملامح العرفاينة لليهودية وتجلى ذلك في:

الرمزية:

فقد انتقلت إلى الملامح العرفانية لليهود عندما شرح اليهود التوراة شرحا رمزيا بعد أن أجادوا اللغة اليونانية ونسوا اللغة العبرية لجعل الت وراة مقبولة عند اليونان(٢).

– لقد تأثر "فيلون" اليهودي بالفلسفة اليونانية وأجاد اللغة اليونانية قراءة وكتابة ونقل بالتالي الملامح العرفانية لايوناينة لتصبح ملامح عرفانية لليهود ويتجلى ذلك في:

– الرمزية.

– الوجود الإلهي إن الوجود الإلهي عند –فيلون– هو الكمال المطلق، بحيث لا يمكن أن نعلمه بإدراك عقلي أو إدراك في مجال العقل الإنساني.

حينئذ انهارت التشبيهات الغليظة وصور التجسيمات التي أوردها العهد القديم.

وقد ذهب فيلون بعدا في التفسير الرمزي بحيث تكاد تنقطع صلته بالتوراة.

---

(١) أنظر نشأة الفكر الفلسفي، جـ ١، ص ٧٣ بتصرف شديد.

(٢) أنظر نشأة الفكر الفلسفي جـ ١، ص ٧٤.

إنه يقرر إن كل تشبيه ورد في التوراة إنما يجب أن يؤول، كما أن الله ليس إله العبرانيين أو إله الإسرائيليين فقط وإنما هو إله العالم جميعا وأسماؤه تدل على الكلية، فهو الموجود والموجود حقا وهو العلة الأولى، وأبو العالم وملكه ونفسه وروحه.

وهو يؤول قول التوراة "غله إبراهيم، وإسحاق ويعقوب" أشد تأويل فإبراهيم عنده هو العلم، وإسحاق هو الطبيعة، ويعقوب هو الزهد.

إن الأسماء الثلاثة لا تعني أبدا أنبياء بني إسرائيل وإنما هي المصادر الثلاثة عنده- للمعرفة بالله تعالى(١).

نظرية المثل الأفلاطونية، والفيض الإلهي:

لقد نقلها فيلون اليهودي من الملامح العرفانية اليونانية وأصبحت ملامح عرفانية لليهودية.

يقول: فيلون -اليهودي- إن الله هو شمس الشمس أي أنه الشمس المعقولة للشمس المحسوسة والله مجرد، كما هو مثال، أو مثال المثل، فلا تجليات له، وهو بصدد عملية الخلق. إن العالم هو عمل قوي متوسطة، تشارك في الماهية الإلهية، وبواسطتها يتجلى الله في الوجود، كما تتجلى آثار الشمس في أضوائها. وبهذه الوسيلة هو موجود دائم، ح اضر في كل شيء، فعال هو في الأشياء الفائضة منه بدون أن ينفعل على الإطلاق.

أما الوسطاء الذين يفعل الله من خلالهم فكثيرون فالوسيط الأول -اللوجوس- أو الكلمة- ابن الله- نموذج العالم، ويليه الحكمة، ثم رجل الله أو آدم الأول، ثم الملائكة، ثم نفس الله، وأخير القوات، وهي كثيرة ملائكة وجن ناريون وهوائيون ينفذون الأمر الإلهي(٢).

ثالثا: تأثير المسيحية:

لقد أثرت المسيحية -النصرانية- في اليهودية تأثيرا مباشرا.

---

(١) أنظر نشأة الفكر الفلسفي، جـ١، ص ٧٤ بتصرف شديد.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي جـ١ ص ٧٥ أنظر تأثير يهود الإسكندرية، يهود فلسطين، ويهود مصر بهذه الملامح ونسيانهم اللغة العبرية وتعلمهم اللغة اليونانية وترجمتهم للتوراة ترجمة رمزية يونانية جـ ١/ ٧٥.

فحينما ظهرت المسيحية عاداها اليهود أشد المعاداة وبدأ الصراع العنيف بينهما وإذا كان اليهود قد ازدهروا من الناحية العقلية والفلسفية والعرفانية فإن القرون المسيحية الثلاثة الأولى قد قضت على كل تقدم عقلي وغيره لدى اليهود وتوزعوا بعد نكبتهم في القدس في كل البلدان، وتفرق علماء اليهود هاربين من انتقام الرومان، ولم يعد لهم أمل في أن يجعلوا بيت المقدس مركزا الثقافة لليهود أو الرمز الذي تتجمع فيه آمال الأمة اليهودية.

لقد كان هم هؤلاء العلماء الأكبر أن يجمعوا اليهود في كل بلد حلوا فيه كجماعة دينية وبدءوا في أواخر الربع الأول ن القرن الثالث الميلادي يجمعون جميع تعاليم الفروسيين، وكان معظم اليهود من هذه الطائفة في كتابهم المقدس –المشنا.

وكان هذا الكتاب حصيلة عمل مستمر في مدى ثلاثة قرون وكان اليهود المشتتون قد حملوا معهم النصوص القديمة لكتبهم المقدسة فأخذوا يعملون لتقويمها وتحقيق نصوصها على حسب فهمهم.

وإذا ما حاولنا أن نبحث عن أي أثر عقلي أو فلسفي أو عرفاني في الحواش والشروح المتعددة التي وضعت خلال ستة قرون من العهد المسيحي سواء في التلمود أو في التفسيرات البلاغية أو الرمزية للتوراة فإننا لا نجد شيئا هاما بل نجد آثارا تختص بالجن والشياطين والسحر والشعوذة والأسرار الخفية.

هكذا عاش اليهود في ظلال المسيحية[1].

(١) أنظر نشأة الفكر الفلسفي، جـ١، ص ٧٧، ٧٨ بتصرف يسير.

رابعا- تأثير الملامح العرفانية للعرب قبل الإسلام :

لقد أثرت الملامح العرفانية للعرب أيام سيدنا إسماعيل عليه السلام في الملامح العرفانية لليهود وتجلى ذلك في.

العلم اللدني فقد كان الأسباط من بني إسرائيل يراجعون القبائل من بني إسماعيل ويعلمون أنه نشأ في ذلك الشعب –أولا إسماعيل– عليه السلام علما لدنيا لم تشتمل التوراة عليه[١] وبالتالي تأثروا به ونقلوه إلى ملامحهم العرفانية.

إذن بناء على ما سبق كله تكون الملامح العرفانية عند اليهود مأخوذة من غيرهم ومنقولة إليهم ومنهم وهي:

١- صدور الكائنات عن مصدر واحد.

٢- النفس خالدة والجسد مغابر للنفس.

٣- وحدة الوجود. ٤- الرجعة. ٥- الحلول.

٦- التشبيه. ٧- المسيح المنتظر. ٨- وجود قوتين.

٩- الاعتقاد في حياة أخرى بعد الموت. ١٠- الرمزية.

١١- الفيض الإلهي. ١٢- نظرية المثل. ١٣- العلم اللدني.

ثانيا: النقطة الثانية الملامح ال عرفانية عند اليهود.

علاوة على الملامح العرفانية المذكورة آنفا التي انتقلت إلى الملامح العرفانية لليهودية وأصبحت ملامح عرفانية لها فإن لايهودية كدين كانت تحتوي على عنصري الروح العرفاني ولاتشريع في صورته الصحيحة، قبل أن يتعرض هذا وذاك لألوان من التحريف الخطيرة.

الغنوصية اليهودية[٢] (المعرفة عندهم).

---

(١) أنظر الملل والنحل للشهرستاني، جـ ١، ص ٢١٣ بتصرف شديد.

(٢) الغنوص كما قلت سابقاً هي كلمة يونانية الأصل معناها. المعرفة. غير أنها أخذت بعد ذلك معنى اصطلاحياً هو التوصل بنوع من الكشف إلى المعارف العليا، أو هو تذوق تلك المعارف تذوقاً مباشراً بأن تلقى في النفس إلفاء فلا تستند على الاستدلال أو البرهنة العقلية.

لقد رأينا ونحن نعرض لليهودية –من قبل– كيف دخل الغنوص في أعماقها، إننا نجد آثرا منه في التلمود، سرى إليها من مجاورة اليهود للفارسيين، وهم في منفاهم، في بابل ثم اقتحم الغ نوص بيهود الإسكندرية، ثم يهود فلسطين.

وتبلورت الأفكار الغ نوصية في أعماق اليهودية فيما يطلق عليه اسم "القبالا" أو الكبالا "وكانت الكبالا" أكبر غنوصي سري متحرك في أرجاء العالم المعروف وقتئذ وقد كنت في كل مكان يعيش فيه اليهود تحاول أن تزحف على كل عقيدة، وأن تسيطر على مجتمع مدعيه أن بيدها الخلاص. وفي باطنها تحاول القضاء على كل عقيدة تخالف العقيدة اليهودية.

إن الكبالا اليهودية في جوهرها الغنوصي هي تشوف نحو معرفة العالم، وأصله، وحكومته وغايته ولكن هذه المعرفة لا تتكون عن طريق الفكر والبحث في المجرد من حيث هو بواسطة العقل، إنها تتحقق خارجا عن طريق العقل، بل بالتأمل والإشراق، ولابد للتوصل إلى هذه المعرفة من سلوك قاس، وتركيز داخلي وانعكاس باطني، ولذلك كان يفترض على المريدين لكي يصولا إلى حدود التكريس من مزاولة طوقس طويلة ومعقده.

وإذا كانت القبالة لغويا تعني التقليد، فإنها ترى أن التقليد ماسو تمام للحدس والذوق.

ومتطابق معهما فلا يمكن إذن فهم هذا التقليد إ لا بالغنوص، وهذا الغنوص هو الذي يفسر التقليد، وهنا يخرج التقليد عن معناه الحقيقي وعلى ذلك تكون القبال أو الكبالا هي الغنوصية اليهودية في أجلى مظاهر الغنوصية فقد زحقت الغنوصية على اليهودية، وسيطرت على كثي رمن عقائدها وقدمت لليهود:

- معرفة بالوجود، وبتكوين الوجود الداخلي وروحانيته تفسيراته المعروفة، مدعية أنها تضل إلى هذا بطرق تتجاوز العقل، وأنها تستلهم وحيا خاصا:
- أعلنت الغنوصية اليهودية أن مبادءها لا تكون إلا لحلقة محددة من المربدين لتصل بهم إلى الخلاص الفردي والجمعي.
- والغاية من ذلك كله أن تصل الغنوصية اليهودية إلى الحياة الباطنية للملكوت الإلهي ليعيش فيه خلص اليهود.

- ثم ما لبث الغنوصية (اليهودية أن اتخذت طريقين الكبالا العملية والكبالا النظرية. أما الأولى فهي تعليم السحر والشعوذة والثانية مذهبها الغنوص النظري[١].

ومن هنا نراهم قد قسموا المعرفة إلى أربع درجات:

١. معرفة أدنى بالنظر إلى المصنوعات.

٢. معرفة عن طريق الوسطاء.

٣. يلحق الإنسان بالكلمة "اللوغوس" الأعظم.

٤. إدراك الحق في ذاته عن ريق العبادة الباطنية والزهد"[٢].

إلى أن يصل إلى درجة:

- الفناء في خالقه[٣].
- القولة بالرجعة إنما وقع لهم من أمرين:

أحدهما: حديث عزيز- أماته الله مائة عام ثم بعثه.

الثاني: حديث هارون عليه السلام إذ مات في التيه وقد نسبوا قتله إلى موسى بألواحه. قالوا حسده، لأن اليهود كانوا أميل غليه منهم إلى موسى، واختلفوا في حال موته. فمنهم من قال إنه مات وسيرجع، ومنهم من قال غاب وسيرجع[٤].

وتكلموا عن صدور الموجودات عن الإله حتى تنتهي إلى المائدة، إلى الجسم الكثيف، وكيف تلخص الإنسان من هذا الجسم وكيف يعود إلى الإله الأعلى[٥].

---

(١) أنظر نشأة الفكر الفلسفي جـ ١، ص ١٨٧، ١٨٨ بتصرف.

(٢) أنظر علم التصوف، ص ١٩٥، بتصرف يسير.

(٣) أنظر الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، ص ٨٩، بتصرف يسير.

(٤) الملل والنحل للشهرستاني، جـ ١، ص ٢١٢.

(٥) الفكر الفلسفي جـ ١، ص ٨٨.

ثالثا النقطة الثالثة: تأثير الملامح العرفانية لليهود على الملامح العرفانية الأخرى

لقد أثر الغنوص اليهودي في الملامح العرفانية الأخرى تجلى ذلك في:

أولا تأثير الغنوص اليهودي على المسيحية:

لقد زحفت الغنوصية اليهودية على الغنوصية المسيحية النصرانية وأثرت في الملامح العرفانية المسيحية.

ولقد اتخذت طريقها باندفاع إلى قلب المسيحية فأثرت فيها واتخذت الكبالا طريقين:

١. الكبالا العملية فهي تعليم السحر والشعوذة.

٢. والكبالا النظرية مذهبها الغنوص النظري.

وقد اثر فيلون أكبر الأثر في القديس يوحنا الإنجيلي وأن كثيرا مما ذكره يوحنا الإنجيلي إنما هو مأخوذ من فيلون، وقال إن المسيح أبرز صفات الغنوص والمسيحية نفسها دين غنوص، ولكنها تقصر الغنوص على المسيح وحده، فالاتحاد المطلق بين العارف والمعروف، سواء في العرفان أو في المادة إنما كان بين الله والمسيح فقط. وهنا ظهر العنوض يحارب المسيحية في العصر الهليني، وتحاربه المسيحية، فبينما الغنوص يعلن أن المعرفة الإلهية قد يتذوقها تذوقا كاملا أو بالصورة التي تذوقها المسيح نفسه، كل من ألقى فيه الغنوص وتذوق سر الكلمة بحيث يعود جوهرا ربانيا، تقصر المسيحية "روح القدس" للمسيح والكلمة له.

ولذلك ترى سمعان أحد أحبار السامريين وأقدم يهودي بعد وفاة المسيح بقليل يعلن أن الغنوس ليس للمسيح فقط، وإنما يظهر في كل مكان وأن الإله الأعلى أظهر نفسه للسامريين كأب في شخصه هو، وأظهر نفسه لبقية اليهود في شخص المسيح، وسيظهر نفسه في كثير من الأماكن كروح القدس، وأن هذا الإظهار سيكون مستمرا ما دامت الدنيا، بل إنه هو الذي أعلن قدرته على منح روح القدس لمن يتطهر من مريديه، وقام بمعجزات من نوع معجزات المسيح فآمن به الكثيرون

وبقيت دعوتها زمنا طويلا، وكادت أن تقضي على المسيحية لولا قيام بعض أباطرة الرومان الذين اعتنقوا المسيحية بمقاومة السمعانية[١].

ثانيا: تاثير الغنوص اليهودي في بعض المسلمين:

أما عن احتمالات تأثير بعض المسلمين بـ٨هـ فهي كثيرة عن طريق اليهود أنفسهم الذين عاشروا العرب المسلمين منذ زمن يمتد إلى ما قبل البعثة المحمدية قد عرف المسلمون الغنوصية اليهودية ونقلت إليهم واتخذت الكبالا طريقني: الكبالا العملية كتعليم السحر ولاشعوذة والكبالا النظرية في صورة مذهبها النظري وسار الاثنان سويا وتسللت إلى العالم الإسلامي.

وتجلى هذا التسلل والتأثير في:

١- تأثيره في الثقافة الإسلامية وعلومها:

لقد تسرب الغنوص اليهودي عن طريق الإسرائيليات في التفسير والحديث وغيرها من العلوم الإسلامية مما جعل العلماء يشمرون عن ساعد الجد والاجتهاد ويكتشفون الدخيل من الإسرائيليات في الحديث والتفسير وغيرهما عن طريق علم الجرح والتعديل[٢] للقضاء على الإسرائيليات في الحديث والتفسير وفي العلوم الإسلامية.

ومن أبرز اليهود في تاريخ الثقافة الإسلامية.

وهب بن منبه. كعب الأحبار. ابن سبأ، وابن صوريا الذي حكى عنه أنه أرتد، ومما يلاحظ قيام سعديا ابن يوسف اليهودي بترجمة عربية للتوراة[٣].

٢- علم الكلام:

لقد وضعت الإسرائيليات –أي الأحاديث ذات الأصل اليهودي – في مجال: الإمامة والوصاية– أحاديث التشبيه والتجسيم ونشرها اليهود الذين اعتنقوا الإسلام.

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي، جـ١، ص ١٨٨.

(٢) أنظر بالتفصيل الإسرائيليات والموضوعات في كتاب التفسير المرحوم د/ محمد أبو شهبة.

الإسرائيليات في التفسير والحديث المرحوم أ.د/ محمد السيد حسين الذهبي وكل كتب علوم الجرح والتعديل والدخيل في التفاسير أو مصطلح الحديث رواية ودراية.

(٣) علم التصوف، ص ١٩٤.

وقد نبه الإمام الشهرستاني إلى هذا فقال:

وأما التشبيه، فلأنهم وجدوا التوراة ملأى من المتشابهات مثل الصورة والمشافهة والتكليم جهرا، والنزول عند طور سينا انتقالا، والاستواء على العرش استقرارا، وجوزوا الرؤية فوقا"[١].

وكذلك نشر اليهود أحاديث عن:

الميعاد، وأشراط الساعة، والمهدي المنتظر، والمسيح الدجال.

مما أثر فيما بعد في إنشاء فرق خارجة عن الإسلام فنشأت الحشوية، وأعقبها نشأة المشبهة ثم المجسمة[٢].

٣- الفلسفة:

لقد نشأ الفلاسفة اليهود بين المسلمين مثل إسحاق الإسرائيلي، وسعديا ابن يوسف، وابن جبرول، وابن ميمون، وأبو البركات البغدادي وكان لكثير منهم تأثر بالأفاكار الغنوصية، وما جاء عن طريق الأفلاطونية المحدثة على وجه الخصوص ويعد الأخير منهم –أبو البركات البغدادي– في نظر الدكتور أبي ريان "حلقة وسطى بين ابن سينا ومذاهب التصوف عند السهرودي وابن عربي[٣].

ومن الحقائق الضرورية المسلم بها لم يؤثرا عقليا أو فلسفيا في المسلمين ولكنهم نجحوا في إدخال عناصر تخريبية لدى الفرق الخارجة عن الغسلام، وبخاصة الباطنية وفي التشيع المغالي فيه ونجد ذلك واضحا في أصول القرامطة والباطنية والشيعة المغالى فيها[٤].

٤- التصوف:

لقد –ادعى– أخذ– فلاسفة الصوفية الإسلامية من فيلون اليهودي، الكبالا اليهودية الغنوصية حتى قيل إن محي الدين بن عربي إنما هو صورة أخرى من "فيلون" اليهودي.

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني، جـ ١/ ٢١٢.

(٢) أنظر نشأة الفكر الفلسفي، جـ١، ص ٧٠ بتصرف يسير.

(٣) علم التصوف، ص ١٩٤.

(٤) أنظر القضية برمتها نشأة الفكر الفلسفي، جـ ١، ص ٣: ٨٥، ٨٧.

وقد نفذت الكبالا اليهودية إلى أعماق المذهب الإسماعيلي.

وقد عرف المسلمون أيضا فرقة غنوصية تعيش في العالم الإسلامي وتزاول نشاطها وهي الشيلين ومؤسس هذه الفرقة هو شيل وهو يهودي الأصل[١].

ومن أهم الملامح العرفانية عند اليهود واتهم بها التصوف الإسلامي –أو– أدعى– عليه– أن تتأثر بها حتى وإن تأثر بها فتأثر بها فرق خارجة ومنحرفة عن الإسلام الصحيح.

- ملمح التشبيه الغليظة التي أدت إلى القول لوجود الواحد أو وحدة الوجود.
- نظرية الكلمة.
- فكرة الوسائط في الخلق والصدور على وجه العموم.
- حملت صقصة موسى في القرآن الكريم أجمل المعاني النفسية والروحية حملت صقصة موسى في القرآن الكريم أجمل المعاني النفسية والروحية حملت صقصة موسى في القرآن الكريم أجمل المعاني النفسية والروحية فألهمت كثيرا من المعاني الصوفية للصوفية فـ "خلع النعلين في الوادي المقدس و "جبل الطور" "النار المقدسة" "طوي السكون" و "الخصر وموسى و "موسى الكليم" و "مقام لن تراني".

أثارت أجمل النظريات الصوفية حتى ترى الحلاج فيما بعد ينادي –وقد قطعت قدماء وذراعاه بسيف الشرع –ينادي بآية موسى القرآنية" وعجلت إليك ربي لترضى"[٢]. [طه (٨٤)].

- فكرة الإمام المعصوم فكرة خاتم الأوصياء عن الله بن سبأ هو أول من دعا إلى فكرة القداسة التي نسبت إلى سيدنا –علي– كان يهوديا قبل أن يسلم.
- فكرة الرجعة والبداءة، المهدي الأسباط وغيرها من أراد شيعية غالية يهودية الأصل.
- الكيسانية أخطر فرق الشيعة هي أشد الفرق تأثرا بالآراء اليهودية.

---

(١) أنظر نشأة الفكر الفلسفي، جـ ١، ص ١٨٨ بتصرف يسير.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي، جـ١، ص ٦٦ أنظر كذلك التفكير في ص ٨٤ : ٨٦ فكرة الفناء، ووحدة الوجود، التشبيه".

- مؤسس فرقة الإسماعيلية يهود انتسبوا إلى الإسلام مستحدثين أفكارا يهودية وغنوصية للقضاء على الإسلام باسم أولاد إسماعيل بن جعفر الصادق(١).
- الصلة الوثيقة بين التصوف الشيعي والتصوف اليهودي.

قد أثرت الكبالا اليهودية تأثيرا كبيرا في عقائد الشيعة الباطنية المغالى فيها وأثرت على كل الشيعة تقريبا –ما عدا– الشيعة الاثنى عشر "فإن أفكارها في مجموعها إسلامفه(٢).

التعليق على ما سبق:

١. إن النتيجة لهذا كله هي أن اليهود أقاموا "بدء الفتنة" بين المسلمين في موضوعات الإمامة، ثم أشعلوا أورادها دينيا حول الذات الإلهية بما أدخلوه في عقائد وأحاديث في التجسيم والتشبيه ونجحوا في إدخال عناصر تخريبية لدى الفرق الخارجة عن الإسلام وبخاصة الباطنية والقرامطة.

ولا شك أن اليهود لم يؤثروا عقليا أو فلسفيا أو تصوفيا في المسلمين إلا في الفرق الخارجة فقط فقام المسلمون الحقيقيون للدفاع عن عقائد القرآن والسنة وميتافيزيقا الإسلام الحقيقية فكشفوا ألاعيبهم وواجهوا أفكارهم وما لبث أن تأثر اليهود بالفكر الإسلامي وبملامحه(٣).

وإذا كان التصوف جمعت بين التنزيه والتشبيه أو على الأصح بين الإثبات والنفي من الصفات والفروق الهامة في نظرية الصدور أو الكلمة بين الفريقين(٤).

من هذا العرض لبعض عقائد الديانة اليهودية وملامحها ومن مناقشة اتصالها بما وجد نظيرا عند بعض فرق المسلمين نستطيع أن نميل إلى القول بأن أثر اليهود لهم يكن في نقل هذه العقائد وتلك الملامح إلى المسلمين كما حدث لهم بأن نقلوا ملامح غيرهم إلهم وأخذوا بها –لا.

---

(١) أنظر المرجع السابق، جـ ١، ص ٦٨ بتصرف.

(٢) أنظر العلاقة الوثيقة وبينهما والمشكلة برمتها في نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ ٢، الجزء الثاني كله. وكذلك القضية بجميع أبعادها في كتاب "صلة التصوف بالتشيع للدكتور كامل مصطفى الشيني.

(٣) أنظر نشأة الفكر الفلسفي جـ ١، ص ٨٩ بتصرف شديد.

(٤) أنظر علم التصوف ص ١٩٥ بتصرف.

بل تأثيرها –إذا أادعيناه– إما في بعث بعض الفرق الإسلامية إلى معالجة نظائر هذه العقائد عندها.

- في كيفية حلها ومناقشتها.
- أو في التعجيل في ظهورها على مسرح النقاش والبحث أما العقائد ذاتها فهي من إملاء طبيعة البيئة الإسلامية باعتبار كونها بيئة إنسانية متدينة أي باعتبار كونها جماعة إنسانية لها دين وعقيدة قائمة بذاتها تميزها عن غيرها.

ومن هنا نصل إلى النتيجة البديهية وهي أن اليهود لم يؤثروا عقليا أو فلسفيا أو غنوصيا –تصوفا– في المسلمين ولكنهم نجحوا فقط في إدخال عناصر دخيلة تخريبية لدى الفرق الخارجة عن الإسلام وبخاصة الباطنية والقرامطة وأثر فيم المسلمون فيما بعد. والغرب أيضا كما سنعرف فيما بعد.

٢– ومن هنا يتضح لنا:

خطأ وعدم صحة وتعصب المستشرقين وعلى رأسهم جولد زيهر في قوله. "إن العقائد الإسلامية وبخاصة علم الآخرة مأخوذة من التوراة.

ومن أهم الأمثلة لإثبات نظريته –المدعاة "فكرة الوجود في عالم الذرا" إن فكرة وجود الخلائق في صلب الإنسان الأول على هيئة الذرا، وأن الله في هذا العالم أشهد الخلق على أنفسهم، ثم خلقهم فعلا متعاقبين في الأجيال، وقد حاول جولد تسيهر أن يثبت أن تلك الفكرة يهودية بحته، وأن لها آثارا ومأخذا في التوراة نفسها.

لا شك أن جولد تسيم وغيره من المستشرقين يعرفون تمام المعرفة ولكنهم يخادعون ويخادعون أن الإسلام لم ينكر على الإطلاق أنه متمم لليهودية الحقة، متما لمن قبله من الرسل والأنبياء ومصدقا للتوراة الصحيحة، فإذا تكلم عن التوحيد ومازال في بعض فقرات العهد القديم الموجود بين أيدينا دعو إلى التوحيد فهل في هذا ضرر أو ضرار؟

وإذا تكلم عن عالم الذرا، وما زال في بعض فقرات العهد القديم الموجود بين أيدينا بعض الوصف لهذا العالم. فهل هذا شين على الإسلام؟

إن الفقرات الصحيحة غير المحرفة وغير المبدلة في العهد القديم، وآيات القرآن الكريم إنما انبثقت من منبع ونبع واحد هو الوحي الإلهي إذا تشابهت فليس

الأمر أخذ القرآن من التوراة وإنما القرآن والصحيح من التوراة صدرا من نبع واحد هو المجرى الإلهي الكبير[١].

الرسول صلى الله عليه وسلم بإجماع الكل بأنه لم يجلس إلى معلم من اليهود ولا غيره لم يقرأ التوراة ولم يطلع على الإنجيل، بل أكثر من هذا القرآن ذكر ما لها وذكر ما عليها وواجه تحريفا بحزم وبشدة.

إن قضية استمداد القرآن الكريم من التوراة والإنجيل ومن قانون الرومان قضية قد جزم فيها الأمر من زمان بعيد عن طريق القرآن الكريم أولا ثم الفكر الإسلامي وغيره بمد ذلك[٢].

وأخبرنا القرآن الكريم بأن هناك قصصا وتشريعات ليست موجودة بالمرة لا في التوراة ولا في الإنجيل من أين أتى بها محمد؟

والقرآن الكريم يخبرنا:

"وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفوههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون"

(التوبة ٣٠)

"ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه" (المائدة ٤١)

"وغيرها من الآيات التي تفضح اليهود والنصار فمن أين يا ترى أتى بها محمد؟

ثم إذا كان القرآن الكريم قد استمد كلية أو بعضا من التوراة أو من الإنجيل لماذا لا تؤمنون به أو بالبعض الذين استمد من توراتكم أو إنجيلكم؟

يحاول جولد تسهير –أيضا أن يثبت أن "فيلون" اليهودي هو الأب الأصلي للتفسير الاشاري ومنه انتقل إلى غيره وبالذات أثر في الملامح العرفانية للمسلمين.

وهذا خطأ بين وفاحش لأن هذا الا تجاه لم يكن مجهولا قبله فقد كان معروفا عند حكماء مص روال هند وفارس وغيرهم ولقد تأثر هو نفسه بهؤلاء من قبله.

---

(١) أنظر نشأة الفكر الفلسفي، جـ ١، ص ٧١ بتصرف شديد.

(٢) أنظر رسالتنا للدكتوراه "أسلوب القرآن الكريم في مواجهة تقاليد الجاهلية"، ص ١٩٨ : ٢٩٨.

أيضا فأول محاولة عرفانية يهودية للتفسير الاشاري لم تقع على يد "فيلون" ولكن قام بها بعض أحبار ببلفون السبعين من محاولة إلباس الأسفار الخمسة من التوراة ثوبا عرفانيا نظريا ولكنه لم يكن عرفانا حقيقيا فقد كان الطابع العام له هو التوفيق بين لاديانة اليهودية والفلسفة الإغريقية –اليونانية.

إن النظرة المتأملة إ لى التفسير الإشاري يجدها مزيجا مفتعلا في أفلاطون وفيثاغورث(١).

ثم إن جولد تسيهر وغيره من المستشرقين يجعلون الشواذ وبعض الفرق الضالة عن الإسلام الأصل والقاعدة العريضة من المسلمين الحقيقيين هي الشواذ.

وفي الوقت نفسه لا يفرقون بين الفكر الإسلامي وبين الوحي السماوي الإسلام –ولا يفرقون بين المفكرين المسلمين وبين الرسول صلى الله عليه وسلم كرسول يوحى إليه من السماء ولا يفرقون ايضا بين المفكرين المسلمين الملتزمين بالوحي –الكتاب والسنة– وبين المفكرين غير الملتزمين.

ويجب أن يفرقوا بين إسلام –وفكر إسلامي– مفكر إسلامي هذا والله أعلم بذلك نكون قد انتهينا من المبحث الثاني.

المبحث الثالث

الملامح العرفانية -التصوف- عند النصارى

مدخل:

لقد مرت المسيحية –النصرانية– بفترتين –مرحلتين – فترة – مرحلة إماك النص عن الشرح وصيانته وحمايته من التأويل الإنساني البشري ويطلق على النصرانية في هذه الفترة –النصرانية المسيحية النصية.

فترى أخرى –ثانية– هي فترة تأوي النص المسيحي– النصراني– وشرح ألفاظه ووضع الإنسان النص الإلهي أمام عقله وفكره يشرحه ويؤوله ويطلق على النصرانية في هذه الفترة النصرانية –المسيحية– المفلسفة.

---

(١) أنظر علم التصوف ص ١٩٣ بتصرف شديد.

إذن المسيحية المفلسفة هي التي تدخل العقل البشري في نص الوحي الإلهي بالتأويل أو التحريف والتبديل والخروج به عن المعنى الحقيقي المراد إلى معنى آخر يختلف عن المعنى الأول على حسب مدارك الإنسان العقلية وثقافته النوعية.

وبالتالي لم يقف النص –النصراني– المسيحي عن الحد الذي كان عليه إبان رسوله ولا في دائرة أصحابه الأوائل فامتدت إليه الأيدي بالتبديل وتدخلت فيها العقول بالتحريف بفضل التغيير وأهمها طول الزمن وتغير البيئة.

وحينما نكتب عن –النصرانية –المسيحية– نكتب عنها باعتبار أنها فكر بشري نظرا لما مرت به وما لحقها في الفترة –المرحلة– الثانية– من تغيير وتبديل، وتحريف بالنقص أو الزيادة أو الحذف والإضافة وبالخروج بالنص عما وضع له مع ضياع النص الإلهي ولغته وخطه التي كتب بها فأصبحت بذلك –كله أو بعضه– فكرا بشريا يخضع لما يخضع له الفكر البشري الآخر من الصحة والخط.

ولم نر أي دين تعرض لما تعرضت له –المسيحية النصرانية– من التبديل والتحريف نظرا للظروف القاسية التي مرت بها فأصبحت خليطا من جميع الثقافات السابقة عليها ولا نبالغ في قولنا إذا قلنا أن المسيحية –النصرانية ما هي إلا خليط من جميع الثقافات السابقة عليها أثرت فيها تأثيرا مباشرا وخطيرا فأذابت شخصيتها ومحت ذاتيتها ولم يبق منها سوى رسمها وأسمها فقط.

وانعكس هذا –بداهة– على الملامح العرفانية في النصرانية –المسيحية ولا نبالغ إذا قلنا أن الملامح العرفانية –الغنوص– النصرانية – ما هي إلا جميع الملامح العرفانية السابقة عليها مأخوذة منها ومتأثرة بها وهذا ما سيتضح لنا بعد.

إن الإنجيل كمصدر للمسيحية، كان يتلى على المؤمنين به في بداية الحياة الدينية المسيحية فيفهمون آياته وعباراته في يسر وسهولة وكانت العقلية المسيحية الأولى لا تقف عند تعبير من تعبيراته المحتملة في الدلالة وال تخريج مثل –ابن الله– وكلمة الله أكثر من أتدرك معنى نفسيا يبدو لها في غاية الوضوح ولشدة وضوحه لديها. كان بمنزلة الأمر القطعي عندها الذي لا يحتمل التعبير غيره.

حتى إذا تغيرت البيئة الدينية المسيحية في القرن الثاني الميلادي ولقحت بعنصر ثقافي آخر وهو العنصر الفلسفي الأغريقي، ابتدأ يتغير فهم المسيحية بتغير

فهم التعبيرات في مصدرها. وابتدأ رجال الدين أنفسهم من المسيحيين يتساءلون: ما معنى هذا التعبير وما المراد منه؟ وكيف يلتئم الذي يقصد منه على نحو من الأنحاء مع تعبير آخر يبدو في دلالته على الصدمة؟ وهكذا –حتى تكون من تسائلهم، ومن محاولة إجاباتهم المختلفة ما يعرف بالمسيحية المفلسفة[١]، أو بالمسيحية المشروحة.

وابتدأت خاصة المسيحيين تحمل "نبوة عيسى"، وأنه "كلمة الله" مثلا على معنى يخالف في الغالب فهم عامتهم، وابتدأت تحمله على المعنى غير المتبادر وغير الظاهر في الدلالة، كما ابتدأت هي نفسها تختلف أيضاً في هذا المعنى غير الظاهر. وأصبح تاريخ التفكير الإنساني الديني تبعاً لهذه الاختلافات يشهد صراعاً عقلياً بين خاصة المسيحيين بعضهم ضد بعض. وابتدأ التاريخ العام يشهد صراعاً من نوع آخر بين مفكري المسيحية من جهة وبين الكنية وجمهور المتدينين بها من جهة أخرى، تغلب عليه القسوة في مجادلة أحد الطرفين للآخر.

وهذه المسيحية المفلسفة، شيء آخر غير ما قام به رجال مدرسة الإسكندرية: أمثال يحيى النحوي واسطفان الإسكندري منذ آخر القرن الرابع بعد الميلاد إلى منتصف القرن السابع، من التقريب بين المسيحية والفلسفة الإغريقية. فالنوع الأول تأثر بالفلسفة الإغريقية في تعبيراته وفي طريقة تأويله للنصوص الدينية، وبالنوع الثاني قد قام على الفلسفة الإغريقية؛ لأنه توفيق بين الفلسفة والدين[٢].

وإذا أردنا أن نتلمس الملامح العرفانية لدى النصرانية – المسيحية – فلابد لنا من المطالب الآتية:

المطلب الأول
تسميتهم

النصارى أمة المسيح ابن مريم رسول الله وكلمته عليه السلام. وهو المبعوث حقاً بعد موسى عليه السلام، المبشر به في التوراة[٣].

---

(١) وهي غير الفلسفة المسيحية. إن هذه في نظر بعض مؤرخي الفلسفة يقصد منها الفلسفة الإغريقية، التي تفلسفت فيها رجال المسيحية وآباء الكنيسة مثل: توماس إلاويني. وأوغسطونيوس" أنظر الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي د. محمد البهي ص ١٠٠.

(٢) أنظر الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي المرحوم د. محمد البهي ص ١٠١ بتصرف يسير.

(٣) أنظر الملل والنحل للشهرستاني جـ ١، ص ٢٢٠.

وسموا بهذا الاسم لإطلاق القرآن الكريم علهم هذا الاسم "وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ..."[١].

"وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ..."[٢]. فأصبح علماً عليهم.

وتعددت الروايات في سبب تسميتهم بهذا الاسم فقيل:

- سموا بهذا الاسم لنصرة بعضهم بعضاً وتناصرهم بينهم.
- لأنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة.
- لقول عيسى "من أنصاري إلى الله".
- لأن قرية عيسى كانت تسمى الناصرة وكان أصحابه يسمون النصاريين، وكان يقال لعيسى عيسى الناصري[٣].
- لنصرتهم المسيح[٤].

وفي الحقيقة أن الأسماء لا تعلل.

وإذا كان هناك بيان للسبب فيبدو – لي – والله أعلم.

أنهم سموا بذلك الاسم؛ لأن قرية عيسى تسمى ناصرة، ثم بعد ذلك نزلوا أرضاً تسمى ناصرة.

أما أنهم سموا نصارى لنصرة بعضهم بعضاً فهذا ما أكاد أشك فيه وبخاصة بعد أن تعددت طوائفهم إلى طوائف وفرق وبين كل فرق وأخرى خلافات جوهرية وعداء مستحكم.

اللهم إذا أريد بهذا الاسم المعنى اللغوي العربي أو أريد به نصرة أفراد كل طائفة ضد الطائفة الأخرى للسيطرة عليها أو سموا كذلك لوقوفهم جميعاً على الرغم من تعدد طوائفهم وخلافاتهم الجوهرية – على الرغم من ذلك كله – وقفوا جميعاً ضد

---

(١) سورة البقرة بعض آية ١١٣.

(٢) سورة البقرة بعض آية ١٢٠.

(٣) تفسير الطبري، جـ١/ ٣١٨ وأنظر كذلك تفسير الفخر الرازي، جـ١/ ١٠٥.

(٤) تفسير الكشاف جـ١، ٢٨٥.

الإسلام والمسلمين يشنون عليه وعليهم حرباً معنوية وفكرية لا هوادة فيها عن طريق التشكيك أو غيره .. أو حرباً مادية كالحروب الصليبية والاقتصادية وغيرها.

المطلب الثاني
فرقهم ومسائلهم وسبب اختلافهم

اختلافهم وأسبابه:

لما رفع المسيح اختلف الحواريون وغيرهم فيه. اختلافهم يعود إلى أمرين:

أحدهما: كيفية نزوله واتصاله بأمة وتجسد الكلمة.

الثاني: كيفية صعوده، واتصاله بالملائكة وتوحد الكلمة.

أما الأول: فإنهم قضوا بتجسد الكلمة، ولهم في كيفية الاتحاد والتجسد كلام:

- فمنهم من قال: أشرق على الجسد إشراق النور على الجسم المشف.
- ومنهم من قال: انطبع فيه انطباع النقش في الشمع.
- ومنهم من قال: ظهر به ظهور الروحاني بالجسماني.
- ومنهم من قال: تدرع اللاهوت بالناسوت.
- ومنهم من قال: مازجت الكلمة جسد المسيح ممزاجة اللبن الماء، والماء اللين، وأثبتوا الله تعالى أقانيم ثلاثة قالوا: الباري تعالى جوهر واحد، يعنون به القائم بالنفس، لا التحيز والحجمية. فهو واحد بالجوهرية، ثلاثة بالأقنومية، ويعنون بالأقانيم الصفات كالوجود والحياة والعلم وسموها الأب والابن وروح القدس، وإنما العلم تدرع وتجسد دون سائر الأقانيم.

الثاني: قالوا في الصعود إنه قتل وصلب، قتله اليهود حسداً وبغياً، وإنكاراً لنبوته ودرجته، ولكن القتل لم يرد على الجزء اللاهوتي، وإنما ورد على الجزء الناسوتي.

وقالوا وكمال الشخص الإنساني في ثلاثة أشياء: نبوة، وإمامة، وملكة وغيره من الأنبياء كانوا موصوفين بهذه الصفات أو بعضها، والمسيح عليه السلام درجته فوق ذلك؛ لأنه الابن الوحيد فلا نظير له ولا قياس له إلى غيره من الأنبياء، وهو الذي به غفرت زلة آدم عليه السلام، وهو الذي يحاسب الخلق[1].

فرقهم:

---

(١) الملل والنحل، جـ١، ص ٢٢١.

افترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة، وكبار فرقهم ثلاثة:

١- الملكانية. ٢- النسطورية. ٣- اليعقوبية.

وانشعبت منها: الإليانية، والبليارسية، والمقدانوسية، والسبالية، والبوطينوسية، والبولية إلى سائر الفرق.

١- الملكانية

أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها. ومعظم الروم ملكانية.

قالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح، وتدرعت – اتحدت بناسوته ويعنون بالكلمة: أقنوم العلم، ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة، ولا يسمون العلم قبل تدرعه ابنا، بل المسيح مع ما تدرع به ابن. فقال بعضهم، أن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر أو الماء اللبن.

وصرحت الملكانية بأن الجوهر غير الإقنيم، وذلك كالموصوف والصفة وعن هذا صرحوا بإثبات التثليث، وأخبر القرآن الكريم عنهم "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ"[المائدة (٧٢)].

وقالت الملكانية: إن المسيح ناسوت كلي لا جزئي، وهو قديم أزلي وقد ولدت مريم عليها السلام إلهاً أزلياً والقتل والصلب وقع على الناسوت واللاهوت معاً.

وأطلقوا لفظ الأبوة والنبوة على الله عز وجل وعلى المسيح لما وجدوا في الإنجيل حيث قال: إنك أنت الابن الوحيد، وحيث قال له شمعون الصفا: إنك ابن الله حقاً.

ولعل ذلك من مجاز اللغة، كما يقال لطلاب الدنيا أبناء الدنيا، ولطلاب الآخرة، أبناء الآخرة وقد قال المسيح عليه السلام للحواريين: "أنا أقول لكم، أحبوا أعداءكم وباركوا على لاعنيكم، وأحسنوا إلى مبغضكم وصلوا لأجل من يؤذيكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماء، الذي تشرق شمسه على الصالحين والفجرة، وينزل قطره على الأبرار والأثمة، وتكونوا نامين كما أن أباكم الذي في السماء نام وقال "انظروا صدقاتكم فلا تعطوها قدام الناس لتراؤوهم فلا يكون لكم عند أبيكم الذي في السماء وقال حين يصلب اذهب إلى أبي وأبيكم.

٢- النسطورية

أصحاب نسطور الحكيم وتصرف في الأناجيل وأضاف إليها ما ليس منها قال: إن الله تعالى واحد، ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، والعلم والحياة.

هذه الأقانيم ليست زائدة على الذات، ولا هي هو أتحدث الكلمة بجسد عيسى عليه السلام. لا على طريق الامتزاج كما قالت الملكانية، ولا على طريق الظهور به كما قالت اليعقوبية. ولكن كإشراق الشمس في كوة على بلورة، وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم.

وبعضهم يثبت لله تعالى صفات أخر بمنزلة القدرة والإرادة ونحوهما. ولم يجعلوها أقانيم كما جعلوا الحياة والعلم أقنومين.

ومنهم من أطلق القول بأن كل واحد من الأقاليم الثلاثة، حي، ناطق إله. وزعم الباقون أن اسم الإله لا يطلق على كل واحد من الأقانيم.

وزعموا أن الابن لم يزل متولداً من الأب، وإنما تجسد واتحد بجسد المسيح حين ولد والحدوث راجع إلى الجسد والناسوت، فهو إله وإنسان اتحدا، وهما جوهران، أقنومان، طبيعتان: جوهر قديم، جوهر محدث، إله تام وإنسان تام، ولم يبطل الاتحاد قدم القديم، ولا حدوث، لكنها صارا مسيحاً واحداً، طبيعة واحدة، وربما بدلوا العبارة فوضع مكان الجوهر الطبيعة، ومكان الأقنوم الشخص.

وأما قولهم في القتل والصلب فيخالف قول المليكانية واليعقوبية. قالوا إن القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته، لأن الإله لا تحله الآلام.

٣- اليعقوبية

وهم أصحاب يعقوب.

وقالوا بالأقانيم الثلاثة إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحماً ودماً، فصار الإله هو المسيح، هو الظاهر بجسده بل وهو هو، وعنهم أخبرنا القرآن الكريم "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ". [المائدة ٧٢].

فمنهم من قال: إن المسيح هو الله تعالى:

ومنهم من قال: ظهر اللاهوت بالناسوت، فصار ناسوت المسيح مظهراً لجوهر، لا على طريق حلول جزء فيه، ولا على سبيل اتحاد الكلمة التي هي في حكم الضفة، بل صار هو هو، وهذا كما يقال ظهر الملك بصورة إنسان، أو ظهر

الشيطان بصورة حيوان، وكما أخبر التنزلي عن جبريل عليه السلام" فتمثل لها بشراً سوياً.

وزعم أكثر اليعقوبية أن المسيح جوهر واحد، أقنوم واحد، إلا أنه من جوهرين وربما قالوا طبيعة واحدة من طبيعتين، فجوهر الإله القديم، وجوهر الإنسان المحدث تركبا تركيباً كما تركبت النفس والبدن فصارا جوهراً واحداً، أقنوماً واحداً، وهو إنسان كله وإله كله فيقال: الإنسان صار إلهاً، ولا ينعكس فلا يقال: الإله صار إنساناً كالفحمة تطرح في النار فيقال: صارت الفحمة ناراً، ولا يقال صارت النار فحمة، وهي في الحقيقة لا نار مطلقة، ولا فحمة مطلقة، بل هي جمرة، وزعموا أن الكلمة اتحدت بالإنسان الجزئي لا الكلي، وربما عبروا عن الاتحاد بالامتزاج ولا دراع، والحلول كحلول صورة الإنسان في المرآة المجلوة[1].

<u>ما أجمعوا عليه وما اختلفوا فيه:</u>

أجمع أصحاب التثليث كلهم على أن القديم لا يجوز أن يتحد بالمحدث، إلا الأقنوم الثاني الذي هو الكلمة اتحدت دون الأقانيم.

وأجمعوا كلهم على أن المسيح عليه السلام ولد من مريم عليها السلام وقتل وصلب.

ثم اختلفوا في كيفية ذلك:

فقالت الملكانية واليعقوبية: إن الذي ولد من مريم هو الإله. فالملكانية لما اعتقدت أن المسيح ناسوت كلي أزلي، قالوا إن مريم إنسان جزئي لا يلد الكلي، وإنما ولده الأقنوم القديم.

واليعقوبية لما اعتقدت أن المسيح هو جوهر من جوهرين، وهو إله، وهو المولود قالوا: إن مريم ولدت إلهاً تعالى الله عن نولهم علواً كبيراً.

وكذلك قالوا في القتل والصلب: إنه وقع على الجوهر الذي هو من جوهرين، قالوا: ولو وقع على أحدهما لبطل الاتحاد.

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني، جـ١، ص ٢٢٢ : ٢٢٦.

وزعم بعضهم بإثبات وجهين للجوهر القديم: فالمسيح قديم من وجه، محدث من وجه.

وزعم قوم من اليعقوبية أن الكلمة لم تأخذ من مريم شيئاً، ولكنها مرت بها كالماء بالميزاب؛ وما ظهر بها من شخص المسيح في الأعين. فهو كالخيال والصورة في المرآة وإلا فما كان جسماً متجسماً كثيفاً من الحقيقة وكذلك والصلب إنما وقع الخيال والحسبان.

وزعم بعضهم أن الكلمة كانت تدخل جسم المسيح أحياناً فتصدر عنه الآيات من إحياء الموتى ... وتفارقه في بعض الأوقات فترد عليه الآلام والأوجاع.

وزعم ساليوس أن القديم جوهر واحد أقتوم واحد. له ثلاث خواص، واتحد بكليته بجسد عيسى عليه السلام.

وزعم آريوس أن الله واحد، سماه أبا، وأن المسيح كلمة الله وابنه على طريق الاصطفاء، وهو مخلوق قبل خلق العالم، وهو خالق الأشياء، وزعم أن الله تعالى روحاً مخلوقة أكبر من سائر الأرواح وأنها واسطة بين الأب والابن تؤدي إليه الوحي.

وزعم أن المسيح ابتدأ جوهراً لطيفاً، روحانياً، خالصاً، غير مركب، ولا ممزوج بشيء من الطبائع الأربع، وإنما تدرع بالطبائع الأربع عند الاتحاد بالجسم المأخوذ من مريم.

وهذا آريوس قبل الفرق الثلاث قال القديم هو الله والمسيح هو مخلوق فتبرؤوا منه لمخالفتهم إياه في المذهب واجتمعت البطارقة والمطارئة والأساقفة في بلد قسطنطينية بمحضر في ملكهم، وكانوا ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً واتفقوا على هذه الكلمة اعتقاداً ودعوة.

"نؤمن بالله الواحد الأب مالك كل شيء وصانع ما يرى وما لا يرى، وبالابن الواحد يسوع المسيح، ابن الله الواحد، بكر الخلائق كلها، الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها، وليس بمصنوع، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم، وخلق كل شيء من أجلنا، ومن أجل معشر الناس ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنساناً وحبل به، وولد من مريم البتول،

وقتل وصلب أيام فيلاطوس ودفن، ثم قام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه وهو مستعد للمجيء تارة أخرى بين الأموات والأحياء، ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي يخرج من أبيه، وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا، وبجماعة واحدة قدسية مسيحية جائيليقية وبقيام أبداننا، وبالحياة الدائمة أبد الآبدين[1].

وفوق ما تقدم أنظر:

١- الألوهية عندهم.

٢- قطور عقيدتهم.

٣- أناجيلهم واصحابها ومحتوياتها والتناقض فيها.

٤- بولس وما أحدثه فيها.

٥- مواجهة الإسلام لها[2].

---

(١) أنظر الملل والنحل للشهرستاني جـ١، ص ٢٢٣، ٢٢٦ بتقديم وتأخير.

(٢) أولاً: القرآن الكريم وبالأخص صورة آل عمران، النساء، المائدة.

ثانياً: الكتب والمراجع:

(أ) كتب التراث:

١- الفصل في الملل والأهواء والنحل للإمام ابن حزم جـ ٢/ ٧٥.

٢- الملل والنحل للشهستاني جـ١، ص ٢٢٠ – ٢٢٦.

٣- مروج الذهب للمسعودي.

٤- الرد الجميل للإمام الغزالي.

٥- الرد على النصارى لأبي البقاء صالح بن الحسين الجمبري.

٦- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة للقرافي.

٧- الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام.

٨- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح للإمام ابن تيمية.

٩- هداية الحيارى لابن القيم.

١٠- بين المسيحية والإسلام للقرطبي.

١١- النصيحة الإيمانية في فضيحة الملل النصرانية نصر بن يحيى.

١٢- تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب عبد الله الرحماني الأندلسي.

١٣- ثلاث رسائل للجاحظ في الرد على النصارى.

(ب) المراجع الحديثة ومنها:

١- الفارق بين المخلوق والخالق (العلامة) عبد الرحمن الباجة جي زادة.

المطلب الثالث: الملامح العرفانية للنصرانية:

قبل أن نذكر هذه الملامح لابد لنا أن نذكر.

أولاً: تأثير الملامح العرفانية السابقة على النصرانية في نشأة الملامح العرفانية للنصرانية.

لقد وقعت المسيحية فريسة مأساسة عجيبة ومخيفة في الوقت نفسه فقد اجتمعت عليها:

الفلسفة اليونانية وامتدادها في الأفلاطونية المحدثة التي جمعت عناصر غنوص هندية، فارسية، مصرية، وروح وثنية لم تستطع أن تتلخص منها بأي حال من الأحوال.

وانتهى الأمر إلى تقرير عقائدها الأساسية على ضوء المؤثرات السابقة.

وقد لاحظ بعض الباحثين المسيحيين ومنهم جوستاف لوبون الذي أثبت التشابه الواضح بين المعتقدات البوذية والمسيحية، وحياة بوذا والمسيح كما صورها المسيحيون من تثليث وأقانيم وصلب للتكفير، والزهد والرهبانية ويقول "لو قيل للحواريين إن الله قد تجسد في المسيح لرفعوا أصواتهم محتجين"(١).

٢- إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي.

٣- هذا هو الحق رد على مفتريات كاهن كنيسة لابن الخطيب.

٤- محاضرات في النصرانية للإمام الراحل الشيخ محمد أبو زهرة.

٥- قل يا أهل الكتاب تعالى لشيخنا الدكتور/ رؤوف شلبي.

٦- المسيحية الرابعة.

٧- الأسفار المقدسة في الأديان السابقة على الإسلام أ.د/ علي عبد الواحد وافي.

٨- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة موريس بوكاي.

٩- المسيحية د/ مزروهة ... إلخ.

١٠- الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي أ. محمد البهي.

١١- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام أ.د/ علي سامي النشار.

١٢- دراسات في الأديان والمذاهب القديمة أ.د/ عبد الغفار عزيز وآخرون.

١٣- قصة العقائد بين السموات والأرض سليمان مظهر.

١٤- أضواء على المسيحية أ.د/ رؤوف شلبي.

علاوة على رسائل الدكتوراه والماجستير الموجودة في مكتبة كلية أصول الدين. القاهرة. جامعة الأزهر.

(١) أنظر علم التصوف ص ١٩٥.

ويرى الشيخ أبو زهرة "إن التثليث يرجع إلى التحويل الذي حاول به الفكر المسيحي مبادئ الأفلاطونية المحدثة: المهدأ، العقل الأول، النفس الكلية"(١).

وتجلى هذا التأثير في:

١- تأثير الملامح العرفانية الشرقية على الملامح العرفانية النصرانية:

١- تأثير الملامح العرفانية المصرية القديمة:

لقد أثر اتجاه الملامح العرفانية المصرية القديمة في النصرانية عن طريق:

نظرية متكاملة عن صدور الكائنات عن مصدر واحد.

جذور نظرية المثل التي انتقلت من المصرية إلى الأفلاطونية ومنها إلى المسيحية.

النفس خالدة وهي مغايرة للجسد.

الوحدة الإلهية.

الإشراق هو طريق المعرفة(٢).

التجسد.

فكرة الثالوث(٣).

٢- تأثير الملامح العرفانية لما بين النهرين على الملامح العرفانية النصرانية:

تجلى هذا التأثير في الزمان المطلق والقدر المطلق.

ويتضح لنا تأثير البابلية في النصرانية من الآتي:

رواية الآلام البابلية "بال"	رواية الآلام المسيحية "عيسى".
١- يساق بال أسيراً	١- يساق عيسى أسيراً.
٢- يحاكم بال في منزله على الرابية "غرفة المحاكمة".	٢- يحاكم عيسى في منزل رئيس الكهنة.
٣- يضرب بال.	٣- يجلد عيسى.

(١) محاضرات في النصرانية ص ٣٨ : ٤٠.

(٢) أنظر تأثير الملامح العرفانية لقدماء المصريين في هذا الكتاب ص ٥٢.

(٣) الدين والإنسان دراسات، الأديان والمذاهب القديمة ص ٢٥٢.

٤- يساق بال إلى الرابية.	٤- يساق عيسى إلى الصلب في جلجثه
٥- يساق مع بال شريران أحدهما يقتل والآخر يطلق سراحه.	٥- يساق مع عيسى شريران يعدمان وآخر "باراباس" يطلق سراحه.
٦- تؤخذ ملابس بال.	٦- تقتسم العسكر ملابس عيسى.
٧- تمسح امرأة الدم النابع من قلب بال أثر خروج السلاح "حرية"	٧- يطعن عيسى بحرية في جنبه ويخرج دم وماء، ثم تأتي مريم المجدلية وامرأتان أخريتان لغسل وتحنيط الجثة.
٨- يلاحظ الحراس بال وهو سجين.	٨- يوضع الحراس على قبر عيسى.
٩- تجلس الآلهة مع بال وقد أتت لتعني به.	٩- مريم المجدلية ومريم الأخرى تجلسان أمام القبر.
١٠- يرجع بال ثانياً إلى الحياة كشمس الربيع ثم يرجع من الرابية.	١٠- رجوع عيسى إلى الحياة وخروجه من القبر في صباح الأحد[١].

٣- تأثير الملامح العرفانية الهندية على الملامح العرفانية النصرانية لقد أثرت الملامح العرفانية الهندية على الملامح العرفانية النصرانية وتجلى هذا التأثير في:

١- تأليه البشر[٢].

٢- عقيدة التثليث[٣].

٣- التناسخ[٤].

٤- مبدأ الفناء[٥].

٥- الإلهام[٦].

---

(١) كيف تبلغ الدعوة الإسلامية إلى الأمم الأجنبية المرحوم د/ جمعة الخولي، ص ١٣٥.

(٢) الدين والإنسان، ص ٢٥٤.

(٣) الأسفار المقدسة د/ علي عبد الواجد وافي ص ١١٣.

(٤) الملل والنحل للشهرستاني جـ ٢، ص ٢٥٥.

(٥) بوذا الأكبر، ص ١٥٩.

(٦) أديان العالم القديمة، ص ٨٢.

٦- مبدأ الحلول[١].

٧- التجرد من الملكية والغلو في الزهد[٢].

٨- ظهور أساليب التصفية والتطهر كطريقة للمعرفة.

٩- وجود فكرة الجمع من التنزيه والتشبيه.

١٠- الخلق عن طريق الصدور من القوة العليا[٣].

٤- تأثير الملامح العرفانية الفارسية على الملامح العرفانية النصرانية:

لقد أثرت الملامح العرفانية الفارسية على الملامح العرفانية للنصرانية وتجلى هذا التأثير في:

١- التركيز على فكرة الخلاص النفسي.

٢- فكرة المخلص أو المهدي المنتظر.

٣- الحلول.

٤- تقديس البشر.

٥- القول بالرجعة.

٦- عقائد المغتسلة.

٧- نظام الهربنة والزهد[٤].

وبذلك نكون قد انتهينا من تأثير الملامح العرفانية الشرقية من مصرية.

٣- تأثير الملامح العرفانية للصابئة واليهودية على الملامح العرفانية النصرانية:

أولاً: تأثير الملامح العرفانية للصابئة على الملامح العرفانية للنصرانية.

تجلى هذا التأثير – كما ذكرته في المبحث الأول – في هذا الفصل – في طائفة الرهاويين الذين بقوا في خراسان ويذهبون مذهب الصابئة.

---

(١) بوذا الأكبر، ص ١٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٩.

(٣) أنظر علم التصوف، ص ١٧٣ ومن أراد الاستزادة فعليه بالأديان القديمة للمرحوم الشيخ أبو زهرة ص ٣٠ : ٤٢.

(٤) علم التصوف ص ١٧١.

وفي عصرنا هذا نموذج حي لفرقة صابئة ما زال أفرادها يعيشون حتى الآن في العراق يعرفون باسم نصارى يحيى ويؤمنون بيحيى كمسيح جديد، وينكرون نبوة عيسى أشد الإنكار(١).

ثانياً: تأثير الملامح العرفانية لليهودية على الملامح العرفانية للنصرانية لقد ذكرت هذا التأثير بالتفصيل في المبحث الثاني من هذا الفصل.

<u>ونوجز هذا التأثير في:</u>

١- صدور الكائنات عن مصدر واحد.

٢- النفس خالدة والجسد مغاير لها.

٣- وحدة الوجود.

٤- الرجعة.

٥- الحلول.

٦- التشبيه بالله.

٧- المسيح المنتظر.

٨- العلم اللدني.

٩- الرمزية.

١٠- الفيض الإلهي.

١١- نظرية المثل.

١٢- وجود قوتين.

١٣- الاعتقاد في حياة أخرى بعد الموت وغيرها كثير(٢).

وبالنظر إلى الملامح السابقة سنجد بعضها قد تكرر فيما بعده وإذا صفينا هذه الملامح بحذف المكرر يتبقى لنا الملامح العرفانية التي أثرت في المسيحية ككل وهي:

١- النفس خالدة وهي مغايرة للجسد.

٢- الوحدة الإلهية.

٣- الإشراق عن طريق المعرفة.

٤- التجسد.

٥- فكرة الثالوث – عقيدة التثليث.

٦- الزمان والقدر المطلق.

---

(١) أنظر نشأة الفكر الفلسفي د/ علي سامي النشار جـ ١، ص ٢١٤، ٢١٩ وأنظر ما كتبناه في المبحث الأول من هذا الفصل.

(٢)

٧- تأليه البشر.

٨- التناسخ.

٩- مبدأ الفناء.

١٠- الإلهام.

١١- الحلول.

١٢- التجرد من الملكية والغلو في الزهد.

١٣- الجمع بين التشبيه والتنزيه وبابلية، وهندية، وفارسية، على الملامح العرفانية النصرانية وبينا الملامح العرفانية المؤثرة والموجودة في النصرانية.

٢- تأثير الملامح العرفانية الغربية اليونانية على الملامح العرفانية النصرانية:

لقد أثرت الملامح العرفانية اليونانية تأثيراً مباشراً في الملامح العرفانية النصرانية، وتجلى هذا التأثير فيما يأتي:

- الحلول.
- الرمزية.
- استخدام الآلات الموسيقية لتحقيق الجذب الروحي.
- الزهد، ورياضة النفس، العزلة.
- التشبيه بالله عن طريق التخلق.
- سبق النفس البدن.
- التنسك – الحدس – وسيلة للمعرفة.
- وحدة الوجود – الوجود الواحد.
- نظرية الكلمة.
- الفناء.
- الفيوضات، وغيرها[١].

١٤- صدور الكائنات عن قوة عليا.

---

(١) أنظر الفصل الثالث من هذا الكتاب تأثير الملامح العرفانية في كل اتجاه من اتجاهات الملامح العرفانية اليونانية على الملامح الأخرى وبالأخص النصرانية ص ١١١، ١٧٦ وأنظر كذلك الدين والإنسان – المسيحية والتغيير ص ٢٥٧.

١٥- المهدي المنتظر – المسيح المخلص.

١٦- القول بالرجعة.

١٧- عقائد المغتسلة.

١٨- الرمزية.

١٩- الآلات الموسيقية لتحقيق الجذب الروسي.

٢٠- الفيوضات.

٢١- نظرية الكلمة.

٢٢- نظرية المثل.

٢٣- وجود قوتين.

٢٤- الاعتقاد في حياة أخرى بعد الموت.

وهذا يدفعنا إلى ذكر:

ثانياً: الملامح العرفانية للنصرانية:

هي كثيرة كما ذكرت ذلك سابقاً وهي مهمة ولكن الأهم فيها هي:

١- تجسيد المسيح وألوهيته[١]. ٢- الفناة[٢].

٣- الإشراق طريق المعرفة[٣].

٤- نظرية الحب[٤]. ٥- الإلهام[٥].

٦- صدور الكائنات والموجودات عن الإله حتى تنتهي إلى المادة، إلى الجسم الكثيف وكيف يتخلص الإنسان من هذا الجسم، وكيف يعود إلى الإله الأعلى.

٧- حلول الإله في كل شيء.

٨- الإيمان بأصلين قديمين نور وظلمة وهناك كون.

ثالث – أو أصل ثالث امتزج بهما أي مزج النور بالظلمة[٦].

---

(١) أنظر قصة العقائد ص ٣٧٩.

(٢) أنظر الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي د/ البهي ص ١٢٥، ٢٢٥.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ١٠٣، ١٠٥.

(٤) في التصوف الإسلامي، تأريخ وقضايا ص ١٥.

(٥) محاضرات في النصرانية الشيخ المرحوم محمد أبو زهرة ص ٨٩، ٩٣، ١٠٤ والرد على دعوى الإلهام.

(٦) أنظر الغنوصة المسيحية نشأة الفكر الإسلامي جـ ١، ص ١٨٨ بتصرف.

ثالثاً: تأثير الملامح العرفانية النصرانية على الملامح العرفانية الأخرى:

١- تأثيرها على الملامح العرفانية:

إذا كانت اليهودية قد أثرت في النصرانية وملامحها تأثيراً مباشراً ومحتها تقريباً فإن النصرانية قد أثرت على اليهودية في بداية عصرها فحينما ظهرت المسيحية – النصرانية عاداها اليهود معاداة شديدة وبدأ الصراع العنيف بينهما وإذا كانت اليهودية قد ازدهرت من الناحية العقلية والفلسفية والعرفانية فإن القرون المسيحية الثلاثة الأولى قد قضت على كل تقدم عقلي وعرفاني لدى اليهود وتوزعوا بعد نكبتهم في القدس في كل البلدان.

وبدأ علماء اليهود في أواخر الربع الأول من القرن الثالث الميلادي يجمعون جميع تعاليم الفروسيين – وكان معظم اليهود من هذه الطائفة – في كتابهم المقدس – المشنا.

وإذا ما حاولنا أن نبحث لليهود عن أي أثر عقلي أو فلسفي أو عرفاني في القرن الثالث والرابع والخامس والسادس الميلادي من العهد المسيحي سواء في التلمود أو في التفسيرات البلاغية أو الرمزية للتوراة فإننا لا نجد لليهود شيئاً هاماً بل نجد آثاراً ضئيلة خاصة بالجن والشياطين والسحر والشعوذة والأسرار الخفية.

هكذا عاشت اليهودية في ظلال المسيحية قرابة ستة قرون وبعدها تلقف اليهود الخيط وأصبحت بيدهم المبادرة فأثروا في النصرانية تأثيراً عنيفاً وكان رد الفعل عنيفاً[١].

٢- تأثيرها على ما يقال ويدعى على الفكر الإسلامي والملامح العرفانية:

إذا ذكرنا تأثير الملامح العرفانية للنصرانية على الملامح العرفانية الإسلامية فإننا نذكر هذا للأمانة العلمية في الكتابة لا أكثر ولا أقل، لأنها دعاوى باطلة لم يقم دليل قطعي على هذا التأثير بل هي خزعبلات آثارها المستشرقون ومن على شاكلتهم كيف يتأتى ذلك والإسلام والقرآن الكريم مليء بالمواجهة الشاملة للنصرانية المحرفة ولكتبها ولعقيدتها؟ أهل يتأتى لعاقل أن يدعي التأثير بعد ذلك؟

---

(١) أنظر المسألة برمتها نشأة الفكر الفلسفي، جـ ١، ص ٧٧، ٧٨.

وإذا كان هناك من تأثير فهو في بعض غلاة بعض الطوائف وإذا اشترك التأثير في الاسم سنجد الدافع والغاية والمنهج مختلف وسنذكر التأثير ثم تذكر الرد عليه وكما قلت هي دعاوى آثارها البعض عن طريق التخمين والظن.

١- أثرت في المعتزلة من حيث تحكيم العقل في الدين فقط أما ما عدا ذلك فالمعتزلة قد واجهوا النصرانية مواجهة عنيفة وأدحضوها بمنطق النصارى أنفسهم(١).

٢- أثرت على بعض آراء الفرق الكلامية الإسلامية(٢).

٣- إذا كان البعض يرى أنها أثرت في علم الكلام فإن البعض الآخر لا يرى تأثر علم الكلام بها ولكنها أثرت في التصوف الفلسفي من بعيد في:

- فكرة الحلول.
- الحب.
- الزهد والعزلة كطريق للتصفية.
- المعرفة الإشراقية.
- يغلو البعض فيربط بين السحر الذي انتشر بين الرهبان والقساوسة وطريق الإشارة والرمزية عند الصوفية(٣).
- تأليه البشر كتأليه غلاه الشيعة لسيدنا علي(٤).
- الحلول والفناء وهذا عند غلاة الشيعة حينما يدعون بأن روح الله قد حلت في سيدنا علي كرم الله وجهه(٥).

أن أثر المسيحية – النصرانية – في التفكير الإسلامي لا يعدو في الغالب توجه نظر المسلمين على معالجتهم مشاكل تعتبرها مشاكل كل جماعة إنسانية لها

---

(١) أنظر الدعوى – المشكلة والرد عليها نشأة الفكر الفلسفي جـ ١، ص ١٠٠.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني جـ١، ص ٥٧ وهو متحامل في هذا نظر الرد عليه الجانب الإلهي ص ١٥٢.

(٣) أنظر مقدمة الطبعة الأولى قشأة الفكر الفلسفي، جـ ٣، والرد عليها.

(٤) الدين والإنسان، ص ٢٥٦.

(٥) أنظر الجانب الإلهي، ص ١١١.

دين وعقيدة وهي ظاهرة نفسية للجماعة الإنسانية المتدينة على العموم وعلى أنه ليس خصوصية لدين معين[١].

أما ما يقوله بعض المستشرقين من أن نظرية الحب في التصوف الإسلامي إنما أخذت من مصدر مسيحي، فإنه لا يتفق مع صريح الواقع الديني الإسلامي فقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تشير إلى حب الله تعالى للعبد وحب العبد لله" قل إن كنتم تحبون الله" "فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه" "أما إيثار الفقر على الغنى، فإن ذلك ليس مسيحياً، بل هو حقيقة يراها الدينيون في جميع الشرائع – اليهود والمسيحية والمسلمون، بل وغيرهم، ذلك أن قيمة الإنسانية إنما هي في الأديان للقوي، وليس للمال أو الجاه، وأن حاجة الإنسان دائماً إلى مولاه، فهو فقير "يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد) [٢].

فلا علاقة إذن بين التصوف الإسلامي والتصوف المسيحي "المبستيسيسم" المزعوم[٣].

كيف يكون ذلك والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة موجود وهي وثيقة الوحي السماوية الوحيدة التي لم يدخلها أدنى تحريف.

وعلى ذلك فلا صحة نهائياً لدعوى هذا التأثير.

وبذلك نكون قد انتهينا من المبحث الثالث.

وبانتهائه نكون قد انتهينا من الفصل الرابع. والله أعلم.

---

(١) أنظر بالتفصيل الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ص ١٢٢ : ١٢٧.

(٢) أنظر في التصوف الإسلامي تأريخ وقضايا ص ١١٤ بتصرف وسنذكر نحن ذلك بالتفصيل في مكانة في الجزء الثاني إن شاء الله عنه ذكرنا لمصادر التصوف الإسلامي – القرآن والسنة.

(٣) أنظر الرد بالتفصيل المنقذ من الضلال ص ٢٦٣.

الفصل الخامس
التصوف العربي قبل الإسلام
الملامح العرفية للعرب قبل الإسلام

يشتمل على:

مدخل.

والمباحث الآتية:

المبحث الأول: حلة العرب الدينية قبل الإسلام.

المبحث الثاني: الملامح العرفانية للعرب.

المبحث الثالث: صفات التصوف العالمي.

مـدخـل

إن العرب من عدنان وقحطان كانوا على بصيرة من الله يتعبدون بشريعة خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه السلام، والتي تلقوها من ولده سيدنا إسماعيل عليه السلام، حينما بعث وأرسل إليهم "وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا" [مريم ٥٤].

كانوا يعتقدون أن الله واحد لا شريك له ولا معين له ولا ظهير له، موصوف بصفات الكمال من الحياة، والقدرة والإرادة، والعلم، والسمع، والبصر وغيرها من الصفات التي أثبتها لنفسه في كتبه وعلى لسان سيدنا إسماعيل عليه السلام.

كانوا عالمين أنه لا معبود بحق في الوجود سواه فهو الإله الواحد، الملتجأ إليه في جميع الأمور، فيستحيل وصفه بما يتنافى مع كماله، إذ هو المالك المسقط، العدل.

وكانوا يصلون ويصومون ويحجون ويصلون الأرحام ويعينون على ثوابت الحق ويكرمون الأضياف كل الإكرام سالكين الطريق المستقيم.

واستمر الحال على ذلك الوضع حتى طال بهم الأمد وبعدوا من النبوة وقلت معرفتهم بما جاءت به شريعتهم حتى "استبدلوا بالتوحيد شركاً وباليقين شكاً وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله". [تفسير ابن كثير جـ ٤ / ٣٧٣].

والحق أن هذا ليس تياراً أعم الجزيرة العربية كلها بل بقيت منهم طوائف كثيرة تسير على الحنيفية السمحة وهؤلاء هم "عرف الحجاز – الإسماعيليون، العدنانيون – كانوا على دين إبراهيم". [إغاثة اللهفان جـ ٢ / ٢٠٧].

وطوائف أخرى من العرب توقفت وأخذت تبحث عن الحنيفية السمحة.

وطوائف أخرى قد انحرفت وانحرافها انحراف طارئ ونكسة عارضة؛ لأن انحرافها ليس انحرافاً في القمة ولكن انحراف في الوسيلة عن طريق عمرو بن لحى الخزاعي.

وعلى الرغم من الأثر الذي أحدثه عمرو بن لحى الخزاعي في نشره للوثنية وتعصبه لها ودعوته إليها إلا أنه لم يسلم من المعارضة الشديدة من الموحدين لفعلته الشنيعة هذه.

يقول أحدهم له:

يـــا عمـــرو لا تظلـــم بمكـــة إنهـــــا بلـــــد حـــــرام
ســـائل بعـــاد أيـــن هـــم وكـــذلك بحتـــرم الأنـــام
وبنـــي العمـــاليق الـــذين لهـــم بهـــا كـــان الســـوام

ويقول آخر له:

يـا عمـر إنـك قـد أحـدثت آلهـة شـتى حـول البيـت أنصـابا
كـان للبيـت رب واحـد أبـداً فقـد جعلـت لـه فـي النـاس أربابـا
لتعـرفن بـأن الله فـي مهـل سيصـطفي دونكـم للبيـت حجابـا

وهكذا تسربت الوثنية إلى طوائف من العرب على يد الخزاعيين وعلى أنها وافدة على عرب الحجاز العدنانيين.

أقسام العرب:

اتفق الرواة وأهل الأخبار أو كادوا على تقسيمهم العرب من حيث:

١- القدم إلى ثلاث طبقات:

١- عرب بائدة – عرب عاربة – مثل عاد، وثمود، طسم، جدير، حاسم، جرهم الأولى العمالقة.

وهؤلاء قد بادوا وهم أقدم طبقات العرب على الإطلاق.

٢- عرب عاربة – متعربة – جرهم الثانية وكانت مساكنهم باليمن ثم نزحوا إلى أرض الحجاز وعاشروا أم إسماعيل وتزوج منهم وهم الخزاعيون، ثم عرب يثرب وهؤلاء رحلوا إلى يثرب عقب انهيار سد مأرب فاسقر الخزاعيون بمكة واستقر بقية من عرب اليمن في يثرب.

وهؤلاء هم العرب القحطانيون – عرب الجنوب – عرب اليمن.

٣- عرب مستعربة وهم بنوا إسماعيل بن إبراهيم – وكان إسماعيل عبرانياً، فلما كبر وتزوج من الجراهمة – الثانية – فلما نشأ أولاده استعربوا ولهذا سموا بالإسماعيلية، والعدنانية، والمعدية والنزارية كما يطلق كذلك عليهم – عرب

الشمال – عرب الحجاز – وقد نشأوا بمكة ومنها انتقلوا إلى سائر البلاد العربية[١].

٢- من حيث النسب:

ينقسم العرب من حيث النسب إلى:

١- قحطانية ومنازلهم الأولى في اليمن، وهم عرب الجنوب وهم وثنيون.

٢- عدنانيين ومنازلهم الأولى في الحجاز وهم عرب الشمال وهم موحدون[٢].

وكان أول أمير على مكة هو سيدنا إسماعيل عليه السلام، واستمر العرب على التوحيد إلى أن وفد عليهم الخزاعيون عرب الجنود الوثنيون – واستولوا على البيت سنة ٢٠٧م.

وكانوا بطبيعة الحال وثنيين فحاول عمرو بن لحى الخزاعي أب الوثنية أن ينشرها بين العرب فتم له بعض ما أراد على بعض القبائل العربية ما عدا العرب العدنانيين – عرب الحجاز – عرب الشمال – فإنهم كانوا موحدين.

واستمر الحال على ذلك حتى انتزع قصي البيت – الكعبة – من الخزاعيين الوثنيين سنة ٤٥٥ م، أي أن فترة الخزاعيين – الوثنيين استمرت مائتين وثمانية وأربعين سنة فقط لا غير وعاد الأمر إلى ما كان عليه من التوحيد الخالص بالنسبة لبعض القبائل التي انتشرت فيها الوثنية.

وهكذا يتبين لنا أن الوثنية طارئة ووافدة مع العرب القحطانيين اليمنيين على العرب الإسماعيلين عرب الشمال الموحدين.

إذن

فالعرب على الحنفية السمحة والشرك والوثنية نكسة طارئة عليهم لمدة محدودة وإن بقى أثرها فيما بعد ولكنه أثر ضئيل بالنسبة لغيره.

ومن المعروف أن الملامح العرفانية تنبع من الناحية الدينية.

---

(١) أنظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ١، ص ٢٦٥ بتصرف شديد، وكذلك السيرة النبوية للدكتور زيادة ص ٢٣.

(٢) المرجع السابق نفسه جـ ١، ص ٢٩٤ بترصف.

فإذا أردنا أن نبحث عن الملامح العرفانية – التصوف – للعرب قبل الإسلام – فلابد لنا من المباحث الآتية:

المبحث الأول حالة العرب الدينية قبل الإسلام.

(أحوال العرب العقدية قبل الإسلام).

سنتناول في هذا المبحث مطلبين:

المطلب الأول: حالة العرب الدينية قبل عمرو بن لحى:

إن توحيد الألوهية والربوبية وتنزيه الله تعالى عن الند والشريك والوالد والولد والشبيه والنظير هي دعوة لتوحيد الله في ذاته وصفاته وأفعاله؛ لأنه تعالى "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" [الشورى ١١].

والعرب منذ عهد إسماعيل والجراهمة قبل ظهور – عمرو بن لحى – كانوا على بصيرة من أمور دينهم بشريعة سيدنا إبراهيم التي نقلت إليهم عن طريق ولده سيدنا – إسماعيل – عليهما السلام فكانوا يطبقون عقيدته وينتهجون سبيل شريعته ويتخلقون بأخلاقيات حنيفيته.

يعبر أحد العرب عن ذلك فيقول "إلهي إله إبراهيم وديني دين إبراهيم"(١). وذلك لانهم "متمسكون بدين إبراهيم"(٢).

لم تبين لنا الرواية السابقة مدى وعمق تمسك العرب بحنيفية سيدنا – إبراهيم – وبيان ما يتمسكون به من الدين الذي أنزل عليه من السماء في العقيدة والشريعة والأخلاق.

لكن إذا تتبعنا الروايات نجدهم طبقوا دين الله تعالى الذي أنزله على سيدنا إبراهيم وساروا على حنيفية سيدنا إبراهيم عليه السلام – فعلى سبيل المثال لا الحصر – نجدهم يتمسكون ويطبقون:

<u>أصول العقيدة [الإيمان بالله تعالى، وصفاته، الإيمان باليوم الآخر، النبوة]:</u>

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ٦، ص ٤٧٢.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤، ص ٣٦٣.

لقد تمسك العرب بأصول العقيدة الصحيحة وساروا عليها وآمنوا بها فقد آمنوا بالله تعالى واليوم الآخر وآمنوا بالنبوة وانتظروها "ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وينتظر النبوة"(١).

أ – توحيد الألوهية:

وإيمانهم بالله تعالى وحده يعني توحيده في ألوهيته وربوبيته يقول أحدهم:

كلا بل هو الله إله واحد ليس بمولود ولا والد

يقيم أحدهم الأدلة الفطرية لهم على إفراد الله تعالى بالعبادة "إني ما رأيت شيئاً خلق نفسه ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً، ولا جائياً إلا ذاهباً، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء"(٢)(٣).

والآخر يثبت لهم بأن الآلهة التي يعبدونها لا تنفع ولا تضر ويأمرهم بالابتعاد عن الشرك وعبادة الله وحده فيقول: "إنكم قد تفردتم بآلهة شتى وإني لأعلم ما الله راض به، إن الله رب هذه الآلهة، وأنه ليجب أن يعبد وحده(٤).

فهم يؤمنون بإله واحد خالق لهذا الكون، يحيي ويميت، عليم بما في النفوس، لا تخفى عليه خافية وآمنوا بالحياة الآخرة، والبعث والثواب والعقاب(٥).

إذن العقيدة عند العرب وإيمانهم بها يتلخص في:

١- الإيمان بالله تعالى وتفرده بالوحدانية.

٢- الإيمان بصفاته تعالى (الخالق المحيي، المميت، العليم).

٣- الإيمان بالموت.

٤- الإيمان بالبعث.

٥- الثواب والعقاب.

٦- تفرده بالعبادة.

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني، جـ ٢، ص ٢٤١.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ ٦، ص ٥٦.

(٣) المفصل في تاريخ العرب جـ ٦، ص ٥٠٥.

(٤) المرجع السابق نفسه، جـ ٦، ص ٤٧٥.

(٥) أنظر المرجع السابق نفسه جـ ٦، ص ٥٠٣، ٥٠٦.

(ب) العرب يقرون بتوحيد الربوبية لله تعالى:

إذا كان العرب يقرون بتوحيد الألوهية لله وتفرده، وحده فإنهم يقرون – كذلك – بتوحيد الربوبية له تعالى.

ويتضح ذلك – على سبيل المثال لا الحصر في:

١- اعترافهم أن الله تعالى هو خالقهم:

يتضح لنا ذلك من قوله تعالى "ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله". [الزخرف ٨٧].

لئن سألت هؤلاء من خلقهم ليقولن الله وفوق ذلك فهم يعترفون أنه تعالى الخالق للأنبياء جميعهم وحده لا شريك له في ذلك(١).

٢- اعترافهم بأن الله تعالى خلق السموات والأرض ومن فيهن وما فيهن يبدو ذلك واضحاً من قوله تعالى "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" [لقمان ٢٥].

فهم يعترفون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض بغير عمد غير منكرين ذلك.

وهذا يقتضي:

١- أن يكون الحمد كله لله تعالى.

٢- احتياج كل ما من وما في السموات والأرض إليه وحده سبحانه.

٣- أن لا يعبد غيره(٢).

فهم بذلك يقرون بوجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم.

٣- اعترافهم بأنه تعالى مسخر للشمس، والقمر، ومنزل الماء من السماء ومحيي الأرض بعد موتها.

يبين ذلك قوله تعالى "ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون".

ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون" [العنكبوت ٦١، ٦٣].

---

(١) أنظر تفسير ابن كثير، جـ ٤، ص ١٣٦ بتصرف.

(٢) أنظر التفسير الكبير للفخرلاني ج ٢٥، ص ١٥٥ بتصرف.

فهم يعترفون بأنه تعالى:

هو المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر، وأنه تعالى الخالق، الرازق، ومقدر لآجالهم. وأنه تعالى هو المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها فكما أنه واحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته[١].

٤- اعترافهم بأن الله تعالى محيي، مميت، مدبر الأمر، مالك السمع والأبصار، رازق الخلق من السماء والأرض.

يشرح ذلك كله قوله تعالى "قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار، ومن يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون" [يونس ٣١].

إذا سألت هؤلاء وقلت:

من الذي ينزل من السماء المطر فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيئته فيخرج منها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً؟

من الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها؟

من الذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي بقدرته العظيمة ومنته العميقة؟

من بيده ملكوت كل شيء وهو يجبر ولا يجار عليه وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل وهم يسئلون؟

فالإجابة بدهية واضحة.

فسيقولون الله وهم يعلمون ذلك ويعترفون به[٢].

٥- اعترافهم بشمول ربوبيته تعالى للكون كله بجميع أبعاده – سماواته، وأرضه، وما فيهن ومن فيهن.

يتضح ذلك كله في إجاباتهم حول الأسئلة التي وجهت إليه منه تعالى في قوله جل شأنه "قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ

(١) أنظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٣، ص ٤٢١ بتصرف شديد.

(٢) أنظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٢ / ٤١٦ بتصرف شديد.

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ" [المؤمنون ٨٤ : ٨٩].

يقول الله تعالى لرسوله ρ أن يقول للمشركين ويسألهم:

من مالك الأرض التي خلقها الله ومن فيها من الحيوانات وما فيها من النبات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات؟

فيعترفون لك بأن ذلك – الخالق – الله وحده لا شريك له.

من خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات.

والملائكة الخاضعين له ومن هو رب العرش العظيم؟

فيعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم.

قل من بيده الملك وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه الذي له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه الذي لا يمانع ولا يخالف؟

سيعترفون أنه السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله وحده لا شريك له[١].

٦- القسم به تعالى.

كانوا يعتقدون أن الإيمان المؤكدة المغلظة لا يكون إلا بالله تعالى ولهذا أقسموا به "وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا" [فاطر: ٤٢].

فهم أقسموا بالله، وبالغوا في تأكيد أيمانهم وتغليظها[٢].

وهم بهذا يظهرون تعظيم الله تعالى[٣]، وكانوا يؤمنون بالقضاء والقدر. وفوق هذا كثير ومن أراد الاستزادة في هذا فعليه بالرجوع على[٤].

---

(١) أنظر تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير جـ ٣، ص ٣٤٢ بتصرف واختصار شديد.

(٢) أنظر التفسير الوسيط، جـ ٨، ص ٦١٨.

(٣) أنظر لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١١ ص ١٠٤ بتصرف شديد.

(٤) رسالتنا للدكتوراه أسلوب القرآن الكريم في مواجهة تقاليد الجاهلية د/ محمد سيد أحمد عامر.

والخلاصة:

أن العرب من عدنان وقحطان كانوا على بصيرة من الله تعالى يتعبدون بشريعة خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه السلام، والتي تلقوها من ولده إسماعيل عليه السلام.

فكانوا يعتقدون أن الله واحد لا شريك له ولا وزير له ولا معين له ولا ظهير له، موصوف بصفات الكمال من الحياة، والقدرة، والإرادة والعلم والسمع والبصر والكلام.

وأنه تعالى المتصرف يملك الضر والنفع والعطاء والمنع وغير ذلك من صفات الألوهية التي لا يملكها إلا هو.

عالمين أنه لا معبود بحق في الوجوه سواء فهو الإله الواحد الملتجأ في جميع الأمور إليه المتوكل في كل الشؤون عليه يستحيل وصفه بالظلم إذ هو المالك المقسط العدل لا يجب عليه شيء بل هو المتفضل على خلقه.

أصول العبادات:

وإذا كان العرب متمسكين بأصول دين أبيهم سيدنا إبراهيم فإنهم – أيضاً يتمسكون بأصول العبادات فيها.

فعلى سبيل المثال لا الحصر.

السجود لله والصلاة له.

هذا زيد بن عمرو بن نفيل يسجد ويصلي لله ويقول "هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل لا أعبد حجراً ولا أصلي له"[١] [٢].

وكانوا يحجون البيت، ويلبون التلبية الصحيحة[٣].

وكانوا يصومون يوم عاشوراء، ويستغفرون الله عما لحق بهم من ذنوب[٤].

---

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب السيد محمود شكري الألوسي جـ ٢، ص ١٩٤.

(٢) أنظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ص ٤٧٥ بتصرف.

(٣) أنظر المرجع السابق نسه، جـ ٦، ص ٤٧٥.

(٤) أنظر السيرة النبوية لابن هشام جـ ١، ص ٨٣٤ بتصرف.

وكانوا يغتسلون من الجنابة ويلتزمون بأصول الفطرة ويستنجون ويغسلون موتاهم ويكفنونها ويصلون عليهم.

والخلاصة أنهم كانوا يصلون، ويصومون، ويحجون، ويزكزون[١].

أصول الأخلاق:

أصول الأخلاق عندهم فحدث عنها ولا حرج وهذا مجال خصب متسع ولا مجال لذكره هنا ولكن نوجزه إنجاز مركزاً في أنهم كانوا: "يصلون الأرحام ويعينون على ثوابت الحق ويكرمون الأضياف كل الإكرام"[٢].

إلى غير ذلك من الأخلاق الحميدة والأعمال المرضية السديدة[٣].

وبذلك نكون قد انتهينا من المطلب الأول من المبحث الأول من الفصل الخامس.

المطلب الثاني: حالة العرب الدينية بعد عمرو بن لحى.

(مفارقة العرب لدين إبراهيم مفارقة جزئية انحراف العرب عن دين إبراهيم انحرافاً جزئياً).

لقد استمر العرب على حالتهم السابقة من التمسك بأخلاقياته ولكن بمرور السنين وتوالي الأيام وطول الأمد وسيطرة عمرو بن لحى الخزاعي وفرضه عليهم عبادة الأصنام ودعايته لها وتأثيره فيهم أدى هذا – وغيره من العوامل – بالضرورة تدريجياً إلى التحلل الجزئي والانحراف عن بعض دين إبراهيم وإسماعيل وبمقدار تحللهم من شريعته عليه السلام – بمقدار ما ابتدعوه من تقاليد في العقيدة وغيرها.

لقد غفل البعض عن دين سيدنا إبراهم وجروا وراء شهوات أنفسهم حتى استبدل هذا البعض بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا – أي البعض الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات، وفيهم على ذلك بقية من عهد إبراهيم، يتمسكون بها من تعظيم البيت، والطواف به والحج والعمرة، والوقوف

---

(١) أنظر بلوغ الأرب جـ ٢، ص ١٩٥.

(٢) أنظر المرجع السابق نفسه، ٢، ص ١٩٥.

(٣) أنظر رسالتنا للدكتوراه.

على عرفة، والمزدلفة، وهدي البيت، والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه[١].

وفيهم غير ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتمسكون بها[٢].

إذن فالعرب كانوا كلهم على دين سيدنا إبراهيم – عليه السلام – عقيدة، وشريعة – أخلاقاً.

ثم حدثت نكسة طارئة عليهم وعلى الوثنية ولكننا لابد أن نقف هنا وقفة.

١- فبالنسبة لتوحيد الربوبية لم ينحرف أحد منهم بإطلاق عن توحيد الربوبية لله تعالى.

٢- أما بالنسبة لتوحيد الألوهية (أي إفراز الله تعالى بالعبادة) فهم لم ينحرفوا إلى:

- إنكار الألوهية كما موجود عند البعض.
- لم ينحرفوا إلى التثليث واعتناق النصرانية في هذا، لأن فطرتهم تأبى ذلك.
- ولم ينحرفوا إلى وصف الله تعالى بوصف العاجز كجعل ابن الله تعالى كما فعلت اليهود.

"وقالت اليهود عزيز ابن الله".

"إن الله فقير ونحن أغنياء".

- ولم ينحرفوا إلى القول بثنائية الإلهية كما فعلت المجوس إله للنور وإله للظلمة.
- ولم ينحرفوا إلى عبادة كائن من الكائنات كعبادة النار، الشجر، والهواء والماء والعجل والبقر – أن تأليه العناصر – ولكن انحرافهم في الوسيلة والأسلوب الموصل إليه تعالى فهم يؤمنون به تعالى ولكن الطريق الموصل لله تعالى هو الأوثان الأصنام – ليقربونا إلى الله زلفى".

وهم في انحرافهم هذا لم ينسوا الله في وثنيتهم وانحرافهم ولم يثبت عنهم كلية بأنهم ساووا بين أي وسيلة اتخذوها للوصول إلى الله تعالى وبين الله تعالى – فهم لم يسووا بين الوسيلة وبين الله تعالى ولذلك.

---

(١)

(٢)

"لا أحد يثبت لله شريكاً في الوجود والعلم والقدرة والحكمة وهذا ما لم يوجد إلى الآن منهم"[١].

ويعترفون بأن الحجر المنحوت – الوسيلة الموصلة إلى الله تعالى – ليس هو الذي خلقني وخلق السموات والأرض"[٢].

إذن فانحرافهم بسيط وممكن السيطرة عليه وهو انحراف في الوسيلة إلى الله تعالى فبيان الوسيلة الصحيحة لهم عن طريق النبوة والوحي لساروا على الطريق المستقيم.

أما انحراف غيرهم كاليهودية، والنصرانية. والمجوسية وغيرها ...، فهو انحراف في القمة ذاتها أي كفر بالله ذاته كالتثليث أو عبادة غيره معه مساوله تماماً، أو جحوده بالمرة وتأليه عنصر بدلاً منه.

ومن هنا كان العرب أقرب إلى الفطرة الصحيحة من غيرهم ومن هنا لم تستهوهم اليهودية ولم تؤثر فيهم النصرانية ولم تجذبهم المجوسية ولا الصابئة ولا غيرها ... لاعتزازهم بدين أبيهم سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل عليهما السلام على الرغم من انحرافهم البسيط في الوسيلة والأسلوب الموصل إلى الله تعالى.

وإذا كان هذا انحراف البعض فإن الباقين وهو معظمهم تمسك بدين إبراهيم فكان معظمهم مما يدين الله، ويتمسك بإرث من ملة إبراهيم ويحج ويتأله ويعظم الحرم، والأشهر الحرم، ويضع فيها أوزار الحرب، وإن ظفر بعدوه فيها لم يمسه بسوء"[٣].

وهكذا يتضح لنا أن الوثنية طارئة ووافدة مع العرب القحطانيين اليمنيين – الجراهمة، الخزاعيين إلى العرب الإسماعيلية العدنانيين الموحدين الذين ما زالوا على شريعة أبيهم إبراهيم.

وبذلك نكون قد انتهينا من المبحث الأول.

---

(١) أنظر الفخر الرازي، جـ٣ / ١١١.

(٢) المرجع السابق نفسه، جـ ٢، ص ١١٢ ط ١.

(٣) إيمان العرب للنجيرمي ص ١٢.

وإذا كانت الملامح العرفانية تتبع من العقيدة فإننا الآ سننتقل إلى بحث الملامح العرفانية للعرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام.

وهل ثمت عوامل خارجية أثرت فيها؟

وهل امتدت هذه العوامل إلى الحياة الروحية في الإسلام؟

هذا ما سيتضح لنا من دراستنا للمبحث الثاني:

المبحث الثاني

الملامح العرفانية للعرب قبل الإسلام (التصوف العربي قبل الإسلام)

سنبحث في المبحث المطالب الآتية:

المطلب الأول

تأثير الملامح العرفانية السابقة عليهم

(تأثير التصوف الشرقي، اليوناني – الغربي، والتصوف الصابئي واليهودي والنصراني على التصوف العربي قبل الإسلام)

الحقيقة أن قضية تأثير الفكر السابق للفكر الجاهلي على الفكر العربي الجاهلي قبل الإسلام – ومنه الملامح العرفانية بداهة – قضية مهمة وخطيرة وشائكة وشيقة في آن واحد.

وعلى الرغم من التقاء الأفكار واحتكاك العقول وتلاقح الثقافات في صورة تأثير وتأثر على الرغم من ذلك كله.

فإننا نجد هذه القاعدة قد انخرمت بجدارة عند العرب فلم يتأثروا بأفكار من سبقهم نظر الصفاء ذهنهم، ونقاء فطرتهم وحافظتهم القوية.

وقريحتهم اللماحة المستوعبة وبانتسابهم إلى أبيهم إبراهيم عليه السلام وهم في الوقت نفسه يرون أن ما هم عليه من الفكر ومنه الملامح العرفانية أحسن حالاً وحظاً من غيرهم وأفضل مكانة ومكاناً، عما سواهم.

وبالتالي لم يتأثروا بغيرهم سواء انعزلوا عن العالم أو تفاعلوا واحتكوا به، لأن القاعدة دائماً أن الأقوى والأحسن والأفضل مكاناً ومكانة ونسباً ودیناً وخلقاً يؤثر فيمن هو أقل منه ولا يتأثر بمن هو أقل منه والعرب هم من هذا النوع أثروا ولم يتأثروا.

ومن أجل ألا نتهم بالتعصب ضد فكر غيرنا وإن كنا نتعصب للحقيقة الصحيحة ومنها – التمسك بفكرنا – فإننا سندرس هذا الموضوع بعناية ودقة ونترك الحكم والكلمة الأخيرة والحاسمة في هذا الموضوع للعلم الصحيح وليس للتعصب العرقي، اللغوي، أو الفكري، أو الجنسي.

أولاً: من حيث الناحية الاعتقادية:

إذا نظرنا إلى خريطة العالم الاعتقادية – ومنها الفكرية والثقافية آنذاك فإننا سنجدها كالآتي:

١- الوثنية وهذا لا مجال لنا معها في التأثير والتأثر[١].

٢- اليهودية.

لقد عرف الجاهليون اليهودية وقد ورد ذكرها في أشعارهم باعتبار أنها كانت معروفة قبل الإسلام.

وقد دخل اليهود حمير، بنو كنانة، بنو الحارث بن كعب، وكنده[٢].

وتهود من العرب أيضاً "اليمن وتهود قوم من الأوس، الخزرج بعد خروجهم من اليمن ولمجاورتهم يهود خيبر، وقريظة، والنضير، وتهود قوم من غسان وقوم من جذام"[٣].

ووقفت العرب على بعض أحكام اليهودية مثل رجم الزاني، اعتزال النساء في المحيض، أسباب المكونات، وبدء الخليقة وأسرار الوجود[٤].

مناقشة دعوى تأثر العرب باليهودية وثقافتها ومنها الملامح العرفانية:

نستطيع القول أن اليهودية وثقافتها وملامحها العرفانية من ناحية التبشير بها كانت جامدة وخامدة، لا يهمها نشر دينها وثقافتها وملامحها العرفانية – التصوف – بقدر ما يهمها المحافظة على الحياة وعلى المركز الذي توصلت إليه وعلى تجارتها التي تعود عليها بالمال الغزير.

---

(١) أنظر رسالتنا للدكتوراه أسلوب القرآن الكريم في مواجهة تقاليد الجاهلية.

(٢) المعارف لابن قتيبة ص ٦٢١.

(٣) إيمان العرب في الجاهلية للنجيرمي ص ١٥.

(٤) أنظر التصوف العربي ص ٩٥.

ولنا نجد من القبائل العربية يهوداً وفدوا إليها وأحباراً سكنوا بينها لإقناعها بمختلف الوسائل والطرق للدخول في دين اليهود(١).

وفي الوقت نفسه لم يكن لليهود قبل الإسلام تاريخ فكري أو أصالة عقلية أو فلسفية فقد كانوا في الأرض أشتاتاً يعيشون هنا وهناك وقد أنزلت بهم المسيحية ضرباتها العنيفة فتوزعوا في الأرض لا يجمعهم رباط عقلي أو فكري سوى إيمانهم بالتوراة في غموض وإبهام لم يعرفه مجتمع من المجتمعات وكانوا حينما حلوا المجتمع المغلق(٢).

ولما ظهرت المسيحية عاداها اليهود أشد المعاداة، وبدأ الصراع العنيف بينهما وإذا كان اليهود قد ازدهروا من الناحية العقلية أو بمعنى أدق ظهر بينهم بعض المفكرين المتفلسفين فإن القرون المسيحية الثلاثة الأولى قد قضت على كل تقدم عقلي لدى اليهودي وتوزعوا بعد نكبتهم في القدس في كل البلدان وتفرق علماء اليهود هاربين من انتقام الرومان ولم يعد لهم أمل في أن يجعلوا بيت المقدس مركزاً للثقافة اليهودية أو الرمز الذي تجتمع عنده آمال اليهود(٣).

ولم يستطيع التهود من صرف العرب عن بيتهم تجاه بيت المقدس(٤).

ومن هنا لا صحة نهائياً لدعاوى بعض المستشرقين عن أثر اليهودية في عرب الجاهلية لأننا لا نملك نصوصاً يهودية جاهلية ولا نصوصاً عربية جاهلية تتعرض لتأثير اليهود في عرب الجاهلية فليس في وسعنا أن نتحدث باطمئنان عن أثر اليهودية وأفكارها وثقافتها وملامحها العرفانية – التصوف في عرب الجاهلية وثقافتها وملامحها ودعواهم هذه لا أساس لها فهي من باب التخمين والعكس هو الصحيح كما سنثبت قريباً إن شاء الله تعالى(٥).

---

(١) أنظر التصوف العربي ص ١٢٠.

(٢) أنظر نشأة الفكر الفلسفي جـ ١ ص ٦٤ بتصرف يسير.

(٣) أنظر المرجع السابق، نفسه، جـ ١، ص ٧٧ بتصرف.

(٤) أنظر نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ ٣، ص ٧٠.

(٥) أنظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ١، ص ٥٦٨ أنظر بالتفصيل جـ ١، ص ١٥٦٦، ٥٦٨.

إذن اليهودية ديناً وثقافة وفكراً وملامح عرفانيا – وتصوف – لم تؤثر من قريب أو بعيد في عرب الجاهلية في دينهم وفكرهم وثقافتهم وملامحهم العرفانية وإذا كان بعض العرب آمنوا بها فهناك فرق بين من آمن بها لابد بداهة أن يلتزم بها وبين تأثيرها في من لم يؤمن بها وهذا ما لم يحدث في العرب ثم إن اليهود مجتمع مغلق على نفسه.

٣- النصرانية :

لقد دخلت النصرانية إلى الجزيرة العربية وكانت في "ربيعة وغسان، وبعض قضاعة[١]" وبعض "بني تميم وربيعة ومن اليمن مذحج وبهراء وسليم، وتنوح، وغسان، ولخم"[٢].

وظهرت عقائد النصرانية على العرب الذين دخلوا مثل "التحنث، والانزواء والانطواء في الكهوف والمغاور، والأماكن النائية للتنسك، والتعبد والتفكر في خالق هذا الكون، ومنهم من ترهب، وتزهد وامتنع عن اللحوم.والودك وإطلاق الشعر واللحى"[٣].

مناقشة دعوى تأثير النصرانية وثقافتها وملامحها العرفانية في ديانة العرب وثقافتهم وملامحهم العرفانية .

هناك فرق شاسع بين من يدخل النصرانية من العرب ويعتنقها وإن كانوا قلة فهؤلاء يلتزمون بها وفرق بين أن تؤثر في من لم يعتنقها.

في الحقيقة أن النصرانية لم تستطع أن تؤثر ديانة وثقافة وفكراً وملامح عرفانية في غيرها من الذين لم يعتنقوها ولذلك لم يفلحوا في جعل العرب تعتنق النصرانية – المسيحية – لأن هؤلاء العرب متحنفون، يعتنقون التوحيد وأما ما عليه النصارى من فرق متناقضة وآراء متضاربة وأحكام جامدة غامضة لم يجعل هؤلاء – العرب – يؤمنون بها وإن تأثر بعض العرب الوثنيين وآمنوا بها[٤].

---

(١) المعارف لابن قتيبة، ص ٦٢١.

(٢) أديان العرب اليعقوبي، جـ ١، ص ٧٢٧.

(٣) أنظر بالتفصيل المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ٦، ص ٦٤٤.
وأنظر كذلك جـ ٦، ص ٥٨٢ : ٦٩١.

(٤) أنظر التصوف العربي ص ١٠٠.

وإذا كان للنصرانية أثر في عرب الجاهلية هو أثرها فيها من ناحية الفن إذا أدخلت النصرانية في العرب فناً جديداً في البناء هو بناء الكنائس، والمذابح والمحاريب والزخرفة، كما أدخلوا النحت والتصوير[١].

لقد كانت مسيحية الجزيرة العربية جميعها مسيحية نصيبة لا تحاول الجدال أو أن تعرض لفكرة الثالوث أو فكرة الواحد ذي الثلاث أقانيم أو فكرة الصلب، كان كل هذا بعيداً عن فكر العرب.

وأيضاً المسيحية المفلسفة بجمودها وتناقضها وجفائها لم تشتمل العرب كذلك.

ولكن ما لم ينتبه إليه الباحثون هو أمر الأسينيين وهي طائفة يهودية مسيحية عاشت في قمران وكشفت عنها وثائق البحر الميت – وهي طائفة تؤمن بوجود مسيح وهو ملهم العدل والتقوى ويشبه تماماً مسيح القرآن.

وهؤلاء هم المسيحيون الحقيقيون وأحياناً كان البدو يلجأون إليهم طلباً للراحة والماء ولم يتأثروا بهم.

وأياماً كان الأمر فقد عرف العرب الجاهليون المسيحية وحاولت المسيحية أن تتسلل إلى حياتهم الروحية فلم تستطع[٢].

وننتهي من هذا كله إلى أنه لم يكن للمسيحية من أثر روحي في حياة العرب الجاهليين في من لم يعتنقها قبل الإسلام[٣].

إذن النصرانية ديناً وثقافة وفكراً وملامح عرفانية – تصوفاً – لم تؤثر من قريب أو بعيد في عرب الجاهلية في دينهم وفكرهم وثقافتهم وملامحهم العرفانية.

وإذا كان بعض العرب آمنوا بها فهناك فرق بين من آمن بها لابد بداهة أن يلتزم بها وبين تأثيرها في من لم يؤمن بها وهذا ما لم يحدث في العرب.

٤- المجوسية: (أديان فارس وملامحها الوفائية):

المجوس هم القائلون بالأصلين النور والظلمة ووجود إلهين إله للخير وللشر وهؤلاء هم الثنوية[١].

---

(١) أنظر المفصل في تاريخ العرب جـ ٦، ص ٦٩٠.

(٢) أنظر نشأة الفكر الفلسفي جـ ٣ ص ٦٨ بتصرف.

(٣) أنظر المرجع السابق، نفسه جـ ٣، ص ٦٩ بتصرف.

لقد كان لأهل مكة اتصال بالحيرة، وكانت حضرموت، اليمن، عمان، البحرين، اليمامة كذلك[٢].

وقد ظهر غنوص عنيف في مكة اعتنقد الزندقة – أي الإيمان بالإيثينية – على صورة عنيفة وهذا الغنوص هو "أبو سفيان بن حرب" قبل أن يسلم فقد كان في الجاهلية زنديقاً"[٣].

مناقشة تأثيرها على الملامح العرفانية العربية قبل الإسلام:

ينبغي أن نقرر وإن كان قد اعتنق المجوسية أو الغنوصية الفارسية أفراد قلائل من العرب فإنها لم تؤثر في المجموعة العربية أدنى تأثير ولا نجد اسم المانوية أو المزدكية أو الديصانية أو المرقونية أو المائداتية أو الزرادشتية يتردد عليهم[٤].

إذن أديان فارس كلها وثقافتها وملامحها العرفانية لم تؤثر ديناً وفكراً وملامح عرفانية في العرب قبل الإسلام.

٥- الأديان الهندية ومناقشة تأثيرها في الملامح العرفانية للعرب قبل الإسلام:

لم تكن للبوذية أو للأديان الهندية عامة أي أثر في حياة الجاهليين.

فقد كانت موانى اليمن مفتوحة لتجارة الهنود، ولكن لم تنفذ اتجاهات روحية أو دينية أو ملامح عرفانية إلى مجتمع العرب قبل الإسلام من قبل هؤلاء الهنود[٥]:

٦- الأديان اليونانية ومناقشة تأثيرها على ملامح العرب قبل الإسلام:

لم نر للأديان اليونانية ولا للفلسفة اليونانية ولا الفكر الفلسفي اليوناني ولا الملامح العرفانية اليونانية أي أثر يذكر نظراً لتعقيداتها وتحكيمها العقل في مجال الغيبات وعدم إيمانها بالوحي والنبوة أما العرب قبل الإسلام كانوا موحدين إلى أن جاء عمرو بن لحى الخزاعي فاعتنق بعضهم الوثنية.

---

(١) أنظر مروج الذهب جـ ٢، ص ١٥٥ : ١٦٨ بتصرف أنظر زنادقة قريش المحبر ١٦١.

(٢) مروج الذهب، جـ٢، ص ١٠٥، ٢٣٧.

(٣) أنظر نشأة الفكر الفلسفي جـ ٢، ص ١٦٨ بتصرف.

(٤) أنظر نشأة الفكر الإسلامي في الإسلام جـ ٣ / ٧٢ بتصرف.

(٥) أنظر المرجع السابق، نفسه، جـ ٣ / ٧١ بتصرف يسير.

وسنعود إلى شرح هذا الموضوع فيما بعد وسنبين أن الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان[1].

ويستنتج مما سبق كله:

أن اليهودية، والنصرانية، المجوسية فارس وأديانها – والأديان الهندية، والأديان اليونانية ديناً، وفكراً، وثقافة، وملامح عرفانية لم تؤثر من قريب أو بعيد في عرف الجاهلية – قبل الإسلام – في دينهم وفكرهم وثقافتهم ملامحهم العرفانية – التصوف.

وإذا كان البعض قد آمنوا بها فهؤلاء بداهة يلتزمون بها ويتأثرون بها أما من لم يؤمن بها من العرب فبداهة لم يتأثر بها.

ثانياً: من حيث تجميع وحصر جميع الملامح العرفانية السابقة على العرب ومناقشة تأثيرها على الملامح العرفانية للعرب قبل الإسلام إن وجد:

إن نظرنا إلى هذه القضية من أولها إلى آخرها.

وحصرنا وحددنا الملامح العرفانية على اتساع الكتاب من أوله إلى الآن للتصوف الشرقي، الغربي، اليوناني، وتصوف الصابئة واليهودية والنصرانية. ونظرنا إليها نظرة تصاعدية من أسفل إلى أعلى سنجد:

١- أن تصوف قدماء المصريين قد.

٢- أثر في تصوف بلاد ما بين النهرين – البابليين وأن تصوف ما بين النهرين قد.

٣- أثر في التصوف الهندي.

٤- وأن التصوف الهندي قد أثر في

٥- التصوف الفارسي.

إذن التصوف الشرقي كله عبارة عن أثر للملامح العرفانية المصرية القديمة وبما زادوا عليه من ملامحهم الخاصة.

ثم نأتي إلى:

---

(١) أنظر الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان كله لعباس محمود العقاد.

٥- التصوف اليوناني الغربي فنجد جميع ملامحه العرفانية كلها أثر من آثار التصوف الشرقي وبما أضافوه من ملامحهم العرفانية الخاصة بهم.

ثم نأتي إلى:

٦- التصوف الصابئي، اليهودي، النصراني فسنجد الملامح العرفانية عندهم ما هي إلا أثر مباشر للتصوف الغربي، والشرقي.

فكأن الملامح العرفانية كلها منبعها الملامح الشرقية والملامح الشرقية كلها مدينة للمعرفة الشرقية والكل مدين للثقافة والمعرفة العربية، لأنها أسبق للجميع.

وإذا نظرنا إلى القضية والملامح العرفانية من أعلى إلى أسفل من حيث التأثير سنجد أن:

١- التصوف النصراني أثر للملامح العرفانية لليهود.

٢- وإذا نظرنا إلى الملامح العرفانية لليهود سنجدها أثراً من آثار الملامح الصابئة العرفانية واليونانية.

٣- وملامح الصابئة العرفانية منقولة من ملامح اليونان.

٤- وملامح اليونان منقولة – أيضاً – من ملامح فارس العرفانية.

٥- وملامح فارس منقولة من ملامح الهنود.

٦- وكذلك ملامح الهنود أثر من آثار ملامح ما بين النهرين – البابليين.

٧- وملامح – البابليين – أثر من آثار ملامح قدماء المصريين.

٨- وملامح قدماء المصريين متأثرة ومدانة لشفافة العربية وهذا ما سنبحثه إن شاء الله تعالى.

وسنذكر الملامح العرفانية السابقة كلها لننظر هل يوجد ملمح منها عند العرب الجاهليين قبل الإسلام وأثر فيها أم لا؟

<u>الفصل الثاني: الملامح العرفانية للشرق – التصوف الشرقي:</u>

[١] ملامح قدماء المصريين في الكتاب ص ٥٢:

(١) ملامح الاتجاه العام في الكتاب ص ٥٢.

١- نظرية متكاملة في صدور الكائنات عن مصدر واحد.

٢- نظرية المثل. ٣- الشمس رمز التوحيد.

٤- النفس خالدة. ٥- النفس مغايرة للجسد.

(٢) الخاص في الكتاب ص ٥٣.

٦- المعرفة عن طريق الإشراق. ٧- وحدة الوجود.

[٢] ملامح بلاد النهرين – البابليين في الكتاب ص ٥٥:

٨- الزمان المطلق ٩- المكان المطلق.

١٠- النظام الكوني.

[٣] ملامح التصوف الهندي ص ٦٠ : ٦٧ في الكتاب:

١١- التناسخ. ١٢- وحدة الوجود.

١٣- المعرفة عن طريق الإشراق. ١٤- تجوال الروح.

١٥- الانطلاق. ١٦- مبدأ الصيرورة.

١٧- الكرمان. ١٨- النرفانا.

١٩- الإلهام. ٢٠- إنكار النبوة.

٢١- الفناء.

٢٢- الخلق عن طريق الصدور من القوة العليا.

٢٣- مبدأ الحلول. ٢٤- الجمع بين التشبيه والتنزيه.

٢٥- الغلو في الزهد.

[٤] ملامح التصوف الفارسي ص ٩٩ في الكتاب:

٢٦- النار رمز للإله. ٢٧- الزمان المطلق.

٢٨- التركيز على فكرة الخلاص.

٢٩- فكرة المخلص المهدي المنتظر.

٣٠- تعميم مبدأ الخير والشر.

<u>الفصل الثالث: ملامح التصوف الغربي – اليوناني:</u>

المبحث الأول: التصوف الطبيعي الوثني:

(١) المدرسة الطبيعية الأولى ص ١٢١ في الكتاب.

٣١- الماء أصل الأشياء.

٣٢- اللامحدود يضم مزيجاً من الأضداد.

٣٣- الأصل الذي نشأ منه هذا الوجود مادة غير محددة.

٣٤- تأليه العناصر.

٣٥- الماء، النار، رمز للألوهية والقوة الواحدة.

(٢) المدرسة الإيلية ص ١٢٣ في الكتاب.

٣٦- الله والعالم شيء واحد.

٣٧- النظرة الحلولية إلى الوجود.

(٣) الطبيعيون المتأخرون ص ١٢٤ في الكتاب:

٣٨- وحدة الوجود. ٣٩- تأليه البشر.

٤٠- تأليه القوى الطبيعية.

٤١- ادعاء النبوة عن طريق الإشراق.

٤٢- التناسخ.

(٤) أرسطو ص ١٣٠ في الكتاب:

٤٣- الاعتماد على المحسوس.

٤٤- الإله عنده هو العلة الغائبة.

٤٥- الحلول.

٤٦- وسيلة المعرفة في المحسوسات.

<u>المبحث الثاني: التصوف العرفاني الروحي:</u>

(١) الاتجاه السري في الكتاب ص ١٣٤.

٤٧- تحقيق الجذب الروحي. ٤٨- العدالة.

٤٩- العالم كله روح.

٥٠- الطهارة عن طريق القرابين.

٥١- التناسخ.

(٢) سقراط في الكتاب ص ١٣٥:

٥٢- الربط بين العلم والدين. ٥٣- الزهد.

٥٤- المعرفة طريقها العقل. ٥٥- العزلة.

(٣) افلاطون في الكتاب ص ١٤٠:

٥٦- التناسخ. ٥٧- نظرية المثل.

٥٨- الرمز والتخييل. ٥٩- الخلود.

٦٠- الحب المتعلق بالجمال المطلق.

٦١- التشبيه بالله عن طريق التخلق.

٦٢- سبق النفس البدن.

٦٣- الفضيلة في النظام والتناسق.

(٤) فيثاغورث في الكتاب ص ١٤٩:

٦٤- الحدس ٦٥- التناسخ.

(٥) الرواقيون في الكتاب ص ١٥٢:

٦٦- وحدة الوجود. ٦٧- إنكار الخلود.

٦٨- أصل المعرفة المحسوسات.

المبحث الثالث التصوف التوفيقي:

(١) الأفلاطونية الحديثة في الكتاب ص ١٦٠:

٦٩- المعرفة عن طريق الجذب. ٧٠- الرمزية.

٧١- الفناء. ٧٢- الفيوضات

٧٣- النفس والاتحاد. ٧٤- وحدة الوجود.

٧٥- إرجاع الشر إلى المادة.

٧٦- النزعة الوثنية في تأليه أقاليم العقل والنفس.

٧٧- تأليه الكواكب.

(٢) الملامح التوفيقية في الكتاب ص ١٧٢:

٧٨- المعرفة المباشرة طريق التطهر.

٧٩- الثنائية بين الله والعالم.

٨٠- نظرية الصدور العالمي عن طريق المتوسطات.

٨١- الخير والشر قائمان على فكرتي النور والظلمة.

الفصل الرابع: ملامح الصابئة واليهودية والنصرانية:

المبحث الأول الملامح العرفانية للصابئة في الكتاب ص ١٩٨.

٨٢- التناسخ. ٨٣- الحلول.

٨٤- الفيض. ٨٥- البعث.

٨٦- الخير والشر. ٨٧- الإشراق طريق المعرفة.

المبحث الثاني الملامح العرفانية لليهود في الكتاب ص ٢١٧:

٨٨- المعرفة عن طريق الإشراق.

هي خليط بما سبق كله.

المبحث الثالث: الملامح العرفانية للنصارى في الكتاب ص ٢٥٢، ٢٥٤:

٨٩- تجسيد المسيح وألوهيته. ٩٠- الفناء.

٩١- المعرفة طريقها الإشراق. ٩٢- نظرية الحب.

٩٣- الإلهام. ٩٤- حلول الإ في كل شيء.

٩٥- صدور الكائنات من قوة واحدة.

والباقي خليط مما سبق كله.

وبحذف المكرر منها:

يصبح عدد الملامح العرفانية الموجودة قبل العرب هي:

١- صدور الكائنات عن مصدر واحد.

٢- النفس خالدة والجسد مغاير.

٣- وحدة الوجود.

٤- الرجعية.

٥- الحلول والاتحاد.

٦- التشبيه.

٧- الجمع بين التشبيه والتنزيه.

٨- المسيح المخلص والمهدي المنتظر.

٩- وجود قوتين.

١٠- الاعتقاد في حياة أخرى.

١١- الرمزية.

١٢- الفيض الإلهي.

١٣- نظرية المثل.

١٤- العلم اللدني.

١٥- الإشراق طريق المعرفة.

١٦- التجسد.

١٧- الزمان والقدر المطلق.

١٨- تأليه البشر.

١٩- التناسخ.

٢٠- الإلهام.

٢١- التجرد من الملكية والغلو في الزهد.

٢٢- عقائد المغسلة.

٢٣- الآلات الموسيقية لتحقيق الجذب الروحي.

٢٤- نظرية الكلمة.

٢٥- نظرية الحب.

٢٦- الفناء.

٢٧- فكرة التثليث.

٢٨- الإيمان بأصلين قديمين مزجها أصل ثالث.

وإذا نظرنا إلى كل الملامح العرفانية السابقة على العرب وهي الملامح الشرقية بأنواعها والملامح العرفانية اليونانية بأفرادها وكذلك الملامح العرفانية للصابئة واليهودية والنصرانية لا نجد ملمحاً واحداً منها قد أثر في العرب أو تأثر به العرب؛ لأن ما عندهم أحسن وأفضل مما هو عند غيرهم.

ثالثاً: علة عدم تأثر العرب قبل الإسلام بالملامح العرفانية السابقة عليهم والمعاصرة لهم:

ترجع علة عدم تأثر العرب بالثقافة السابقة عليهم والمعاصرة لهم وكذلك عدم تأثرهم بالملامح العرفانية لمن سبقهم والمعاصرة لهم علاوة على ما سبق إلى:

- فطرتهم السوية التي لم تختلط بهم تعقيدات النصرانية ولا مادية اليهودية ولا متجهات الفلسفة اليونانية ولا الشيوعية الفارسية الأباحية.

- لم أجد – حقيقة – دونما عصبية – أناساً عندهم منهاج ثابت له أبعاده المحددة وشموله في العقيدة بكل فروعها والشريعة بجميع جزئياتها إلا العرب آنذاك فلديهم تصور يكاد يكون كاملاً ومتكاملاً وشاملاً عن الله، الرسول، الإنسان، والعالم.

وإذا كان هناك انحراف في بعضه فهذا في نفسه يعطي أرضية صالحة لمناقشة إذا ما اتضح لهم الصواب آمنوا به عن اقتناع وتفهم.

- علاوة على ما امتاز به العرب دون غيرهم – بلا استثناء من ذهن صاف وقريحة صافية وتفكير راجح وحافظة قوية وشجاعة نادرة وكرم وإباء وحرية وغيرها من الصفات الخلقية والخلقية والنفسية التي أهلتهم لهذا.
- كفى اختيار الله لهم وتكرمه عليهم ليكونوا أول حلة لهذا الدين – الإسلامي – وقد ذكر الله تعالى شرفهم وهو شرف كبير لهم بقوله تعالى: "لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" [الأنبياء (١٠)].

فبين تعالى شرف القرآن الكريم ومحرضاً لهم على معرفة قدره.

ومبيناً لهم قدرهم عنده؛ لاختيارهم لتحمل شرف الرسالة الإسلامية؛ لأنهم أسمى من غيرهم وكفى بهذا شرفاً لهم وتزكيته تعالى لهم:

لقد أنزلنا كتاباً فيه شرفكم، وحديثكم ودينكم أفلا تعقلون هذه النعمة وتتلقوها بالقبول[١].

وتخصيص العرب الذكر لا ينفي دعوة غيرهم إلى الإسلام ولكن المنة عليهم أبلغ من أن يكونوا هم أول من حمل هذه الرسالة كما قال تعالى "وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ" [الزخرف: ٤٤].

ولا يلزم من تخصيص الشيء بالذكر نفي ما عداه[٢].

---

(١) أنظر تفسير ابن كثير، جـ ٣، ص ١٧٤.

(٢) أنظر هذه الجزئية بالتفصيل في:

١- لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب؟ أحمد مرسي سالم، دار الجيل – بيروت.

٢- لماذا بعث الرسول ρ في مكة ولم يبعث في غيرها من البلدان – عبد القادر أحمد عطا – الاعتصام – مصر.

- وفي هذا رد على دعوى همجية العرب.

فلقد حصل لبعض الدعاوى وأصحابها من المستشرقين – ومن على شاكلتهم أن يتهموا العرب قبل الإسلام بكل همجية وتأخر وجمود وقتل وسلب ووأد للبنات، ويرسمون صورة قاتمة مظلمة للعصر الجاهلي.

كيف يتسنى للإسلام أن يبني دعوته على رجال اتهموا بالهمجية والقتل والسلب؟

وأيضاً هذا مخالف البتة لاختيار الله تعالى وتزكيته لهم على من عداهم "لقد أنزلنا كتاباً فيه ذكركم" "وإنه لذكر لك ولقومك".

فالعرب على الرغم من انحرافهم العارض الدخيل عليهم لم يجحدوا الله تعالى البتة ولكنهم لا يعرفونه المعرفة الحقيقية الحقة التي وصف بها نفسه والتي يجب أن يعرفوها – كانوا على الرغم من هذا الانحراف العارض – عند الله تعالى أحسن من غيرهم ومن أهل الكتاب نظراً لما أدخلوها من انحرافات جوهرية في عقيدتهم التي حرفوا أصولها وغيروها تغييراً جذرياً.

- كان العرب يطلقون على أهل مكة أهل الله، لأنهم حماة بيته والقائمون على رعايته وحفظه والمحافظون على حرمه، الخدام لزواره وبخاصة بعد أن نصر الله بيته في عام الفيل بأن رد أبرهة عن بيته وهزمه الله هو وجيشه شر هزيمة "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥)" [الفيل ١ : ٥].

وذلك حينما قام عبد المطلب ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة ونقل المعركة التي بينهم وبينه إلى ما بين أبرهة وبين الله فكان عبد المطلب يمسك بحلقة الكعبة ويدعو ويقول:

لا هم إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبداً محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك

وكقول نفيل:

أيـــن المفـــر والإلـــه الطالـــب والأشـرم المغلـوب لـيس الغالـب[1]

من هنا تتجلى لنا الحكمة في عدم استهواء اليهودية أو النصرانية عرب الجاهلية من قبل الإسلام – ودخولهم فيها؛ لأنهم وجدوا أن ما هم عليه أفضل بكثير من تعقيدات اليهودة وجمود النصرانية وحجرهما على العقل علاوة على سيطرة الفكر اليوناني الوثني على اليهودية والنصرانية واحتوائه لهما فبدل أن تؤثر اليهودية والنصرانية فيه وتذيبه إذا بهما تذوبان في الفكر اليوناني الوثني وتتوثن اليهودية والنصرانية.

هذا – كله – أو بعضه لم يستهو العرب ولم يغرهم في الدخول في اليهودية والنصرانية، ولم تؤثر فيهم الملامح العرفانية للشرق ولا للغرب.

علاوة على سهولة عقيدتهم وتفكيرهم المتفتح ولتمسكهم بدين إبراهيم الخليل – والإنساب إليه.

يصور الدكتور النشار عذا التعليل بقوله:

كان وراء كل هذا غريزة باطنية في أولاد إسماعيل يتشوقون نحو شيء في اللامحدود فيما وراء الوجود.

جاءتهم المسيحية من الشمال ومن الجنوب ومشيخة العرب من أولاد إسماعيل يهزون رؤسهم ولا يبدون حراكاً وأسرعت إليهم اليهودية وهي تحمل التوراة المنحرفة فأنكروها ووقفوا ينظرون إليها بازدراء"[2].

<u>ومن حيث عدم تأثرهم بالفكر اليوناني فجملة القول فيه:</u>

أن الثقافة الآرامية عربية في لغتها ونشأتها ونسبتها إلى عناصرها، ولا يمكن أن يعرف لها نسبة على أمة غير الأمة العربية في عهودها الأولى، فكل ما اعتقاد العالم من حياتها فهو من فضل هذه الأمة العربية قبل الإسلام – على الثقافة العالمية.

وإذا اختلفت الأقوال عن مصادر النقل والاقتباس فلا خلاف في أمرين:

---

(١) أنظر تفصيل ذلك في تفسير ابن كثير جـ ٤ / ٥٥٠.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ ٣، ص ٧٣.

١- أن الأبجدية اليونانية منقولة عن أبجدية سبقتها إن هذه الأبجدية السابقة هي الأبجدية العربية التي تدل عليها ألفاظ حروفها وأشكالها ومعانيها.

وإن كانت هذه الحقيقة غنية عن أقوال المؤرخين والرواة فلابد معها عن حقيقة أخرى مثلها والوضوح بعد حاجة إلى إسناد من التاريخ أو الرواية.

٢- انتقال لوازم الحضارة وصناعتها الأولية على الأقل مع انتقال الكتابة وانتقال أساليب استخدامها في المعاملات، فإن الأمة المتعلمة لا تأخذ الكتابة من معلميها أو تترك ما عندهم من صناعة السفن وغيرها من المعارف المختلفة.

فلو لم يذكر التاريخ شيئاً عما استفاده اليونان من صناعات البلاد العربية ومعالم حضارتها لكانت هذه الفوائد من حقائق البداهة التي تستغني عن التاريخ، ولكن التواريخ اليونانية والأساطير الشعبية قد سجلت هذه الحقيقة وتذكرها كما تذكر الحقائق المسلمة التي لا داعي لتمويهها ولا المغالطة فيها، لعلهم كانوا يذكرونها بشيء من الفخر. لأنهم تعلموا حيث وجدوا العلم الضروري ولم يهملوه.

ومن العرب الأقدمين تعلم اليونان صناعات الحضارة واقتباس اليونان من العرب يظهر لنا من تشابه الكلمات في اللغتين ولاسيما الألفاظ التي تدل على أصل متشعب في العربية، أو تدل على نظام المعيشة في الغالب على الأمة وطول العهد به في موطن مستقر.

إذن اليونان تعلموا من العرب القدامى ونقلوا الفلسفة عن الشرق.

ولا ننكر لفضل الفلسفة اليونانية ولكن الادعاء الذي ينكره كل منصف أن اليونان قد امتازوا بفلسفتهم، لأنهم أبناء القارة الأوروبية وأصحاب المذهب الإنساني المتفرد بين أذهان البشر بمزايا البحث الطليق وحب الاستطلاع بمحض العلم والاطلاع.

فاليونان لم ينفردوا بالفلسفة في جميع عصورهم ولم يزدد عصر فلفستهم الممتازة على ثلاثة قرون منها مائة سنة على الأكثر تفرغت فيها فلسفتهم للبحوث الخالصة في حقائق الوجود وأصول الأشياء على قدر المستطاع من نوع الفكر الإنساني لهذه الأمة.

إن الموقع الجغرافي لليونان يحكم بأنهم تلاميذ طبيعيون لكل ثقافة شرقية، كلما كانت للشرق ثقافة غالبة، فإذا وقف هذا المورد عند حد من الحدود أو وراه حاجز من الحواجز فذلك هو الحاجز الذي يصد السبيل عن مجراه ويتحول به إلى ينبوع سواه.

وبذلك حكم الموقع التاريخي والجغرافي على أن اليونان تلاميذ للثقافة الشرقية وبالأخص الثقافة العربية.

وأيضاً:

سبق العرب للعبرين في ثقافتهم الدينية أوضح من سبقهم لليونان في ثقافة المعرفة وصناعات الحضارة ووقائعه وقرائته أقرب سنداً من الوقائع والقرائن التي تثبت سبق ثقافة العرب في المعرفة وصناعات الحضارة"[١].

ونستنتج مما سبق كله:

١- سقوط دعوى تأثر العرب في الجاهلية بجميع الثقافات التي سبقتهم والمعاصرة لهم سواء كانت شرقية – مصرية، بلاد النهرين، هندية فارسية – غربية – يونانية بجميع أبعادها – صابئة، يهودية، نصرانية.

٢- سقوط دعوى تأثر العرب في الجاهلية لجميع الملامح العرفانية لمن سبقهم والمعاصرة لهم سواء أكانت ملامح عرفانية شرقية، أو غربية، أو صابئة أو يهودية، أو نصرانية.

٣- هذه دعاوى باطلة مدعاة لا أساس لها من الصحة.

٤- بيان الحكمة من اختيار الله تعالى لهم.

٥- الرد على دعوى همجية العرب.

٦- الرد على دعوى اتهام العقلية العربية بالسذاجة وعدم التحليل.

٧- إثبات الذاتية للعقلية والفكر العربي قبل الإسلام.

---

(١) أنظر كل ما سبق الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان عباس محمود العقاد ٢٠، ٣٢، ٣٥، ٤٢، ٤٣، ٥١، ٥٢، ١٢.

٨- مواجهة مسبقاً دعوى تأثر التصوف الإسلامي بالملامح العرفانية – بالتصوف الشرقي – المصري – البابلي، الهندي، الفارسي، أو التصوف الصابئي، واليهودي والتصوف النصراني.

فهذه دعاوى لا أساس لها من الصحة وسنتناولها بالتفصيل إن شاء الله تعالى في الجزء الثاني من الكتاب بتوفيق الله.

فهل اتضح الغرض إذن من تأليف هذا الكتاب وهو:

١- تبرئة التصوف العربي قبل الإسلام من تأثير جميع أنواع التصوف الشرقية والغربية، والصابئة، واليهودية، والنصرانية السابقة عليه والمعاصرة له.

٢- تبرئة التصوف الإسلامي من تأثير جميع أنواع ملامح التصوف الشرقية والغربية والصابئة واليهودية والنصرانية.

٣- وإذا حدث تأثير في التصوف الإسلامي فهذا دخيل ويعتبر مدعياً للتصوف.

٤- إثبات الذاتية للتصوف الإسلمي بمصادره الإسلامية، ومقوماته الإسلامية.

وإذا كنا قد أثبتنا بأن العرب لم تؤثر فيهم الملامح العرفانية لمن سبقهم وأثبتنا لهم الذاتية المستقلة لهم في ثقافتهم وفكرهم ومنها الملامح العرفانية.

فما هو يا ترى الملامح العرفانية للعرب قبل الإسلام هذا ما سنبحثه إن شاء الله تعالى في:

المطلب الثاني: الملامح العرفانية للعرب قبل الإسلام "التصوف العربي قبل الإسلام".

<u>سنتناول في هذا المطلب النقاط الآتية:</u>

أولاً النقطة الأولى هل اسم - التصوف - والصوفية كان موجوداً في الجاهلية:

إن من الثابت إن كلمة التصوف استخدمت إما في أواخر القرن الثاني الهجري وإما في بدء القرن الثالث الهجري أما حركة الزهد كزهد فقد وجدت في الجاهلية والإسلام والزهد والتصوف يساوي تماماً الحياة الروحية سواء أكانت في الجاهلية أو في الإسلام.

فهل يا ترى كانت كلمة تصوف موجودة عند العرب في الجاهلية قبل الإسلام؟

الحقيقة لقد تعددت الآراء وتشعبت في كيفية نشأة التصوف وكلمته وليس هذا مجاله[١]، ولكن الذي يهمنا في موضوعنا هنا هو هل كانت كلمة التصوف موجودة في الجاهلية؟

الإجابة: بالإثبات نعم.

لأننا إذا وجهنا أبصارنا إلى المعاجم اللغوية المتاحة لنا فستجدها تدلنا على ذلك (ص – و – ف).

الصاد والواو والفاء أصل واحد صحيح، وهو الصوف المعروف، والباب كله يرجع إليه. يقال: كبش أصوف وصوف: وصائف وصاف، كل هذا أن يكون كثير الصوف.

ويقولون: أخذ بصوفة قفاة. إذا أخذ بالشعر السائل في نقوته.

وصوفه: قوم كانوا في الجاهلية، كانوا يخدمون الكعبة، ويجيزون الحاج، وحكي عن أبي عبدة أنهم أفناء القبائل تجمعوا فتشبكوا كما يتشبك الصوف قال:

ولا بريمون في التعريف موقفهم حتى يقال أجيز وآل صوفانا

فأما قولهم صاف عن الشر إذا عدل فهو من باب الإبدال يقال: صاب إذا مال"[٢].

"الصوف للضأن. والصوفة أخص منه.

وتصوف الرجل وهو صوفي من قوم صوفية كلمة مولدة"[٣].

"وصوفة أيضاً أبوحي من مضر وهو الغوت بن مر بن أد بن طابخة كانوا يخدمون الكعبة ويجيزون الحاج في الجاهلية أي يفيضون بهم من عرفات وكان أحدهم يقوم فيقول: أجيزي صوفة فإذا أجازت قال: أجيزي خندف فإذا أجازت أذن للناس في الأجازة.

---

(١) نتعرض لهذه الآراء – بإذن الله تعالى وتوفيقه في تناولنا لها في الجزء الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى وحوله.

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس جـ ٣، ص ٣٢٢.

(٣) المصباح المنير ص ٤١٦ أنظر كذلك مختار الصحاح ص ٣٧٣.

أو هم قوم من أفناء القبائل تجمعوا فتشبكوا كتشبك الصوفة. وقول الجوهري ومنه حتى يقال: أجيزوا آل صوفانا وهم الصواب آل صفوانا وهم قوم من بني سعد بن مناة.

قال أبو عبيدة حتى يجوز القائم بذلك من آل صفوان والبيت لأوس ابن مغرد"[١].

"والصوفية قوم كانوا يخدمون الكعبة، فقيل سموا بذلك؟ لأنهم تشبكوا بها كتشبك الصوف بما نبت عليه والصوفان نبت أزغب.

والصوفي قيل منسوب إلى لبسه الصوف وقيل منسوب إلى الصوفة الذين كانوا يخدمون الكعبة لاشتغالهم بالعبادة، وقيل منسوب إلى الصوفان الذي هو نبت لاقتصادهم واقتصارهم في الطعم على ما يجري مجرى الصوفان في قلة في الغذاء"[٢].

"الصوفة كل من ولى شيئاً من عمل البيت وهم الصوفان وصوفة أبو حي من مضر وهو الغوث بن مر أدبن طابخة بن إلياس بن مضر كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية، ويجيزون الحاج أي يفيضون بهم.

وصوفة حي من تميم كانوا يجيزون الحاج في الجاهلية من "منى" فيكونون أول من يدفع، يقال في الحج: أجيزي صوفة، فإذا أجازت قيل: أجيزي خندف فإذا أجازت أذن للناس كلهم في الإجازة وهي الإفاضة.

يقول أوس بن مغراد السعدي:

ولا يريمون في التعريف موقفهم حتى يقال أجيزوا آل صوفانا.

وكانت الإجازة بالحج إليهم في الجاهلية وكانت العرب إذا اجتمعت وحضرت عرفة لا تدفع منها حتى يدفع بها صوفة وكذلك لا ينفرون من – منى – حتى تنفر صوفة فإذا أبطأت بهم قالوا: أجيزي صوفة.

وقيل صوفة قبيلة اجتمعت من أفناء قبائل[٣].

---

(١) القاموس المحيط جـ ٣، ص ١٦٩.

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني ص ٢٩٨.

(٣) لسان العرب جـ ١١، ص ١٠٢.

وبناء على ما سبق يكون اسم التصوف الصوفية موجوداً في الجاهلية.

وورد "أنه قبل الإسلام قد خلت مكة في وقت من الأوقات حتى كان لا يطوف بالبيت أحد، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت وينصرف"(١).

إذن بلفظ التصوف – الصوفية – كما هو موجود في اللغة وموجود أيضاً في كتب السيرة النبوية(٢)، وهذا يثبت وجوده قبل الإسلام في الجاهلية.

وما دامت الكلمة موجودة فما هي ملامح العرب العرفانية هذا ما سنبحثه في النقطة التالية.

ثانياً: النقطة الثانية الملامح العرفانية للعرب قبل الإسلام:

(التصوف العربي قبل الإسلام)

الحقيقة أن هذه النقطة تحتاج منفردة إلى كتاب مستقل بذاتها ولكننا بقدر الإمكان سنذكرها بالإجمال وسنحيل لمن أراد الاستزادة حتى يحين وقتها في الجزء الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله.

[أ] بعض الملامح العرفانية للعرب قبل الإسلام كثيرة ومنها:

١- النفس – رأيهم فيها(٣).

٢- الهامة(٤).

٣- تنقل الأرواح(٥).

٤- الرجعة(٦).

٥- المخ(٧).

---

(١) اللمع، ص ٤٣.

(٢) نظر سيرة ابن هشام جـ ١، ص ١١٩ وسنذكر ذلك بعد.

(٣) أنظر مروج الضهب جـ ٢ / ١٥٣، المفصل في تاريخ العرب جـ ٦ / ١٣٦.

(٤) أنظر مروج الذهب جـ ٢ / ١٥٤، بلوغ الأرب جـ ٢ / ١٩٩، المفصل جـ ٦ / ١٣٩.

(٥) أنظر مروج الذهب جـ ٢ / ١٥٤.

(٦) أنظر مروج الذهب جـ ٢ / ١٥٤ والمفصل في تاريخ العرب جـ ٩ / ١٤٢.

(٧) أنظر المفصل في تاريخ العرب جـ ٦ / ١٤٤.

٦- تسخير الأرواح[١].

٧- الهاتف[٢].

٨- الروح[٣].

٩- التناسخ.

هذا الملح اتهم به العرب اعتماداً على رواية غالي فيها أصحابها لتأييد دعواهم ولكن الأصح عدم إيمان العرب بالتناسخ[٤].

- رأيهم في النفس.

كانت لهم آراء يتلزعون في كيفياتها فمنهم.

١- من زعم أن النفس هي الدم لا غير وأن الروح الهوى الذي في باطن جسم المرء نفسه.

٢- وطائفة منهم تزعم أن النفس طائر ينبسط في جسم الإنسان فإذا مات أو قتل لم يزل مطيفاً به متصوراً إليه في صورة طائر يصرخ على قبره متوحشاً[٥].

- تنقل الأرواح عندهم:

والعرب يرون بأن الأرواح تنتقل وتنتق وكيفية ذلك ووسيلة ذلك تعددت آراؤهم فيها[٦].

ولقد اعتقدوا في الرجعة، المسح، الهامة، الغول، الطوائف، والجان التطير، الكهانة، والسحر واترة في الاتصال بالملأ الأعلى[٧].

- المعرفة عنده:

---

(١) أنظر المفصل في تاريخ العرب جـ ٦ / ٧٠٥.

(٢) أنظر مروج الذهب جـ ٢ / ١٦٠.

(٣) أنظر المفصل في تاريخ العرب جـ ٦ / ١٣٦.

(٤) أنظر الرد على دعوى تأثر العرب بالتناسخ مروج الذهب جـ ٢ / ١٣٩ / ١٤١.

(٥) مروج الذهب جـ ٢ / ١٥٤.

(٦) المرجع السابق نفسه جـ ٢ / ١٥٤.

(٧) أنظر مروج الذهب جـ ٢ / ٥٥ : ١٦٠، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ٦، ص ١٤٢.

ورؤيته الرمزية للكون يراها في انقسام الروح إلى خيرة، وشريرة أي أن بعضها يختص بالخير وبعضها الآخر يختص بالشر فيمنح العربي هذا كله معنى المعرفة يستوحى منها مظان افخير في مستقبل حياته.

[ب] المتصوفة في الجاهلية:

كان في الجاهلية جماعات من المتصوفة يلجأ إليهم العرب إذا حزبهم أمر.

لقد اتصف هؤلاء المتصوفة بالزهد والتنسك واعتزلوا المجتمع بعيدين إلى حد كبير – عن مشاركة المجتمع الجاهلي وتشددوا في التمسك بالدين وشعائره.

وكان بعضهم يقوم بخدمة الكعبة، والآخر يقوم بتعليم الحجاج مناسك فكانوا لا يبدؤون مشاعرهم ولا ينتهون منها إلا بإذنهم وأمرهم.

وهؤلاء هم:

١- الحنيفية. ٢- الحمس. ٣- الحلة.

٤- الطلس. ٥- صوفة.

(١) الحنيفية والأحناف:

تعريف الحنيفية:

إذا أردنا أن نعرف الحنيفية فلابد أن نعرفها:

١- تعريف الحنيفية لغة:

بالنظر إلى المعاجم اللغوية المتاحة لنا نجد أن معاني هذه الكلمة يدور حول:

١- مال. ٢- استقام.

لأن كلمة "الحنيفية مشتقة من – حنف – بفتح الحاء والنون "ويحنف" بكسر النون، ويقال – حنفا – بسكون النون في باب ضرب بمعنى: مال – وتقول المراجع اللغوية إن هذا هو أصل الباب"[١].

حنف – بكسر النون – و – يحنف – بفتحها – فيقال – حنفاً – من باب – و – حنف – و – يحنف – بضم النون فيقال "حنفا" بفتح الحاء والنون قد مالت قدمه، أو اعوجت، أو مالت إحدى إبهام قدميه نحو الأخرى.

يقول صاحب لسان العرب[١]:

---

(١) لسان العرب جـ ١٠ ص ٤٠٣.

"الحنف في القدمين إقبال كل واحدة منهما على الأخرى بإبهامها، وهو ميل كل واحد من الإبهامين على صاحبتها وقيل: هو انقلاب القدم حتى يصير بطنها ظاهرها، وقيل ميل في صدر القدم.

وقد حنف حنفاً – والحنف الإعوجاج في الرجل أن يقبل إحدى إبهامي رجليه على الأخرى.

وحنف عن الشيء وتحنف مل"

"الحنف هو" الاستقامة والاعوجاج في الرجل وقد حنف كفرح وكرم فهو حنف وكضرب مال"[٢].

<u>ومما سبق كله نستنتج أن المادة تدور حول معنيين:</u>

١– مال. ٢– استقام.

وقد يبدو – ظاهرياً – أنهما متناقضان ولكننا إذا بحثنا في الحقيقة لوجدنا أن:

حنف – مال – و – مال – في حد ذاتها تحدد لنا اتجاه معناها ففلان – مثلاً – مال عن الباطن فمعناها استقام على الحق فالميل عن الميل استقامة فهذا هو الحنيف.

أما الميل عن الاستقامة فهذا هو الانحراف والاعوجاج فلا يقال حنيفاً ولكن يقال: اعوجاج.

ولكن هناك نقطة التقاء بينهما، فإن الميل عن الاعوجاج هو الاستقامة في حد ذاتها، ولذلك يستعمل اللفظ للدلالة على أحد المعنيين، ويعين السياق حقيقة المراد.

لذا نرجح أن الأصل في اللفظ هو الاستقامة، وأن المعوج سمي مستقيماً طلباً للتفاؤل[٣].

يقول الراغب الأصفهاني في مادة حنف "الحنف هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة، والحنف ميل عن الاستقامة إلى الضلال".

---

(١) المرجع السابق، نفسه جـ ١٠ / ٤٠٣ مادة حنف.

(٢) القاموس المحيط جـ ٣، ص ١٣٤.

(٣) الحنيفية والحنفاء د/ حسن الخربوطلي ص ٨.

والحنيف هو المائل إلى ذلك قال تعالى: "قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا" وجمعه "حنفاء" قال عز وجل "حنفاء لله".

وتحنف فلان أي تحرى طريق الاستقامة ...

والأحنف من في رجله ميل قيل سمي بذلك على التفاؤل وتميل بل استعير للميل المجرد"[١].

وإذا نظرنا إلى معنى كلمة "تحنف" نجدها تحنف الرجل إذا عمل عمل الحنيفية[٢]، هذا قبل الإسلام.

وبعد ظهور الإسلام قيل لمن أسلم تحنف إذا نهج نهج الحنيفية، فلما جاء الإسلام كان الحنيف هو المسلم وقيل حنف لعدوله عن الشرك[٣].

والخلاصة أن معنى تحنف في الجاهلية قبل الإسلام.

١- من عمل عمل الحنيفية أي اقتدى بهم.

٢- من تحرى الاستقامة.

[٢] معنى الحنيف اصطلاحاً:

معنى الحنيف من هو الحنيف في الجاهلية؟

تعددت الآراء فيه فقيل: الحنيف هو:

١- المائل من خير إلى شر ومن شر إلى خير وهذا ضعيف.

٢- المسلم الذي يتحنف عن الأديان أي يميل إلى الحق.

٣- هو المستقبل لقبلة بيت الله الحرام على ملة سيدنا إبراهيم.

٤- هو من كان على دين إبراهيم.

٥- هو المخلص.

٦- هو من حج البيت واغتسل من الجنابة واختتن[٤].

٧- من التزم شعائر دين إبراهيم أو بإحدى شعائره.

---

(١) مفردات الراغب الأصفهاني ص ١٣٣.

(٢) لسان العرب جـ ١٠، ص ٤٠٤.

(٣) المرجع السابق نفسه، جـ ١٠ / ٤٠٤.

(٤) أنظر لسان العرب جـ ١٠ / ٤٠٣ بتصرف.

٨- هو المسلم المقابل للشرك واليهودية والنصرانية ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين [آل عمران ٦٧].

وهذا رد على دعوى من يدعي بأن الحنفاء ما هم إلا أثر من آثار اليهودية أو النصرانية أو هم اليهودية والنصرانية[١].

٩- الحنيف هو من كان على دين الفطرة:

"فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها" [الروم ٣٠].

إذن الحنيفية هي:

١- التوحيد.	٢- الدين.
٣- اتباع الشرائع.	٤- اتباع الحق.
٥- الإخلاص.	٦- شريعة إبراهيم[٢].
٧- الدين الحق[٣].	٨- حج البيت.
٩- دين إبراهيم.	

١٠- الإسلام فكل من إئم بسيدنا إبراهيم في ملته فاستقام عليها فهو حنيف وملته الحنيفية.

١١- الحنيفية هي الفطرة الصحيحة السليمة[٤].

والخلاصة أن معنى: حنف، تحنف، حنيف، حنيفية بالنسبة للعرب قبل الإسلام:

- الدين الذي بعث به سيدنا إبراهيم وعلى ملته وإسلامه الصحيح.
- شريعة سيدنا إبراهيم وعلى شعائر ملته.

إذن الحنيف، الحنفاء:

---

(١) أنظر مواجهة هذه الدعوى وأنه لا أساس لها من الصحة.

أنظر نشأة الفكر الفلسفي جـ ٣، ص ٧٢، مجلة الأزهر عدد صفر ١٤٠٨ هـ ص ١٧٨.

(٢) أنظر تفسير الفخر الرازي، جـ ١ / ٤٩٢.

(٣) أنظر تفسير الطبري جـ ١ / ٥٦٢.

(٤) أنظر المرجع السابق نفسه جـ ١ / ٥٦٢.

هم الذين التزموا بدين سيدنا إبراهيم التزاماً كاملاً وطبقوا شريعته وعلموها لغيرهم.

ومن أراد التعمق في[1]:

---

(١) تاريخ الحنيفية.

(١) تاريخ الحنيفية في عصرها الأول إبان سيدنا إبراهيم عليه السلام.

(٢) تاريخ الحنيفية في عصرها الثاني قبيل بعثة النبي ρ.

(ب) الحنيفية وعقائدها:

(١) الحنيفية وعقائدها في العصر الأول إبان سيدنا إبراهيم عليه السلام.

١- عقائدها. ٢- أصول عباداتها. ٣- مكارم أخلاقها.

(٢) الحنيفية وعقائدها في العصر الثاني قبيل بعث النبي ρ:

١- عقائدها. ٢- أصول عباداتها. ٣- مكارم أخلاقها.

(٣) الفرق بينهما والمقارنة بينهما:

أسماء الحنفاء في عصرها الأول والثاني:

من أراد الاستزادة، هذه الموضوعات فليرجع إلى:

١- كتاب الأصنام لابن الكلبي.

٢- مروج الذهب جـ ١، ص ٧٤.

٣- المحبر.

٤- سيرة ابن هشام جـ ١، ص ٧٧ ، ٧٨.

٥- سيرة ابن كثير، جـ ١، ص ١٤.

٦- المعارف لابن قتيبة.

٧- بلوغ الأرب جـ ٢ / ١٩٤.

٨- المفصل في تاريخ العرب جـ ٦، ص ٤٧٢.

٩- الملل والنحل للشهرستاني جـ ٢، ص ٢٤٤.

١٠- الإتقان في علوم القرآن جـ ١، ص ٣.

١١- تفسير الطبري، جـ ١، ص ٥٢٥.

١٢- ديوان أمية بن الصلب ١ : ٢٠.

١٣- خلاصة الكلام في تاريخ الجاهلية والإسلام جـ ١، ص ١٩٨.

١٤- القرآن والنبي.

١٥- بشائر النبوة الخاتمة.

١٦- الحنيفة والحنفاء.

١٧- بحث مخطوط للعبد الفقير إلى الله تعالى تاريخ الحنيفية من عهد آدم إلى سيدنا رسول الله ρ.

ولقد فرقنا من قبل بين الصابئة والحنيفية غير أننا ما يجب أن نضيفه أن الأستاذ محمد عزة دروزه في كتابه عصر النبي وبيئته قبل البعثة يجعلهما شيئاً واحداً.

الرد على دعوى بأن الحنيفية حركة ثورية، وبأنها متأثرة باليهودية والنصرانية:

ولا يظنن ظان بأن الإسلام حركة ثورية وامتداد لحركة الأحناف، لأنهم يريدون من وراء ذلك تفسير الإسلام وكتابة القرآن الكريم تفسيراً مادياً تاريخياً.

كيف يتسنى – يا قوم – بأن تصل حركة الأحناف إلى أوجها ونهايتها تمهيداً لظهور الإسلام؟

هل يصح هذا من عقل عاقل؟ إلا إذا كان معتوهاً على الرغم من أن العقل السليم يقرر عكس ذلك تماماً.

فكلما مرت الأيام وكثرت السنون وابتعد الزمن وتوغل في القدم عن بداية الحنيفية الصحيحة كلما قل أعضاؤها وهبطت حيويتها وقل نشاطها وانكمش روادها ووصلت إلى أدنى لها.

وبناءً على ذلك:

فالإسلام ليس ثورة وليس مرحلة من مراحل ثورة أو من التاريخ ولكنه تشريع ووحي إلهي وأنتم تريدون أن تفسروه تفسيراً مادياً على حسب هويتكم والإسلام هويته في اسمه وحددها له منزله وهو تشريع سماوي وليس إلا امتداد للعقيدة الصحيحة السليمة منذ آدم إلى محمد ρ.

"إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا" [النساء آية ١٦٣ – ١٦٤].

ولا أساس نهائياً لمن يدعي بأن الأحناف هم اليهود والنصارى أو تأثروا بهما فأثبتت الدراسات الحديثة بعد اكتشاف وثائق البحر الميت تدمغ هذه الدعوى وقائليها ومن قبلها القرآن الكريم قد قضي عليها ودحضها "ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين"[(١)].

ارجع إليه إذا شئت.

الفصل السادس في الحنفاء والصابئين وأتباع ملة إبراهيم ص ٦٦٦ : ٧١٩.

(١) أنظر المشكلة برمتها:

٢- الحمس:

الحمس هم قريش وكنانة وخزاعة ومن ولدت قريش من سائر العرب.

نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولاة البيت وقاطنوا مكة وسكانها فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا.

ملامحهم العرفانية:

- لا ينبغي للحمس أن ياقطوا الأقط، ولا يسئلوا السمن وهو حرم.
- لا يسكنون البيوت وهم حرم.
- لا يدخلون بيتاً من شعر ولا يستظلون إلا في بيوت الأدم ما داموا حرماً.
- لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل في الحرم إذا جاءوا حجاجاً أو عماراً.
- لا يطوف أهل الحل بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس فإن لم يجدوا شيئاً منها طافوا بالبيت عراة.
- يطوفون بالبيت سبعاً في ثياب جديدة.
- يطوفون بالصفا والمروة[١].
- تركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها ولا يخرجون من الحرم ولا يدفعون من المزدلفة، وهم يقرون أنها من مشاعر دين إبراهيم، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها، وأن يفيضوا منها، إلا أنهم قالوا نحن أهل الحرم فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها.

وحملوا العرب على ذلك كله[٢].

٣- الحلة :

ملامحهم العرفانية:

- يحرمون الصيد في النسك ولا يحرمونه في غير الحرام.

- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام د/ علي سامي النشار، جـ ٣، ص ٧٣.
- مجلة الأزهر عدد صفر ١٤٠٩ هـ ص ١٧٨.

(١) المحبر ص ١٧٩.

(٢) أنظر سيرة ابن إسحاق ٨٠ ، ١٠٠ بتصرف.

وأنظر أسماء قبائل الحمس كتاب المحبر ص ١٧٨، سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٠.

- يتواصلون في النسك.
- بتصديق الغني بأكثر ماله في نسكه.
- استكروا من ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم.
- لا يدخلون من باب دار ولا باب بيت ولا يؤويهم ظل ما داموا محرمين.
- إذا خرجوا للحج لم يستحلوا أن يشتروا شيئاً أو يبيعوا شيئاً حتى يأتوا إلى منازلهم[١].

٤- الطلس:

كانت الطلس بين الحلة والحمس.

ملاحمهم العرفانية:

- يلتزمون بما التزمت به الحلة.
- يلتزمون بما التزمت به الحمس[٢].

وكان الجميع

- يعظمون الكعبة ويكسونها.
- يعظمون مكة المكرمة.
- الكعبة مباركة شاهدوا بركاتها بأعينهم[٣].
- يكرهون الظلم في الحرم وينهون غيرهم عنه[٤]، ويعظمون الأشهر الحرم ويحرمونها[٥].

---

(١) المحبر ص ٩٨٠ أنظر قبائل "الحلة" ص ١٨٠ المحبر وكذلك سيرة ابن هشام جـ ٢، ص ٢٠٣.

(٢) أنظر المحبر ص ١٨١.

أنظر أسماء قبائل الطمس، المحبر ص ١٨٠ سيرة ابن هشام جـ ١، ص ٢٠٣.

(٣) أنظر سيرة ابن إسحاق ص ٧٠.

(٤) الملل والنحل جـ ٢، ص ٢٤٧.

(٥) المحبر، ص ٢١٩.

٥- صوفـة :

قد سبق أن ذكرناهم ونحن نتكلم عن وجود الكلمة في أول هذا المبحث وقد أفاض ابن هشام[١]، وغيره في سيرتهم.

فقالوا عنهم:

الصوفة.

١- قوم كانوا في الجاهلية، كانوا يخدمون الكعبة، ويجيزون الحاج.

٢- أنهم أفناء القبائل تجمعوا فتشبكوا كما يتشبك الصوف وقال:

ولا يديمون في التعريف موقفهم حتى يقال أجيزوا صوفانا[٢]

٣- هو أبو حي من مضر وهو الغوث بن مر بن أدين طابخة كانوا يخدمون الكعبة ويجيزون الحاج في الجاهلية أي يفيضون بهم من عرفات وكان أحدهم يقوم فيقول أجيزي صوفة فإذا أجازت قال: أجيزي خندق فإذا أجازت[٣]، أذن للناس كلهم في الإجازة.

٤- هم قوم من بني سعد بن زيد بن مناه[٤].

٥- صوفة حي من تميم كانوا يجيزون الحاج في الجاهلية من منى[٥].

٦- كان يجيء رجل من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت وينصرف[٦].

وقد عرف الغوث بن مر بأنه ربيط الكعبة وضأن الله.

وذكرت أمه الأبيات الآتية:

إنـــي جعلـــت رب مـــن بنيـــه		ربيطـــــة بمكـــــة العليـــــة
فبـــاركن لـــي بهـــا إليـــه		واجعلـه لـي مـن صـالح التربـة[٧]

(١) أنظر سيرة ابن هشام جـ ١، ص ١٩٩ ، ٢٠١.

(٢) معجم مقاييس اللغة جـ ٣، ص ٣٢٢.

(٣) المصباح المنير ص ٤١٦ سيرة ابن هشام، جـ ١، ص ١٩٩.

(٤) المصباح المنير ص ٤١٦.

(٥) لسان العرب جـ ١١ / ١٠٢.

(٦) الفلسفة الهندية ص ٣٦٠.

(٧) سيرة ابن هشام جـ ١ / ١١٩.

إن أول من تنبه إلى فكرة ربيط الكعبة وضأن الله وصلتها بفكرة الذبيح إسماعيل هو الباحث العراقي الدكتور كامل مصطفى الشبيبي.

المطلب الثالث: تأثير الملامح العرفانية للعرب على غيرهم قبل الإسلام:

أعتقد بعد أن بينت وشرحت وحللت في المطلب الأول من هذا المبحث الثاني – قصة تأثير الثقافة العربية على جميع الثقافات الشرقية؛ والغربية، اليونانية – والصابئة واليهودية؛ والنصرانية.

قد اتضح الغرض والهدف من هذا المطلب فارجع إليه إن شئت(١).

وننتهي من بحث الحياة الروحية – الملامح العرفانية – الزهد.

التصوف – عند العرب قبل الإسلام بنتائج هامة:

١- إن العرب وهم أصحاب واقعية حسية بلا شك، وفشلت الأساطير المركبة في حياتهم – كانت لهم حياة روحية، زهد، ملامح عرفانية، تصوف – تمثلت في فريقين رئيسيين:

أ – الأحناف.

ب- وصوفة وفي غيرهم – مما ذكرت – من طوائف فرعية كانوا يشعرون أنهم أولاد إسماعيل الذبيح، وأن الكعبة بيت الله.

فلم تكن الحياة الروحية – التصوف – الملامح العرفانية – الزهد – قبل الإسلام هشة كما ظن ويظن البعض، بل كانت حياة مليئة بمختلف النزاعات والاتجاهات، وجاءت رسالة الإسلام لتعيدها إلى أصلها النقي، إلى دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام(٢).

---

(١) ارجع إلى ص ٢١٧ في هذا الكتاب لترى أثر الملامح العرفانية العربية على اليهود.

(٢) أنظر نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ ٣، ص ٧٨ بتصرف.

وأنظر الأحناف، الحمس. صوفة نفس المرجع جـ ٣، ص ٧٣ : ٧٨.

ومن هنا يتضح لنا أن كلمة تصوف موجودة في الجاهلية فلا صحة نهائياً لما يدعيه البيروني في كتابه الفلسفة الهندية ص ٣٦، من أن الكلمة أصلها يوناني "بيلاسو" أي محب الحكمة.

وهذا رأي خاص به وحدة، لأن التسمية بالتصوف كانت موجودة في الجاهلية وقبل ترجمة الحكمة اليونانية أنظر الرد عليه هامش ٣٦ نفس الكتاب المذكور.

وبناء على ما سبق كله:

فمن هو الصوفي في عرف الجاهليين قبل الإسلام؟

الصوفي هو:

من ولى شيئاً من أمر الكعبة.

من خدم الكعبة المشرفة.

من الصف بالفضل والصلاح.

من أجاز الناس من عرفة أو من منى.

هو الزاهد القانع الذي يقتنع بالقليل.

المنذور لخدمة الكعبة.

ربيط الكعبة وضأن الله.

علاوة على ما ذكرناه في الحنيفية، الحمس، الحلة، الطلس، الصوفة.

(٤) وسمي بهذا الاسم:

١- نسبة إلى لبس الصوف.

٢- نسبة على الصوفة الفخذ المعروف.

٣- نسبة إلى الصوفان وهو نبت قليل بسيط.

وإذا كنا قد ذكرنا تعريف الصوفي بالنسبة للعرب في الجاهلية قبل الإسلام.

- فما هو تعريف الصوفي العالمي ليشمل صوفية العالم كله قبل الإسلام.
- وما هي صفاته العالمية التي إذا تحققت أطلق عليه اسم صوفي.

هذا ما سنبحثه إن شاء الله تعالى في:

المبحث الثالث من الفصل الخامس وهو المبحث الأخير في الكتاب.

المبحث الثالث
صفات التصوف العالمي - أرضياً أو سماوياً - قبل الإسلام
المطلب الأول
تعريف التصوف العالمي - قبل الإسلام

يعرفون التصوف العالمي بتعريفات منها:

١- خبرة وتجربة ذاتية رمزية يصعب التعبير عنها بالألفاظ العادية.

٢- فلسفة حياة تهدف إلى الترقي بالنفس الإنسانية أخلاقياً وتتحقق بواسطة رياضيات عملية معينة تؤدي إلى الشعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى، والعرفان بها ذوقاً لا عقلاً، وثمرتها السعادة الروحية، ويصعب التعبير عن حقائقها بألفاظ اللغة العادية، لكونها وجدانية الطابع وذاتية[١].

فمن تحقق فيه أحد تعاريف التصوف البشري الإنساني العالمي ومنها التعريفان المذكوران سابقاً يعتبر متصوفاً عالمياً سواء أكان تصوفاً بشرياً أو سماوياً دينياً.

فالمتصوف هو: من يشعر بحالات وجدانية خاصة يصعب التعبير عنها بالألفاظ العادية نتيجة رياضيات عملية معينة تؤدي إلى الشعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى، والعرفان بها ذوقاً لا عقلاً.

لأن التصوف بوجه عام فلسفة حياة وطريق معين في السلوك يتخذها الإنسان أي إنسان ليحقق كماله الأخلاقي وسعادته الروحية.

المطلب الثاني
صفات التصوف العالمي

إن كلمة تصوف، على الرغم من شيوعها وانتشارها إلا أنها في الوقت نفسه من الكلمات المبهمة الغامضة التي تتعدد مفهوماتها وتتباين مدلولاتها – أحياناً – ويرجع السبب في ذلك أن التصوف قاسم مشترك بين ديانات وفلسفات وحضارات مختلفة في عصور متباينة كما ظهر لنا هذا على امتداد الكتاب من فصله الثاني إلى فصله الخامس.

---

(١) أنظر المدخل إلى التصوف د/ أبو الوفا التفتازاني جـ ٨ بتصرف يسير.

وبناء على هذا بداهة.

فكل صوفي يعبر عن تجربته الذاتية وشعوره الباطن في إطار ما يسود مجتمعه من عقائد وأفكار.

والتجربة الصوفية في حد ذاتها واحدة في حقيقتها ولكن التباين والاختلاف بين صوفي وآخر يرجع أساساً إلى تفسير التجربة ذاتها وإلا بعد عمقها وعدمه، وتأثر الصوفي نفسه بالحضارة التي ينتمي إليها.

والتصوف – على حسب دراستنا السابقة – نوعان:

١- أحدهما ديني. ٢- والآخر فلسفي – بشري.

٣- فالتصوف الديني قاسم مشترك بين الأديان سواء في ذلك الشراءع السماوية والأديان للشرقية القديمة الوضعية.

٤- والتصوف الفلسفي قديم كذلك وقد عرف في الشرق وفي التراث الفلسفي القديم كذلك.

وكان التصوف الديني يمتزج أحياناً بالفلسفة والعكس يحدث أحياناً أخرى.

ومن هنا حاول الباحثون أن يحددوا صفات التصوف العالمي سواء أكان بشرياً أو شرعياً لتحديد هويته عما سواه وتمييزه عما عداه فتعددت مجموعات تحديد صفات التصوف والمتصوف عندهم نظراً لاختلاف وجدانهم وتباين تجربتهم الذاتية وتنوع شعورهم عمقاً وضحالة.

ومن جاء تحديد صفاتهم في مجموعات متنوعة هي:

١- المجموعة الأولى:

قد حاول بعض الباحثين أن يحدد الصفات العامة المشتركة بين أنواع التصوف المختلفة في أربع خصائص.

١- هي أحوال إدراكية بمعنى أنها تبدو لأصحابها على أنها حالات معرفة وتكشف لهم فيها عن حقيقة موضوعية وهي بمثابة الإلهامات وليست من قبيل المعرفة البرهانية.

أي أنها إلهامية وليست اكتسابية.

٢- لا يمكن التعبير عنها أو وصفها لكونها أحوال وجدانية وما كان كذلك يصعب التعبير عن مضمونه في صورة لفظية دقيقة.

٣- أثرها ثابت في ذاكرة صاحبها على أي وجه كان وهي مع ذلك أحوال سريعة الزوال أي لا تستمر مع الصوفي مدة طويلة.

٤- هي لا إرادية أي أن الإنسان لا يحدثها بإرادته فيبدو الصوفي في تجربته كما لو كان خاضعاً لقوة خارجية عليا تسيطر عليه وتخضعه لها.

٢- المجموعة الثانية :

من الباحثين من حدد السمات لأحوال التصوف بسبع هي:

١- النور الباطني الذاتي. ٢- السمو الأخلاقي.

٣- الإشراق العقلي. ٤- الشعور بالخلود.

٥- فقدان الخوف من الموت. ٦- فقدان الشعور بالذنب.

٧- المفاجأة.

وبالنظر إلى ما سبق نجد أن الخصائص المذكورة في المجموعتين السابقتين للتصوف موجودة في معظم وأغلب أنواعه. لكنها ليست شاملة، لأن هناك خصائص أخرى لا تقل في أهميتها عن المذكورة آنفاً كالشعور بالطمأنينة، وسعادة النفس أو الرضا، والشعور بتجاوز المكان والزمان وغير ذلك[١].

٣- المجموعة الثالثة :

هذه محاولة لأحد الباحثين ليتلافى النقد السابق – فحصر خصائص التصوف الفلسفية في:

١- الاعتقاد في الكشف أو البصيرة منهجاً للمعرفة لمقابلة المعرفة عن طريق التحليل الاستلالي.

٢- الاعتقاد في الوحدة – الوجودية – ورفض التضاد والقسمة أياً كانت صورهما.

٣- إنكار حقيقة الزمان.

---

(١) أنظر مدخل إلى التصوف الإسلامي د/ أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ص ٥ بتصرف دار الثقافة للنشر والتوزيع – الفجالة – القاهرة.

٤- الشر شيء ظاهري وخيال مترتب على القسمة والتضاد اللذين يحكم بهما العقل التحليلي.

من الملاحظ على ما سبق.

- إن الخاصية الأولى وهي أن المنهاج الصحيح للمعرفة بين عامة الصوفية على اختلاف مذاهبهم وعصورهم هو الإدراك المباشر الوجداني أو الكشف.
- أما بالنسبة للخواص الثلاث الباقية فهي تنطبق على الصوفية القائلين بوحدة الوجود فقط ولا تنطبق على غيرهم.

٤- المجموعة الرابعة :

هناك خصائص نفسية وأخلاقية أكثر انطباقاً على مختلف أنواع التصوف – غالباً – وهي:

١- الترقي الأخلاقي:

إن كل متصوف له قيم أخلاقية معينة يهدف إلى تصفية نفسه للوصول إلى تحقيق تلك القيم.

هذا يستتبع – بالضرورة – مجاهدات بدنية ورياضية نفسية معينة وزهد في ماديات الحياة وغير ذلك ليصل إلى تحقيق تلك القيم.

٢- الفناء في الحقيقة المطلقة:

وهو أن يصل الصوفي من رياضاته إلى حالة نفسية معينة لا يعود معها يشعر بذاته، كما يشعر ببقائه مع حقيقة أسمى مطلقة وأنه قد فنيت إرادته في إرادة المطلق.

وهنا قد ينطلق بعض الصوفية إلى القول بالاتحاد بهذه الحقيقة وقد لا يتكلف بعضهم إلى القول فيها.

وعلى ذلك تكون هذه الخاصية منطبقة على صوفية الوحدة وغيرهم من الصوفية الذين لم يقولوا بها.

٣- العرفان الذوقي المباشر:

وهذا معيار دقيق يميز التصوف عن غيره من الفلسفات.

- فإذا كان الإنسان يعمد إلى اصطناع مناهج العقل في فلسفته لإدراك الحقيقة فهو فيلسوف.
- وإذا كان يؤمن بأن وراء إدراكات الحس واستدلالات العقل منهجاً آخر للمعرفة بالحقيقة يسميه كشفاً أو ذوقاً فهو في هذه الحالة صوفي.

٤- الطمأنينة أو السعادة:

وهي خاصية مميزة لكل أنواع التصوف ذلك أن التصوف يهدف إلى قهر دواعي شهوات البدن أو ضبطها، وإحداث نوع من التوافق النفسي.

وهذا من شأنه يجعل الصوفي متحرراً من كل مخاوفه، وشاعراً براحة نفسية عميقة.

٥- الرمزية في التعبير:

ونعني بالرمزية هنا إن لعبارات الصوفية عادة معنيين:

١- معنى يستفاد من ظاهر الألفاظ.

٢- معنى يستفاد بالتحليل والتعمق.

وهذا المعنى الأخير يكاد يستغلق تماماً على من ليس بصوفي وصعوبة فهم كلام الصوفية أو إدراك مراميهم، لأن التصوف حالات وجدانية خاصة يصعب التعبير عنها بألفاظ اللغة وليست قاسماً مشتركاً بين الناس كلهم ولكل صوفي طريقته في التعبير عن حالاته[١].

في الحقيقة إذا جمعنا جميع الصفات الماضية كلها وحذفنا المكرر منها لوجدناها تصدق على جميع أنواع التصوف – تقريباً – في صورته الناصعة أو الكاملة.

وهي في الوقت نفسه من اتصف بها أو بعضها – فهو المتصوف إذن فصفات التصوف والمتصوف العالمي هي:

١- الإلهام. ٢- حالة وجدانية لا يمكن التعبير عنها.

٣- لحظية مع بقاء أثرها. ٤- لا إرادية.

---

(١) أنظر المدخل إلى التصوف ص ٨ بتصرف شديد.

٥- نور باطني ذاتي. ٦- سمو أخلاقي.

٧- إشراقي عقلي. ٨- الشعور بالخلود.

٩- فقدان الخوف من الموت.

١٠- فقدان الشعور بالذنب.

١١- المفاجأة. ١٢- الاعتقاد في الوحدة الوجودية.

١٣- إنكار حقيقة الزمان. ١٤- الشر شيء ظاهري.

١٥- الفناء في الحقيقة المطلقة.

١٦- الطمأنينة والرضا والسعادة.

١٧- الرمزية في التعبير.

موضوع التصوف:

وموضوعه هو تنقية القلب وتطهيره عن طريق رياضيات معينة للوصول إلى غاية وهدف معين.

غايته :

تختلف الغاية من التصوف – تبعاً لمصادره.

- فهناك من يقف بغاية التصوف عند حد الغاية الأخلاقية وهي تهذيب النفس وضبط الإرادة وإلزام الإنسان بالأخلاق الفاضلة وهو ما يطلقون عليها الصفة العملية التربوية.
- وهناك من يتجاوز هذه الغاية إلى ما هو أبعد وهي معرفة الله تعالى.

ويعني هؤلاء بمناهج المعرفة، ويؤثرون من بينها الكشف.

- وهناك غاية فلسفية بهدف أصحابها إلى اتخاذ مواقف من الكون محاولين فيها إيجاد تفسير له، وتحديد صلته بخلقه، وصلة الإنسان بالله.

وهذه وهي وإن كانت غاية فلسفية إلا أنها صوفية قائمة على أساس من الذوق والتذوق وإن بدت في ثوب فلسفي، لأن الصوفي – على حسب رأيهم قد يغيب في لحظات معينة عن شعوره بذاته، فيشعر بأن العالم الخارجي لا حقيقة له بالقياس إلى الله.

وأثمر ذلك مذاهب صوفية معينة كوحدة الوجود والحلول والاتحاد[1].

أي غايات التصوف هي:

١- غاية أخلاقية. ٢- غاية كشفية.

٣- غاية فلسفية وهي صوفية في حقيقتها فلسفية في مظهرها.

وبذلك نكون قد انتهينا من الكتاب والحمد لله رب العالمين في كل آن وحين.

هذا والله أعلم ،،،

ومنه الهداية والتوفيق.

١٢ من جمادى الآخرة سنة ١٤٠٩ هـ

الجمعة

٢٠ من يناير سنة ١٩٨٩ م.

(١) أنظر المدخل إلى التصوف ص ٩ بتصرف يسير.

المراجع

أولاً: القرآن الكريم كلام رب العالمين.

ثانياً: المراجع مرتبة على حسب حروف الهجاء من دون أل.

١- الأديان والمذاهب الشرقية.

أ / د / عثمان عبد المنعم عبش – ط ١ – ١٣٨٦ هـ – ١٩٦٦ م.

مكتبة الطلبة – شبرا – القاهرة – مصر.

٢- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير.

المرحوم أ / د / محمد بن محمد أبو شهبة مجمع البحوث الإسلامية – ١٣٩٣ هـ، ١٩٧٣ م – الأزهر – القاهرة – مصر.

٣- الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام.

أ / د / علي عبد الواحد وافي – دار نهضة مصر للطباعة والنشر – الفجالة – القاهرة – مصر – بدون تاريخ.

٤- إغاثة اللهفان من مصايد الشياطن.

لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية – ٦٩١ : ٧٥١ هـ بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقي – دار العدل – الإسكندرية – مصر – بدون تاريخ.

٥- الأصنام – لأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي –

تحقيق أحمد زكي باشا – ط ٢ – ١٣٤٣ هـ ١٩٢٤ م – دار الكتب المصرية – القاهرة – مصر.

٦- أيمان العرب في الجاهلية – صناعة أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله النجيرمي الكاتب ٣٩٩ هـ

تحقيق محب الدين الخطيب – ط – ٢ – ١٣٨٣ هـ – المكتبة السلفية – الروضة – مصر.

٧- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب.

تـأليف السـيد محمـود شـكري الألوسـي البغـدادي – عنـي بشـرحه وتصـحيحه وضبطه محمد بهجت الأثري – ط ٣ – دار الكتب الحديثة عابدين – القاهرة – مصر – بدون تاريخ.

٨- بوذا الأكبر –
حامد عبد القادر – مكتبة نهضة مصر – الفجالة – مصر – بدون تاريخ.

٩- التأويل الإسماعيلي الباطني ومدى تحريفه للعقائد الإسلامية.
أ / د / عبد العزيز سيف النصر – ط ١ – ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٢ م – مطبعة الجلاء – مصر.

١٠- التصوف العربي – الأستاذ محمد ياسر شرف – كتاب الهلال العدد – ٢٨١ – ذي الحجة ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م كورنيش النيل – مصر.

١١- تفسير القرآن العظيم:
للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ت ٧٧٤ هـ – طبع دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابلي الحلبي وشركاه – القاهرة – مصر – بدون تاريخ.

١٢- التفسير الكبير – للإمام فخر الدين الرازي أبي عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الأصلي الشافعي المذهب ت ٦٠٦ هـ – ط ٢ – وبهامشه تفسير العلامة أبي السعود – رحمه الله تعالى – دار الفكر – بيروت – بدون تاريخ.

١٣- تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل تأليف أبي القاسم جار الله محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي ت ٥٣٨ هـ الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ – ١٩٦٦ م – شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده – القاهرة – مصر.

١٤- تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني
للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد / محمود الألوسي البغدادي ت – ١٢٧٠ هـ – طبع إدارة الطباعة المنيرية – بيروت – لبنان – بدون تاريخ.

١٥- التوحيد الخالص – الإسلام والعقل – للمرحوم أ / د / الإمام الشيخ عبد الحليم محمود دار الكتب – عابدين – مصر – بدون تاريخ.

١٦- الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعيريين

تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد – المكتبة الثقافية – ١ – وزارة الإرشاد القومي المصرية – مطابع دار العلم – القاهرة – بدون تاريخ.

١٧- الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي.

المرحوم أ / د / محمد البهي – دار الكتاب العربي للطباعة والنشر – القاهرة – ١٩٦٧ م.

١٨- جامع البيان عن تأويل القرآن –

تأليف الإمام أبي جعفر محمد بن جزير الطبري – ت ٣١٠ هـ – ط ٣ – ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨ م – شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – القاهرة – مصر.

١٩- الجامع لأحكام القرآن – للإمام أبي عبد محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ط – ٢ – ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٧ م – دار الكتاب العربي – القاهرة – مصر.

٢٠- الحنيفية والحنفاء منذ عهد إبراهيم حتى ظهور الإسلام.

تأليف أ د/ علي حسن الخربوطلي ١٢٩٤ هـ – ١٩٧٤ م – مصر.

٢١- دراسات في الأديان – أديان العالم القديم.

أ / د / أحمد أحمد غلوش ط – ١ – ١٣٨٩ هـ – ١٩٧٨ م – دار الطباعة المحمدية – الأزهر – القاهرة – مصر.

٢٢- الدين – بحوث ممهد لدراسة تاريخ الأديان –

الأستاذ المرحوم الدكتور / محمد عبد الله دراز – دار القلم – ١٤ هـ – ١٩٨٠ م الكويت.

٢٣- الدين والإنسان – دراسات في الأديان والمذاهب القديمة

أ / د / عبد العقاد محمد عزيز وآخرون – الفاروق الحديثة للطباعة والنشر ط ١ – ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م – القاهرة – مصر.

٢٤- الدين والتدين – الشيخ أحمد حسن الباقوري – كتاب اليوم – مؤسسة أخبار اليوم – القاهرة – مصر – بدون تاريخ.
٢٥- رسالة التوحيد – تأليف الشيخ الإمام محمد عبده – ت ١٣٢٣ هـ – ١٣٨٥ هـ – ١٩٦٠ م – محمد علي صبيح الأزهر – مصر.
٢٦- زرادشت الحكيم بني قدامى الإيرانيين – حيانة وفلسفته.
الأستاذ/ حامد عبد القادر – مكتبة نهضة مصر – الفجالة – مصر – بدون تاريخ.
٢٧- سيرة ابن إسحاق المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي
تأليف محمد بن إسحاق بن يسار – بتحقيق وتعليق محمد حميد الله – تقديم الأستاذ / محمد الفأس – معهد الدراسات والأبحاث للتعريف – المغرب ١٣٩٦ هـ – ١١٧٦ م.
٢٨- السيرة النبوية لابن هشام حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا وآخران – ط – ٢ – ١٣٧٥ هـ – ١٩٥٥ م.
شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
٢٩- الصابئة قديماً وحديثاً – تأليف الشيخ عبد الرازق الحسيني.
ط ١ – ١٣٥٠ هـ – ١٩٣١ م – مكتبة الخانجي – مصر – ١٩٢٥ م.
٣٠- علم التصوف –
د/ محمد مصطفى – ط ١ – ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م بدون مكتبة.
٣١- عيون الأخبار – تأليف أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة
ت ٢٧٦ هـ – الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٣ م – القاهرة – مصر.
٣٢- الفصل في الملل والأهواء والنحل للإمام ابن حزم الظاهري الأندلسي ت ٤٥٦ هـ – مكتبة السلام العالمي ٥ أجزاء في مجلد واحد – القاهرة – مصر – بدون تاريخ.
٣٣- الفلسفة الهندية مع مقارنة لفلسفة اليونان والتصرف الإسلامي – البيروني – راجعه وقدم له – د / عبد الحليم محمود، الأستاذ / عثمان عبد المنعم – مطبعة أحمد علي مخيمر – القاهرة – مصر – بدون تاريخ.

٣٤- في تاريخ الفلسفة اليونانية –
أ د / عوض الله جاد حجازي، السيد/ محمد السيد نعيم – ط ٨ – دار الطباعة المحمدية – القاهرة – مصر – بدون تاريخ.
٣٥- في التصوف الإسلامي تاريخ وقضايا – د / حامد محمد الزفري جـ ١ ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م دار الطباعة المحمدية – الأزهر – مصر.
٣٦- القاموس القويم للقرآن الكريم –
الأستاذ أحمد عبد الفتاح ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٣ م – مجمع البحوث الإسلامية – القاهرة – مصر.
٣٧- قصة العقائد بين السموات والأرض – الأستاذ – سليمان مظهر – دار النهضة العربية ١٣٨١ هـ – ١٩٦٢ م.
٣٣ ش عبد الخالق ثروت – القاهرة – مصر.
٣٨- كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للمفسر المحدث الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني – ت ١١٦٢ هـ – أشرف على طبعه وتصحيحه أحمد القلاش مكتبة التراث الإسلامية – حلب – سوريا بدون تاريخ.
٣٩- كونفوشيوس – د/ حسن شحاتة سعفان – مكتبة نهضة مصر – الفجالة – القاهرة – مصر – بدون تاريخ.
٤٠- كيف تبلغ الدعوة الإسلامية إلى الأمم الأجنبية.
المرحوم الدكتور الشيخ / جمعة الخولي ط ١ – ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م – القاهرة – مصر.
٤١- لسان العرب – لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ٦٣٠ هـ – ٧١١ م طبعة مصورة عن طبعة بولاق – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر – تراثنا – القاهرة – مصر – بدون تاريخ.
٤٢- اللمع – لأبي نصر السراج الطوسي ت ٣٧٨ هـ – حققه وقدمه له أ / د / عبد الحليم محمود، الأستاذ/ طه عبد الباقي سرور.
دار الكتب الحديثة ١٣٨٠ هـ – ١٩٦٠ م القاهرة – مصر.

٤٣- محاضرات في النصرانية – الإمام المرحوم محمد أبو زهرة – دار الفكر العربي ط ٤ – ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٢ م القاهرة – مصر.

٤٤- المحبر – للعلامة أبي جعفر محمد بن حبيب ت ٢٤٥ هـ
وقد عينت به د / إيلز ليختن شنيتر – منشورات المكتب التجاري للطباعة – بيروت – لبنان.

٤٥- مختار الصحاح – للشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي رحمه الله – عني بترتيبه محمود خاطر بك ط ٣ – ١٣٢٥ هـ – ١٩١٦ م. مطبعة بولاق – القاهرة – مصر.

٤٦- مدخل إلى التصوف الإسلامي د/ أبو الوفا الغنيمي التفتازاني دار الثقافة للنشر والتوزيع – ١٩٨٨ – الفجالة – مصر.

٤٧- مروج الذهب ومعادن الجواهر –
تصنيف أبي الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي تت ٣٤٦ هـ
تحقيق المرحوم الشيخ / محمد محيي الدين عبد الحميد – المكتب الإسلامي – بيروت – لبنان – بدون تاريخ.

٤٨- مشكلة الألوهية د / محمد غلاب – ط ٢ – ١٣٧١ هـ – ١٩٥١ م دار إحياء الكتب العربية عيسى البابلي الحلبي – الأزهر – مصر.

٤٩- المصباح المنير للفيومي.

٥٠- معجم مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب الأصفهاني
ت ٥٠٣ هـ – تحقيق نديم مرعشلي – الكتاب العربي – بيروت – لبنان – بدون تاريخ.

٥١- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ت ٣٩٥ هـ – بتحقيق وضبط الدكتور / عبد السلام محمد هارون – ط ٢ – ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢ م – شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر – القاهرة.

٥٢- المفصل في تاريخ العرب – قبل الإسلام – د / جواد علي – ط ٣ – ١٩٨٠ م دار العلم للملايين – بيروت – لبنان.

٥٣- مقدمة ابن خلدون – تأليف العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون تحقيق د / علي عبد الواحد وافي – دار نهضة مصر للطبع والنشر – الفجالة – القاهرة – مصر – بدون تاريخ.

٥٤- الملل والنحل – للإمام أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر الشهرستاني – ٤٧٩ : ٥٤٨ هـ – تحقيق د/ محمد سيد كيلاني – شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – ١٣٨٧ هـ – ١٦٦٧ م – الأزهر – مصر.

٥٥- المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الإمام الغزالي مع أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي بقلم أ د / عبد الحليم محمود – ط ٧ – ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م – بدار الكتاب الحديثة – عابدين – القاهرة – مصر.

٥٦- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام د / علي سامي النشار دار المعارف ط ٨ – دار المعارف – القاهرة – مصر – بدون تاريخ.

جدول المحتويات (الفهرس)

المقدمة:..... ٢
الباب الأول..... ٧
التصوف قبل الإسلام..... ٧
مدخل:..... ٨
الفصل الأول..... ١٣
الطرق الموصلة إلى الله تعالى ١٣
مدخل:..... ١٤
المبحث الأول– طريق الوحي ١٤
١– الإيمان الفطري:..... ١٤
٢– الإيمان التكليفي:..... ١٨
المبحث الثاني..... ٢٨
طرق الفكر البشري ٢٨
١– البيئة الاجتماعية [التقاليد الاجتماعية – التأليه الاجتماعي]: ٢٩
٢– العقل – التفلسف – التأليه العقلي:..... ٢٩
٣– التأليه الإشراقي:..... ٣٠
١– مبدأ تعدد الوجود: ٣٢
٢– مبدأ وحدة الوجود:..... ٣٢
الفصل الثاني..... ٣٥
التصوف الشرقي..... ٣٥
مدخل..... ٣٦
المبحث الأول ٣٦
التصوف المصري القديم..... ٣٦
الملامح العرفانية عند قدماء المصريين (التصوف):..... ٣٦

أ – اتجاه صوفي عام:..... ٣٦
(ب) اتجاه صوفي خاص "صوفية هومس الحكيم":..... ٣٧
أثر هذا الاتجاه:..... ٣٨
المبحث الثاني..... ٣٩
تصوف ما بين النهرين..... ٣٩
الاتجاه الصوفي للأمويين:..... ٣٩
أثر هذا الاتجاه:..... ٣٩
المبحث الثالث..... ٤٠
التصوف الهندي..... ٤٠
الملامح العرفانية عند الهنود:..... ٤٠
الملامح العرفانية – التصوف – عند الهنود:..... ٤٢
١– التناسخ:..... ٤٢
٢– وحدة الوجود:..... ٤٤
٣– نظرية المعرفة:..... ٤٤
٤– تجوال الروح:..... ٤٥
٥– الانطلاق:..... ٤٥
٦– مبدأ الصيرورة:..... ٤٥
٧– الكرمان:..... ٤٦
٨– النرفانا:..... ٤٦
٩– الإلهام:..... ٤٧
١٠– إنكار النبوة:..... ٤٨
١١– الخلق عن طريق الصدور من القوة العليا..... ٤٨
١٢– وجود فكرة الجمع بين التنزيه والتشبيه()..... ٤٨
أثر التصوف – الملامح العرفانية – الهندية في التصوف البشري:..... ٤٨
مواجهة الإسلام للبوذية:..... ٥٤
المبحث الرابع..... ٧٠

الملامح العرفانية عند الفرس التصوف الفارسي ٧٠
الملامح العرفانية – التصوف عند الفرس:..... ٧١
أثر التصوف – الملامح العرفانية الفارسية في التصوف البشري: ٧٣
الفصل الثالث..... ٨٠
التصوف الغربي – اليوناني..... ٨٠
مدخل ٨١
المبحث الأول ٨٥
التصوف الطبيعي الوثني والعقلي المنحرف ٨٥
المطلب الأول: اتجاهات الملامح العرفانية الوثنية:..... ٨٥
المطلب الثاني: الاتجاهات العرفانية عند أرسطو:..... ٩٠
المبحث الثاني..... ٩٤
التصوف العرفاني الروحي ٩٤
المطلب الأول ٩٥
الديانات – الاتجاهات السرية..... ٩٥
الملامح العرفانية عندها:..... ٩٥
المطلب الثاني..... ٩٦
اتجاه سقراط ٤٦٩ – ٣٩٩ ق . م..... ٩٦
الملامح العرفانية عنده:..... ٩٦
تأثير تلك الملامح فيما بعد:..... ٩٨
المطلب الثالث..... ٩٩
اتجاه أفلاطون ٤٢٧ : ٣٤٨ ق . م..... ٩٩
الملامح العرفانية في اتجاه أفلاطون:..... ١٠٠
تأثير الملامح العرفانية الأفلاطونية على ملامح من بعده:..... ١٠٤
المطلب الرابع ١٠٥
اتجاه فيثاغورث ٥٧٢ : ٤٩٧ ق . م..... ١٠٦
ملامح الفيثاغوريين العرفانية:..... ١٠٦

تأثير الملامح العرفانية للفيثاغورمين على الملامح العرفانية – لمن بعدهم:.....١٠٨
المطلب الخامس.....١٠٨
الاتجاه الرواقي زينون ٣٣٦ – ٢٦٤ ق . م ١٠٨
الملامح العرفانية للاتجاه الرواقي:.....١٠٩
تأثير الملامح العرفانية للرواقية على الملامح العرفانية فيما بعد:.....١١٠
المبحث الثالث.....١١٣
التصوف التوفيقي.....١١٣
المطلب الأول ١١٣
الملامح العرفانية عند الأفلاطونية الحديثة.....١١٣
تأثير هذه الملامح العرفانية على الملامح الأخرى:.....١١٨
المطلب الثاني: الملامح العرفانية التوفيقية بين التصوف الشرقي والغربي الغنوص
الشرقي والغربي:.....١٢٣
تحديد مصطلح الغنوصية ومبادئها العامة:.....١٢٣
الفصل الرابع ١٢٧
التصوف الصائبي، اليهودي، النصراني – المسيحي.....١٢٧
مدخل ١٢٨
المبحث الأول ١٣٠
الملامح العرفانية – التصوف – عند الصابئة.....١٣٠
مدخل:.....١٣٠
المطلب الأول: تحديد معنى كلمة الصابئة:.....١٣٠
المطلب الثاني: مذهب الصابئة وأول من أحدثه:.....١٣٥
المطلب الثالث.....١٣٥
الفرق بين الحنفية والصابئة والحرانية – الحرانية:.....١٣٥
المطلب الرابع طوائف الصابئة وعقائدهم وطقوسهم:.....١٣٩
المطلب الخامس: الملامح العرفانية للصابئة:.....١٤٠

أولاً: منبع ملامحهم العرفانية (تأثير الملامح العرفانية السابقة عليهم في تشكيل ملامحهم): ١٤٠
ثانياً: الملامح العرفانية – التصوف – عند الصابئة:.....١٤١
١- التناسخ: ١٤١
٢- الحلول.....١٤٢
التشخيص:.....١٤٢
٣- الفيض:.....١٤٣
٤- النفس عندهم:.....١٤٤
٥- الخير والشر عندهم:.....١٤٤
٦- نظرية المعرفة:.....١٤٤
ثالثاً: تأثير الملامح العرفانية للصابئة على الملامح العرفانية لغيرهم: ١٤٤
أولاً: تأثيرها على المسيحية:.....١٤٥
ثانياً: تأثيرها على الفكر الإسلامي:.....١٤٥
المبحث الثاني.....١٤٨
الملامح العرفانية – التصوف – عند اليهود.....١٤٨
مدخل.....١٤٨
المطلب الأول.....١٤٩
الآراء في تسميتهم باليهود.....١٤٩
المطلب الثاني.....١٥٠
فرقهم ومسائلهم.....١٥٠
المطلب الثالث.....١٥٠
الملامح العرفانية –التصوف– عند اليهود.....١٥٠
أولا–النقطة الأولى: منبع ملامحهم العرفانية.....١٥٠
أولا: تأثير التصوف الشرقي على الملامح العرفانية لليهود:.....١٥١
ثانيا: تأثير التصوف الغربي على الملامح العرفانية لليهود:.....١٥٣
ثالثا: تأثير المسيحية:.....١٥٤

رابعا- تأثير الملامح العرفانية للعرب قبل الإسلام:.....١٥٦
ثانيا: النقطة الثانية الملامح ال عرفانية عند اليهود.....١٥٦
أولا تأثير الغنوص اليهودي على المسيحية:.....١٥٩
ثانيا: تاثير الغنوص اليهودي في بعض المسلمين:.....١٦٠
المبحث الثالث.....١٦٦
الملامح العرفانية –التصوف- عند النصارى.....١٦٦
مدخل:.....١٦٦
المطلب الأول ١٦٨
تسميتهم.....١٦٨
المطلب الثاني.....١٧٠
فرقهم ومسائلهم وسبب اختلافهم.....١٧٠
المطلب الثالث: الملامح العرفانية للنصرانية: ١٧٦
أولاً: تأثير الملامح العرفانية السابقة على النصرانية في نشأة الملامح العرفانية للنصرانية.....١٧٦
١- تأثير الملامح العرفانية الشرقية على الملامح العرفانية النصرانية: ١٧٧
٣- تأثير الملامح العرفانية للصابئة واليهودية على الملامح العرفانية النصرانية: ١٨٠
٢- تأثير الملامح العرفانية الغربية اليونانية على الملامح العرفانية النصرانية: .١٨١
ثالثاً: تأثير الملامح العرفانية النصرانية على الملامح العرفانية الأخرى:.....١٨٣
٢- تأثيرها على ما يقال ويدعى على الفكر الإسلامي والملامح العرفانية: ١٨٤
الفصل الخامس.....١٨٧
التصوف العربي قبل الإسلام.....١٨٧
الملامح العرفية للعرب قبل الإسلام.....١٨٧
مدخل.....١٨٨
أقسام العرب:.....١٨٩
المطلب الأول: حالة العرب الدينية قبل عمرو بن لحى:.....١٩١

المطلب الثاني: حالة العرب الدينية بعد عمرو بن لحى.....١٩٧
المبحث الثاني.....٢٠٠
الملامح العرفانية للعرب قبل الإسلام (التصوف العربي قبل الإسلام) ٢٠٠
المطلب الأول ٢٠٠
تأثير الملامح العرفانية السابقة عليهم.....٢٠٠
أولاً: من حيث الناحية الاعتقادية:.....٢٠١
١- الوثنية وهذا لا مجال لنا معها في التأثير والتأثر().....٢٠١
٢- اليهودية.....٢٠١
مناقشة دعوى تأثر العرب باليهودية وثقافتها ومنها الملامح العرفانية:.....٢٠١
٣- النصرانية: ٢٠٣
مناقشة دعوى تأثير النصرانية وثقافتها وملامحها العرفانية في ديانة العرب وثقافتهم وملامحهم العرفانية.....٢٠٣
٤- المجوسية: (أديان فارس وملامحها الوفائية):.....٢٠٤
مناقشة تأثيرها على الملامح العرفانية العربية قبل الإسلام:.....٢٠٥
٥- الأديان الهندية ومناقشة تأثيرها في الملامح العرفانية للعرب قبل الإسلام:..٢٠٥
٦- الأديان اليونانية ومناقشة تأثيرها على ملامح العرب قبل الإسلام: ٢٠٥
ثانياً: من حيث تجميع وحصر جميع الملامح العرفانية السابقة على العرب ومناقشة تأثيرها على الملامح العرفانية للعرب قبل الإسلام إن وجد:.....٢٠٦
ثالثاً: علة عدم تأثر العرب قبل الإسلام بالملامح العرفانية السابقة عليهم والمعاصرة لهم:.....٢١٢
المطلب الثاني: الملامح العرفانية للعرب قبل الإسلام "التصوف العربي قبل الإسلام".....٢١٨
أولاً النقطة الأولى هل اسم – التصوف – والصوفية كان موجوداً في الجاهلية: .٢١٨
ثانياً: النقطة الثانية الملامح العرفانية للعرب قبل الإسلام:.....٢٢١
[أ] بعض الملامح العرفانية للعرب قبل الإسلام كثيرة ومنها:.....٢٢١
[ب] المتصوفة في الجاهلية:.....٢٢٣

٢- الحمس:.....٢٢٩
٣- الحلة:.....٢٢٩
٤- الطلس:.....٢٣٠
٥- صوفة:.....٢٣١
المطلب الثالث: تأثير الملامح العرفانية للعرب على غيرهم قبل الإسلام:.....٢٣٢
المبحث الثالث.....٢٣٤
صفات التصوف العالمي – أرضياً أو سماوياً – قبل الإسلام.....٢٣٤
المطلب الأول.....٢٣٤
تعريف التصوف العالمي – قبل الإسلام.....٢٣٤
المطلب الثاني.....٢٣٤
صفات التصوف العالمي.....٢٣٤
١- المجموعة الأولى:.....٢٣٥
٢- المجموعة الثانية:.....٢٣٦
٣- المجموعة الثالثة:.....٢٣٦
٤- المجموعة الرابعة:.....٢٣٧
موضوع التصوف:.....٢٣٩
غايته:.....٢٣٩
المراجع.....٢٤١